سلسلة ثقافة وإبداع

المحاصرون

فيصل حوراني

رواية



الكتاب : المحاصرون (رواية)

المؤلف : فيصل حوراني

الطبعة الثانية - 2004

تصميم وتنفيذ الغلاف : جمال الأفغاني

طبعت في مطبعة المنار الحديثة
تلفاكس: 02-2340539

المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي

رئيس المؤسسة والمحرر المسؤول: **المتوكل طـــه**

نائب الرئيس : **سيما الكيشي** المدير العام : **مراد السوداني**

رئيس التحرير : **محمد حلمي الريشة**

الإشراف والتنفيذ :
المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي

رام الله - **فلسطين**
ص . ب : 952
هاتف : 2406956 فاكس : 02 2406955
E.mail: ping@ping-palestine.org

فيصل حوراني

المحاصرون

رواية

المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي
2004



إلى حفيديّ

ليلى

ولؤي

هــذا النصّ هو إعادة إنتاج للرواية التي عنوانها "المحاصرون" والتي نشــرتها فــي العــام 1973، وكانت أول نص أدبي أكتبه، ثم لم أعد نشرها. وإعادة الإنتاج هذه اقتضتها دوافع فنية في المقام الأول.

1

وضعوه في الزنزانة وأبقوه فيها ثلاثة أيام متصلة؛ متران أو أكثر قليلاً في الطول ومتر واحد أو أكثر قليلاً في العرض؛ المساحة التي لا تتيح لجسد سجينهم فرصة الحركة. ومصباح كهربائي معلق في السقف لا ينطفئ؛ ما يلزم ليحسّ السجين بأنه مراقب. والجدران صماء، لا نافذة ولا حتى طاقة تهوية. والباب حديدي كثافته تذكر بأبواب السجون في أقبية القلاع القديمة. ولا أثاث، إلا أن يحسب في الأثاث البرشُ المهترئ والبطانية حائلة اللون اللذان ليس في الزنزانة شيء سواهما. قبر نزيله حيّ، تنفتح طاقة صغيرة في بابه مرتين في اليوم، وتمد يد لا يرى السجين وجه صاحبها طاسة فيها ما يؤكل وأخرى فيها ما يشرب. وينفتح الباب مرة واحدة فقط ليذهب هو إلى المرحاض، دقائق لا يؤذن بأن تزيد على خمس، ثم يعود، دون أن يرى في ذهابه أو إيابه مما هو بشريّ إلا قفا الحارس الذي يقوده؛ كل ما يلزم لكي تصير العزلة تامة فتتزعزع إرادة السجين وتهن قدرته على الاحتمال.

ولأن عزله امتدّ أطول مما توقع، فقد تصور خالد حين جاؤوا ليقتادوه إلى التحقيق أنه سيلقى معاملة قاسية. إلا أن الأمر جرى على غير ما تصور حتى لقد مازح نفسه وعدّه احتفالاً منهم بوقوعه في قبضتهم أكثر مما هو تحقيق.

والواقع أن احتفالهم هذا مضى هيناً بكل المقاييس، حتى حين تخللته لحظات لا يمكن إدراجها في وقائع أيّ احتفال. جاء حارسان إلى

زنزانته ولم يحرماه من رؤية وجهيهما، واقتاداه إلى حجرة التحقيق دون أن يصدر عنهما ما يعيب. وفي الحجرة، تلقاه رجل أنيق وذو مهابة جالس وراء مكتب أنيق هو الآخر وذي مهابة أيضاً. وكان الرجل هادئاً ومقتصداً في حركاته، وقد ألقى أسئلته دون إلحاح واستمع إلى الإجابات دون أن ينفد صبره أو يحنق، لم يدلّ بسطوته ولم يظهر أي سطوة.

ولئن ردد المحقق ما يردده كل محقق فإنه لم يبد مبتذلاً مثل سواه. فحين قال إنهم يعرفون عن خالد كل شيء، أي حين ردد زعم كل محقق يفترض في سجينه السذاجة، صاغ زعمه في نحو لم يبد معه مبتذلاً، وحين حذّره من الإمعان في التملص، انتقى ألفاظه بما جعل التحذير مجرد تحذير، فلم يغلظ في القول، ولم يشتم، ولم يهدد أو يتوعد.

وهكذا، انقضى ربع ساعة كما ينقضي فعلاً في احتفال حين يلتقي شخصان لأول مرة فيحاول كل منهما أن يعرف طوية الآخر ويسبر غوره. أما بعد ذلك فالتحقيق صار تحقيقاً حتى مع احتفاظ الرجل الأنيق بانتقاء ألبق العبارات.

- نحن نعرف مواقفك التي اختلفت فيها عن جماعتك، نعرف أنك لم تكفّ عن الانتقاد وإن قيادة تنظيمك اضطهدتك بسبب هذا. ونحن نطلب منك أن تساعدنا في فضح أخطاء القيادة، أليس من حق الناس أن يعرفوا؟ أنت لا تنكر هذا الحق.

- لست من الصنف الذي تبحثون عنه.

- نحن لا نبحث عنك، أنت بين أيدينا، انتبه لهذا!

- وجودي في السجن لا يبدّل موقفي، لن أسهم في نشر أي غسيل.

تشبّث خالد بموقفه: لن يسلمهم ما يسيئون به إلى جماعته. والمحقق لم يلحف، بل بثّ ابتسامة وشت بما يدور في ذهنه: كل سجين يبدأ

بالرفض، لكن ما من سجين يظلّ كما بدأ. وكأي محترفٍ فطنٍ، تظاهر المحقــق بأنه صرف النظر عن الطلب، وود أن يسمعه خالد ما ألف أن يقوــله وســط جماعــته في انتقاد أخطائها، وقال إنه يطلب هذا بدوافع فضــوله الشخصـــيّ وحده. ولما كان خالد سجيناً فطناً وذا خبرات، فقد صـــدّ هذه المناورة وظل على رَفضه. عندها، لم ينتق المحقق عباراته وحدها، بل انتقى لصوته جرساً تبدو معه عباراته كأنها ثرثرة أصحاب، وقال إنه تعامل مع أصحاب رؤوس ناشفة كثيرين ومن علامات التوفيق وحسن الحظ أن معظمهم سمع نصيحته منذ البداية واستجاب لطلباته ولم يحوجه إلى استخدام وسائل الضغط التي يستخدمها سواه. ولم يشأ خالد أن يفوّت هذه أيضاً، فصاغ موقفه من جديد.

– ناشــف أو غــير ناشــف. لك أن تطلب ما تشاء. أما بالنسبة لي فالمســألة ومــا فيها أني لن أخون الذين قاتلت معهم. ليست الخيانة في طبعي، بل الوفاء، وإذا كان...

أراد أن يفهم المحقق أنه ليس ممن يؤخذون بمناورات الكلام. ويبدو أن الرجل فهم فكف عن المناورة، لكنه لم يأذن لسجينه بالاسترسال.

– لا أجيز لنفسي أن أستمع إلى بيانات سياسية، تذكّر هذا، الآن وفي كل مرة! وأنا على كل حال غير مستعجل.

خــتم المحقق اللقاء بسرعة، وناول خالد قلماً ورزمة أوراق، وطلب مــنه أن يكتــب موجزاً لقصة حياته، قال: موجزاً، وشرح: كل ما هو مهــم، إذ لا لــزوم لإخفــاء شيء. وفيما خالد متجه ناحية الباب، لحقه إيضاح: هذا روتين لا أهمية له سوى أن التعليمات توجب اتباعه.

وفـــي الزنزانة، أسند خالد ظهره على الحائط، ورد رأسه إلى وراء ليريحه عليه، وأسبل جفونه ليتجنب أشعة المصباح، وعقد ذراعيه على

صـــدره، ومدّ ساقيه أمامه، وأبقى الأوراق والقلم في حجره؛ صار عليه أن يكتـــب فـــراح يفكـــر في ما ينبغي أن يكتبه. عامله المحقق معاملة خاصـــة لم يتضح له سببها وعليه أن ينتظر إلى أن ينكشف السبب. أما قصة الحياة فكتابتها في بداية التحقيق هي عملية روتينية حقاً، لم يخدعه المحقق عندما وصفها بهذه الصفة. وقد طولب هو بكتابة قصة حياته في كـــل مـــرة تعرض فيها للتحقيق. إلا أن العملية ليست بغير أهمية كما أوحـــى كـــلام المحقـــق. فالســـجين يكتب، فيدّعون أن روايته ناقصة، ويطالـــبونه بإعادة الكتابة، ويتكرر الإدعاء والطلب وإعادة الكتابة. وقد يلتقط المحقق في رواية أو غيرها معلومة مفيدة وقد لا يقع على شيء. أما ما يتصيده المحقق تصيداً فهو أيّ فارق بين رواية والتي تليها. إنها إحدى وسائلهم لإرباك السجين وزعزعة تماسكه واستدراجه إلى الإدلاء بالمعلومات.

وفيما هو يفكر، حضرت سميرة التي لا تغيب. تذكّر كيف ألفت أن تصـــغي بافتتان كلما روى لها واقعة من وقائع حياته وتحثّه دوماً على إيراد التفاصيل. ولو أن فضول المحقق كان من نوع فضول سميرة لما احـــتاج هو إلى الحذر الذي يكبّله، ولوفر الجهد الذي يبذله كي لا توقعه الكـــتابة في أي فخ، ولسلّى نفسه في عزلته البغيضة بالإمعان في كتابة التفاصـــيل. لكن ما دام فضول الخصم هو الذي يرغمه على الكتابة فما أشدّ حاجته إلى الحذر!

طوى ساقيه ليجعل ركبتيه مسنداً للورق. وكتب: "ولدت سنة 1940 في قرية في وسط فلسطين". هي، إذاً، ثلاثون عاماً، بل واحد وثلاثون، وما أكثر ما تراكم في الذاكرة، فما الذي يبوح به وما الذي لا يبوح به، وأي شـــيء في هذا الفيض يهم المحقق، هل يهمّه أن حياة الطفل الذي

كأنه في قرية أهله قد انبتت قبل أن يستكمل طفولته، هل يهمه أن القرية ذاتهـا قـد مسـحت مـن الوجـود. "هُجـر أهل القرية عندما احتلها الإسـرائيليون فـي العام 1948، وانتهى بنا المطاف إلى قطاع غزة". توخّيه الإيجاز وحرصه على إيراد وقائع لا يتوه فيها إن طولب بإعادة الكتابة جعلاه يتخطى أعوام نشأته الثمانية ويغفل تفاصيل مسيرة الهجرة الموجعـة. لكن أين هو الفلسطيني الذي لا يفيض مخزون أوجاعه كلما وقع ما يذكره بما جرى في عام النكبة.

تدفـق مخزونه، الصور الواضحة والأخرى المفتقرة إلى الوضوح، الحكايات الواقعية والأخرى المتخيلة، كيف نما كما كانت كائنات القرية كلها تنمو، بقليل من العناية لكن بثبات لا تزعزعه إلا الطوارئ الماحقة. وحضرت الليلة الفاصلة، تلك التي لم ير قريته بعدها أبداً، ليلة قتل من قـتل دون أن تقام له جنازة أو يحفر قبر ونجا من نجا دون أن يبقى له المـأوى الذي كان مستقراً فيه. ولئن نجا هو في تلك الليلة، فما أكثر ما أحدقت به الأخطار بعدها وما أكثر ما كتب له أن يكون في الناجين!

"مات أبي وأنا في الثامنة، قتلته غارة جوّية". حطتهم مسيرة الإقصاء عـن مسـقط الـرأس فـي أحد البساتين. وكان البستان مكتظاً بجموع المهجريـن الذيـن لـم يجدوا مأوى. وكان هؤلاء يحلمون بالعودة إلى مسـاقط رؤوسـهم. وفي صباح أحد الأيام فيما أبوه يبحث عن ركن لا يرى فيه، جاءت الطائرة القاتلة. وبعد رحيل الأب، وجد خالد نفسه هو وأمـه وقـد ضـمهما عم له إلى أسرته. وتابع الجميع مسيرة الهجرة فوجدوا أنفسهم على شاطئ غزة. وهنا، في العراء الذي حطّوا فيه، أقيم المخيم الذي استكمل فيه طفولته، استكملها؟ في ذلك الظرف؟ الأصوب أن يقول إنه فقدها.

"عشـــت فـــي رعايـــة عمي سنوات". رعاية العم، التعابير المنمقة ووقعها المضلل! والحقيقة أن العم هو الذي احتاج إلى الرعاية، الأسرة الكبيرة التي فقدت مصدر رزقها، الأولاد الستة الذين هم كلهم دون سن الرشد، والزوجة التي أكل الحمل المتكرر نصف عافيتها وأكلت متاعب الهجـــرة بقيـــتها، وهذان القريبان، خالد وأمه، العبء الذي انضاف إلى أعـــباء العـــم وإلى العاهة التي خلفها انفجار لغم فجعلته غير قادر على العمـــل. حـــتى لـــو كان العم سليماً وموفور العافية فأي فرصة كانت ستتوفر في غزة المكتظة بالمهجرين، ألم تصر البطالة هناك هي القاعدة والظفر بعمل هو الاستثناء!

تـــزوج العـــم أم خالد. وبلغة ذلك الوقت، ستر أخو الزوج الراحل أرملـــة أخيه الشابّة. وعاش خالد كما عاش أمثاله من أبناء المهاجرين؛ آوتـــه خـــيمة يبيـــت فيها عشرةٌ، وأطعمته المؤسسات الخيرية وكسته الملابـــس التي يجود بها من يستغنون عنها. ولئن كان في هذا ما وفّر المهجع وأقام الأود وستر العورة، فقد قصر عن توفير أي بهجة.

"انتســـبت إلـــى المدرســـة في مخيم الشاطئ وفيها تابعت دراستي الابتدائية". أنشئت هذه المدرسة، مثلها مثل المخيم، على عجل وتكونت، مـــثله، مـــن خيام. وفي المدرسة، صادق خالد صبياً من صفه وصارا رفيقيـــن متلازميـــن. وكانت حال أسرة جلال، صديقه، أيسر من حال أســـرته. فـــرب الأسرة القادمة من يافا امتلك في مدينته ورشة لتصليح الســـيارات، ويـــبدو أنه ادخر بعض المال. وقد أشفقت الأسرة اليافاوية علـــى صـــديق ابـــنها، ألا يستحق الشفقة يتيم غارق في البؤس. ولأن الصـــبي الـــبائس كان في الدراسة مجلّياً، فقد رأت الأسرة أن مصاحبة جلال له لن تخلو من فائدة. وبمضيّ الوقت، صار خالد يعامل في أسرة

صديقه كما يعامل ابن الأسرة. وبدورها، شجعت أم خالد ابنها، فابتعاده عن الخيمة يبعده عن البؤس الحالّ فيها، وهل ترفض أمٌّ أن يبتعد ابنها عن البؤس.

هذه الصلة خطّت لخالد مصيراً لم يكن متوقعاً. فعمه ما لبث أن مات تحت وطأة همومه وأمراضه. والمشاحنات بين أمه وضرتها سمّمت علاقته بأبناء الضرّة وجعلت جوّ الخيمة جحيماً لا يطيقه حتى من لا تتوفر له فرصة الابتعاد عنه. وكان من الطبيعي أن توثقت صلته بالأسرة الأخرى. ولأن أمه لم تحتمل وضعها، فما أعجل ما استجابت لأول طالب زواج. وكان الزوج الجديد يسكن في مخيم بعيد عن مخيمهم، فوجد خالد نفسه على مفترق طرق: أن يتبع أمه ويكرر التجربة المرة، أو يبقى مع أسرة أبي جلال.

آنذاك، لم يكن خالد الطفل الغرير الذي تقضي سنوات عمره الإحدى عشرة أن يكونه. فقد غارت الطفولة قبل الأوان، قبله بكثير، وصار الوعي أكبر من العمر، أكبر بكثير أيضاً. حتى الجسد، اشتد عوده قبل الأوان وطالت قامته. وفقدت قسمات الوجه السمات التي تميز وجوه الأطفال. وبالقامة النامية والقسمات الصلدة والشعر الأسود الكثيف والعينين عميقتي الغور، اكتسب خالد ملامح فتوة مبكرة واءمت النموّ المبكر لوعيه. إلا أن هذا لم يعن أن البتّ بشأن المصير كان سهلاً. والواقع أن المساعدة الحاسمة جاءت من أسرة أبي جلال ذاتها. فصديق الابن كان قد انتهى إلى أن يقيم عند هذه الأسرة إقامة شبه دائمة حتى قبل أن تتزوج أمه. وأم جلال وأبو جلال لم يفتهما أن يلاحظا حيرة خالد. ولكم كان أبو جلال شهماً وطيباً حين عرض على خالد أن يقيم عندهم إقامة دائمة، وكم كان متفهماً حين صاغ العرض في نحو لا يثير

الحساسية. سيصعب على جلال أن تبتعد عنه، قال أبو جلال. وأتمت أم خالد المساعدة، وهل تكون الأم إما إن لم تدفع ابنها إلى ما يريحه!

داهمته الذكريات وهو ينتقي ما يكتبه، وكلما حضرت واقعة جرّت وقائع، وكلما نبتت صورة انبتت صوراً، فلماذا لم يداهمه إلا ما هو مرير؟ اعتقل قبل هذه المرة وطولب بالكتابة فلم تستحوذ عليه التفاصيل الموجعة، فبم اختلف الأمر هذه المرة؟ لم يغالط نفسه، وكيف يغالطها، أليست هذه هي المرة الأولى التي يعتقل فيها وهو مهزوم، فما الذي يجلبه المذاق المرّ.

"بقيت في غزة أربع سنوات وفيها أنهيت الدراسة الابتدائية". وفي غضون ذلك، راحت أحوال الأسرة التي احتضنته تتردى، نفدت المدخرات ولم يتوفر مصدر دخل. وما أكثر ما سعى الميكانيكي إلى إيجاد عمل، لكن غزة لم يكن فيها سيارات كثيرة ولا أعمال. والباحثون عن فرصة، ميكانيكيين وغيرهم، كانوا الناس كلهم. ومع استحكام الضيق وبهوت الأمل في عودةٍ قريبةٍ إلى يافا، نبتت الرغبة في الخروج. ولما كان قطاع غزة محصوراً بين مصر التي أقفلت حدودها في وجه المهاجرين وبين إسرائيل التي طردتهم وقاومت عودتهم، فقد بقي للخروج وسيلتان كل منهما ليست شرعية وليست مأمونة: التسلل عبر صحراء النقب نحو الضفة الغربية والأردن، أو ركوب زوارق المهربين والتوجه إلى لبنان. وكان أبو جلال يسمع في كل يوم حكايات جديدة عن مآسي الذين تفتك بهم الدوريات الإسرائيلية في الصحراء أو في البحر. ولئن احتار أبو جلال في أي الوسيلتين يختار، فقد كان يخشاهما كليهما، ولهذا طال تردده. فلما طغى ثقل الحاجة، أقدم المتردد على المجازفة، وغادر القطاع وحده على أن تلحق الأسرة به فيما بعد.

ركب السيافاوي البحر، وأسعفه الحظ فنجا زورقه من الدوريات الإسرائيلية. لكن الحظ تخلى عنه في نهاية الرحلة، فقد وقع الزورق في أيدي الشرطة اللبنانية واقتيد أبو جلال إلى سجن بيروت. وكابد خالد ما كابدته الأسرة الباقية في غزة وهي تتابع ما وقع لراعيها. ومضت شهور قبل أن تفعل السلطات اللبنانية بأبي جلال ما فعلته بأمثاله، فتبعده إلى سورية. ووافاه حسن الحظ مرة أخرى، فتسجيل الوافدين الفلسطينيين إلى هذا البلد كان ما يزال ممكناً، وكانوا يسمونهم هنا لاجئين، فسجل أبو جلال نفسه في عدادهم. وتشارك الميكانيكي مع زميل مهنة تعرف عليه في سجن بيروت، وأنشأ الميكانيكيان في دمشق ورشة لتصليح السيارات.

"في العام 1952، انتقلت مع الأسرة إلى سورية وعشت في دمشق وفيها واصلت تعليمي وظفرت بالشهادة الإعدادية في العام 1953 والثانوية في العام 1958". صار على خالد أن يتعلم كيف يتواءم مع الجوّ الجديد عليه كلية، دمشق ليست مثل غزّة، وهي بالقطع ليست مثل قريته، والناس فيها ليسوا كلهم فلسطينيين. والدراسة؟ هل تهم متاعب خالد أثناء الدراسة أي محقق؟ ظاهر العبارة التي كتبها يوحي بأنه أمضى حياة مدرسية مستقيمة، لكن المحقق سيكون ساذجاً لو اكتفى بظاهر العبارة. لقد اضطربت حياة خالد في دمشق كما في أي مكان آخر. وبعد أربع سنوات من حلوله في دمشق، وقع ما بدل مسار حياته مرة أخرى، وذلك عندما مات أبو جلال فجأة بثقل سيارة حطّت على جسده وهو ممدد تحتها ليصلحها.

في يوم موت أبي جلال، في جوّ الحزن الذي حطّ على الجميع، وقع ما زعزع طمأنينة خالد إلى وضعه في الأسرة ثم لم يأذن بأن تعود.

وقـــع هذا في لحظة لعلها لم تستوف الدقيقة إلا أن تأثيره في روح خالد امتدّ لسنوات. وبقيت تفاصيل تلك اللحظة في ذاكرته كأنها مسجلة على شـــريط مصـــور. وفـــي الشـــريط خالد وجلال عائدين من مدرستهما ومفاجأين بحشد مكتظ أمام المنزل، والحشد وقد خفّت جلبته عند ظهور فتيـــيّ الأســـرة، والنبأ وقد سقط على الفتيين فأذهلهما ودفعهما دفعاً إلى حيـــث تجلـــس أم جلال والبنات داخل المنزل. وقتها، دخل خالد أولاً، ووقعت عيناه على سيدات الأسرة وقد هدهن المصاب هداً، ووجد نفسه وقـــد انحـــط جســـده على الأرض أمامهن واجتاحته موجة بكاء عاتية. والمدهش أن غرقه في الحزن لم يمنعه من الانتباه إلى ما يجري حوله. ولقـــد انتـــبه إلى دخول جلال وراءه، ثم انتبه إلى الفارق بين ما أثاره دخولـــه هـــو وبيـــن مـــا أثاره دخول جلال من ردود فعل المهدودات بحزنهن، وكانت تلك هي اللحظة التي زعزعت طمأنينته.

تلقـــت الأم والبـــنات دخـــول خالد كما تتلقى المفجوعات دخول أي مـــتعاطف معهـــن. أما جلال فقد احتل مركز الانتباه منذ ظهر. وعندما انحـــط جسده على الأرض كما ينحط جسد خالد وراح يبكي مثله، قامت الأم إلـــيه هـــو واحتضـــنته وجددت الندب والعويل وهو في حضنها، وجارتهـــا البـــنات. وما أوجع ما برق في رأس خالد: عيشك في أسرة أشفقت عليك لا يجعلك مساوياً لابنها!

ومـــا برق في تلك اللحظة استتبع عقابيله. فبعد انقضاء أيام العزاء، عـــندما صار على واحد من الفتيين أن يحل في الورشة محلّ المتوفى حـــتى تظل للأسرة حصتها فيها، تحمس خالد للمهمّة؛ رأى أنها فرصته كي يرد الجميل. لكن الأسرة أصرت على أن يتولى جلال هذه المهمة. وإذاً، فهو انحياز إلى الابن وهي الرغبة في أن يؤول ميراث الأب إلى

هـذا الابـن ولـيس إلى الغريب، هكذا فسر خالد الأمر. واندلح تأثير الواقعـة الجديدة، واشتط خالد في تفسيرها؛ فلو أرادت الأسرة أن يظل هو مرتبطاً بها لحمدت له تطوعه للعمل لأنه يتيح لجلال أن يتم تعليمه، وإذاً، فالأسرة لم تعد راغبة في بقائه معها. وفرّخ الهاجس هاجساً آخر في نوعه: البنات كبرن والأم تخاف عليهن منه، هو الذي صار شاباً.

والـذي حصـل أن جلال اندفع إلى العمل بهمة الفتى، بقوة جسده واتقاد روحه، فأعطى جهوده كلّها ووقته وذهنه للورشة، وتعلم بسرعة.

وبمضيّ الوقت، زاد دخل الأسرة وارتفع مستوى معيشتها. وبموازاة ذلـك، نمـا إحسـاس خالد بأن الأسرة تعدّه غريباً، واشتدّ إحساسه هو بالغـربة، وراح يلتقط ما يثبت أن إحساسه صادق: لا تستشيره الأم في شـؤون البـنات بـل تستشير جلال وحده، لا يناقشه جلال في شؤون الورشة هو الذي يناقشها مع أمه، يغالب جلال ضيقه كلما رآه منصرفاً إلـى الدراسة التي حرم هو منها ولابدّ من أنه يحسده ويستكثر أن يدفع أكلاف دراسته.

تضـاءلت الاهـتمامات المشـتركة واتسع الشقّ، ووصل خالد إلى القرار الذي لا مناص منه، لقد كبر وصار مطالباً بأن يعيل نفسه بنفسه ولـيس من حقه أن يفرض على هذه الأسرة الاستمرار في إعالته، وما دام بإمكانـه بشيء من الجهد الإضافي أن يعمل فيما هو يتابع الدراسة، فلمـاذا لا يستقل. وفاتح خالد بقالاً يأنس إليه برغبته في العمل فعرض الـبقال عليه أن يشتغل في حانوته، وسعد هو بالفرصة. أما كيف تلقت الأسـرة قـرار استقلاله عنها، فقد جرى الأمر بيسر، يسرته طبيعة أم جلال المتفهمة. وأم جلال هي التي نقلت الأمر إلى ابنها فجنبت الرفيقين المناقشـة المحرجة. وعندما عثر المنفصل عن الأسرة على حجرة يقيم

فـيها، أصرت أم جلال على أن يأخذ إليها ما يخصه من متاع المنزل وأي شـيء آخر يحتاج إليه. وجاء جلال بمدفأة حديثة الطراز اشتراها خصيصاً ليهديها إليه.

ثقلـت الأعـباء لكنها لم تبهظه. وتوزع وقته بين العمل والدراسة، الـنهار للحانوت، وبقية الوقت للمدرسة المسائية ومذاكرة الدروس. في الحـانوت صار هو المحاسب وإن توجب أن يؤدي أعمالاً أخرى. وفي المدرسـة، ظل هو هو التلميذ الحريص على النجاح. وعلى هذه الحال، أمضى خالد عامين، لم يعرف مسرات كثيرة، لكن نموّه اكتمل خلالهما واستوى شاباً رشيق القوام وجميل الطلعة، وعركته الحياة، تدرب على تدبر شؤون معيشته بنفسه، وألف عيش الكفاف وما دونه أو رجع إليه، الجوع حين يستنفد أجرته القليلة، والبرد حين ينفد الوقود، والافتقار إلى الملابـس التـي لا تخترقها العيون، ونسيان الكماليات. واكتسب القدرة التي طالما أسعفته بعد ذلك: أن يحتمل أي ظرف مهما قسا ويستغني عن أي شـيء مهما اشتدت ضرورته. وعندما ظفر خالد بالشهادة الثانوية، سـاعده رجل من زبائن الحانوت ذو نفوذ فحصل على وظيفة في قسم المحاسـبة فـي شـركة، فنقصـت ساعات عمله، وخفّ حرمانه من الضـرورات، وتسـنى له أن يرتدي ما لا تخترقه العيون، وأمكن أن يخصص وقتاً أطول لنشاطه الذي لن يكتب عنه.

"انتسبت إلى جامعة دمشق سنة 1958، وأمضيت فيها أربع سنوات، وحصلت على إجازة من كلية التجارة". كتب هذا، فاشتد دفق الذكريات وفيه الكثير مما لا يجوز البوح به. وأدرك أنه وصل إلى المرحلة التي قد يتوه لو طلب منه أن يكتبها ثانية، فتعجل الفراغ من الكتابة: "حصلت على وظيفة جديدة بقيت فيها حتى سنة 1967، سنة الحرب، ثم انهمكت

فـــي العمـــل الفدائي الفلسطيني منذ تلك السنة، وها أنا ذا سجين عندكم بسببه".

- خمسة سطور أم ستة؟ كيف تسمي هذا قصة حياة!

- إنه موجز، أنت طلبت موجزاً.

- لو طلبت التفاصيل فهل كنت ستجعلها عشراً مثلاً؟ أنت لست في وضع يسمح لك...، أنت فاهم. ستكتبها من جديد.

وتكررت العملية، أعاد خالد الكتابة.

- لا أجهل أن لديك خبرة، لكني أحذرك: لا تراوغ! فهذا خطأ، ولا تنس أنك بين أيدينا وملفاتنا تطفح بالمعلومات!

- أنت لن ترضى حتى لو جئتك بقصة حياتي مصورة على شريط. فما الذي عليّ أن أفعله بالضبط، أن أختلق وقائع لم تقع، أن أكذب؟

كان خالد يشحذ عزمه بمثل هذه التحديات الصغيرة. لكن المحقق لم يبد اهتماماً، بل لعل الرجل سلّم بأنه إزاء سجين من نوع خاص.

- نـــترك ما كتبت، تكتّم على ماضيك كما تحبّ، الجامعة والنشاط السياســـي والعمـــل الذي سميتموه الفدائي وغيرها. إنس حكاية الكتابة، ولنتكلم مباشرة، هل هذا يرضيك؟

- أنا بين أيديكم كما تقول أنت، في القبضة كما ترى.

- إذاً يـــا أيها الذكي الذي بين أيدينا ما الذي تقوله عن تكتلكم داخل تنظيمكم، التكتل الذي لن تنكر أنك أنت زعيمه والذي أتعب القيادة؟

- أي تكتل؟

كان خالد صادقاً في استنكاره، لكن أنى للمحقق أن يصدق السجين!

- هذا إنكار شخص مبتدئ وأنت لست...، هذا لا يليق بك. قلت لك لا تــــراوغ، إنس أنك سجين وأني محقق! حدثني حديث رجل لرجل! لا أظن أنك تخاف الجهر بآرائك أو تهاب الحديث عن ما فعلته عن قناعة.

مــدّ المحقــق لخـــالد سلماً وزيّنه بابتسامة ثم أضاف ما تصور أنه يغويه.

- لعلك تقنعني.

مــنذ خمســـة أيـــام وهو معزول في الزنزانة، لا اتصال ولا حتى استراحة للتنفس في هواء غير الهواء المشحون بالعطونة، ولا طعام إلا أن يعدّ طعاماً هذا الذي تحويه طاساتهم ولم يعرف خالد أبداً مم هو معدّ، ولا نظافـــة، ولا تدخين، فلماذا يغفل المحقق أن هذا الوضع لا يجعلهما متساويين.

- أنا سجين وأنت محقق، إغفال الواقع مستحيل.

لم يبد على الرجل أنه فوجئ بالإجابة الجافة أو استاء منها.

كـــان هـــذا رجـــلاً في عقده الخامس، كل ما فيه يوحي بالتماسك، القسمات المستريحة بغير استرخاء، والقوام الذي لا يجور امتلاؤه على رشاقته، والسلوك المهني الذي يتجلى كأنه جزء من شخصيته.

- ماذا عن علاقتك بسميرة البوارشي، أليست من تكتلكم؟

هـــذا الانـــتقال إلى الموضوع ذي الحساسية لم يحقق المفاجأة التي توخاها الرجل المحترف. فخالد محترف هو الآخر وسميرة لا تغيب عن باله، وفي عزلته التي طالت استعد جيداً لمفاجآت التحقيق.

- ســـميرة رفيقة، والرفيقات كثيرات، أنت تعلم، إنه العمل الفدائي، مقاومـــة الاحتلال، تحرير الأرض، الحقوق، صيانة الكرامة، فمن الذي

لم ينجذب إليه، لن تنكر هذا. أما التكتل الذي تسأل عنه فوهم، لا أنا ولا سميرة ولا أي أحد.

أنكــر خالد، ثم كرر الإنكار وظل يكرره. وما كان لصبر محقق أن يمــتد إلـــى الأبــد. وقد رد الرجل على الإنكار بفصيح العبارة، إنه لا يصــدق خــالد لا فــي هــذا ولا فــي غيره، ولن يصدقه، فهو واثق بالمعلومات التي بين يديه واثق بالمصادر. ولم يفت الرجل أن ينوه بأن معظــم مصادرهم فلسطينية، من أوساط الفدائيين أنفسهم. ولما لم يظهر على خالد أنه تأثر بما قاله المحقق، فتح هذا ملفاً موضوعاً أمامه وراح يقلــب أوراقــه كأنه يبحث عن ورقة بعينها ولا يهتدي إليها. ثم طوى الرجل الملف بحركة وشت بالضيق واكتست قسماته صرامة مفاجأة.

– تركــت لك وقتاً طويلاً للتفكير. أعطيتك فرصة وثانية وثالثة فلم تســتفد مــنها. حدثتك بأدب فصرت تتفلسف وتناور. نعاملك بالحسنى فتغترّ. أنت تسيء إلى نفسك.

ومع استمرار صمت خالد، ظهر برم الرجل ونفاد صبره واضحين على قسماته، واكتسى صوته الصرامة التي كست وجهه، وصار الكلام تقــريعاً وتخلــله الحديــث المعاد عن الفرص المضيعة والعناد الذي لا يجدي. ثم جاء الختام.

– والآن أحذرك. إذا نفد صبري فستسير الأمور في شكل مختلف، أنــت فاهم دون شك ولست ممن يجهلون وسائلنا. وأنا أحبّ أن أجنّبك التعذيب.

صبّ المحقق إنذاره في هذه الصيغة، وتلقاه خالد بمنتهى الجدية، إلا أنه تظاهر بغير هذا، وآثر الاستمرار في الصمت. وما نفع الكلام حين

لا يجنبك ما ليس منه بدّ. ويبدو أن صمت خالد أسخط المحقق زيادة على ما هو ساخط.

– حتى مساء الغد، إذا لم يهدك عقلك فالهداية لها عندنا وسائل أخرى كثيرة.

لم يستطع النوم، الإنذار، وخواء المعدة، والبرد المستوطن في الزنزانة، والمضجع القاسي، وهذا الضوء المنصب من السقف، كل ما يطرد النوم فكيف ينام.

أرادوا أن يضعف، أن يذلّ، إذا ذل السجين بدأ انهياره. سجناء كثيرون أذلتهم الحاجة إلى النوم، إلى الدفء، إلى وجبة يأكلها الواحد منهم دون أن يتقزز، إلى شراب لا تعافه نفسه، إلى رؤية عزيز. وما أكثر الذين انهاروا حتى قبل أن يعذّبوا! وفي ذاكرة خالد واقعة انهيار لا ينساها. فقبل سنوات، في بلد غير هذا البلد، اعتقل بتهمة تنظيم حركة احتجاج ضد سياسة ما، واقتيد إلى أحد الأقبية، ووضع في زنزانة واحدة مع معتقل لا يعرفه، ومنع كلاهما من الذهاب إلى المرحاض. وعندما أثقلت على زميل الزنزانة حاجته خجل من أن يفعلها في السطل المخصص لهذا الغرض، وطلب أن يأخذوه إلى المرحاض. فلما رفض الطلب غالب المأزوم بخجله حاجته ما أسعفته قدرته، ثم راح يترجى سجّانيه ويكرر الرجاء، ثم راح يتوسل ويفرط في التوسل، ثم بدأ يتذلل، وكان في هذا انهياره.

لم تحضر أي من ذكرياته إلا حضرت سميرة معها، إنها لا تغيب عن البال. وقد تذكر كيف حكى لها هذه الحكاية مرة فاستثمرتها لتبث رأيها في ما كانت تعدّه غرائب سلوكه. يومها، قالت هي نصف جادة

ونصف هازلة إنه هو قد يفعلها في أي مكان أمام أي إنسان حتى لو لم يمنع من الذهاب إلى المرحاض، دون أن يخجل.

لماذا يخيل إليه دائماً أنه عرف سميرة منذ الأزل مع أن لقاءهما الأول جرى قبل سنتين فقط. وقتها، كانوا قد أبعدوه عن العمل المسلح وولوه مسؤولية مكتب للعلاقات العامة، وقد جيء بها لتعمل فيه. أحضرها إلى المكتب عضو قيادة التنظيم أبو سمير، وهو أوثق الأعضاء صلة بخالد وأكثرهم تفهماً لمواقفه وسلوكه. وأول ما انتبه إليه في القادمة الجديدة هو أنها فتية وأن بذلة الفدائيين التي ترتديها أنيقة أناقة زائدة مما عنى أنها فصلت خصيصاً لها. وبهدي ملاحظته، تصور خالد أن المعيّنة من قبل القيادة معاونة له واحدة من بنات الأسر الميسورة اجتذبتها شهرة العمل الفدائي وفتنها الانتساب إليه والتقرب من قادته. وبتصوره هذا، استقبلها خالد بغير حماس وخاطبها بلقب آنسة. لكن أبا سمير تدخل، السيدة، وليس الآنسة، تخرجت حديثاً من الجامعة وشاءت أن تصير فدائية فرأوا في القيادة، أو أن أبا سمير الذي يعرفها رأى أن تُعاون خالد في عمله الجديد لأنها تتقن اللغة الإنجليزية. ولأنه كان يعدّ وجوده هو في المكتب عقوبة هدفها إبعاده عن ساحة العمل المسلح، فإن حديث أبي سمير عن الكفاءة اللغوية لم يثر اهتمامه، إذ ما أهمية أي كفاءة في مكتب لم توكل إليه مهمات تتطلب هذه الكفاءة!

وفي الأيام الأولى، أهمل خالد معاونته، لم يتعمد هذا تعمداً كما ظنت هي، بل جرى الأمر تلقائياً. فقد كان هو مكروباً لأسباب لا صلة للمعاونة بها ولم تتوفر أعمال توجب عليه أن يتحدث بشأنها مع أيّما أحد. ولم ينتبه لقصوره إلا حين فاجأته هي ذات صباح في حجرة مكتبه وبادأته الهجوم: الصنف الذي أنت منه لا يريد لسواه أن يعمل.

فتنته ثورة المرأة الشابّة، شيء ذكره بنفسه حين كان أي قصور يثيره. وقد ظل صامتاً إلى أن أفرغت هي سخطها كلّه، وما أكثر ما أفرغت وهو يزداد افتتاناً بثورتها عليه! ثورتك يا آنسة تليق بالمستجدة التي لا تنام على ضيم، هكذا بدأ هو محاولته تهدئة الثائرة مكرراً خطأ مخاطبتها بلقب آنسة، ثم أفاض بعد ذلك، فاعتذر عن إهماله وبيّن لها السبب، بل الأسباب، لم يخف شيئاً. ولما لم تتوقع هي إلا أن يهمل مديرها سبب سخطها أو أن تحنقه الاتهامات التي صبتها عليه، فقد فاجأها اعتذاره وفاجأتها صراحته. وهذا هو ما أقرت به في ما بعد، أما حينها فهي لم تتراجع دفعة واحدة. وقد طاب له هو أن يراقب رد فعلها وهي تصغي إليه، كيف جلست بعد عبارته الأولى بحركة جاذبة للانتباه لتذكره بأنه نسي حتى أن يدعوها إلى الجلوس، وكيف أبقت سحنتها متيبسة، ثم كيف أشعلت سيجارتها بعصبية ومجّت نفساً سريعاً ونفثته بسرعة، كأنما أرادت أن تعلن أنها ما زالت حانقة. أما بعد أن أمعن في حديثه، فقد لاحظ كيف صارت تتمعّن فيه وقد لانت السحنة، ثم كيف عرضت عليه سيجارة من علبتها وقبلت واحدة من علبته هو.

وبعد هذه الحركة، صار الحديث حواراً، حوار مثل أي حوار. وفي سياق الحديث، صححت سميرة تصوره لوضعها الاجتماعي فقالت إنها متزوجة وإن زوجها حذرها من خالد ووصفه بأنه إنسان متعب، وختمت بما بدا له أنها أرجأته إلى النهاية متعمدة: زوجها يعتقد أن خالد يكرهه. وأثار هذا كلّه فضول خالد بالطبع، فاعتذر عن ترديده لقب آنسة ليسأل عمن يكون زوجها، من هو هذا الذي يبدو أنه، مثلك، حانق عليّ. ولأنها ظنت أن مديرها يعرف وإنه أهملها بسبب موقفه من زوجها، فقد فاجأها الاستفسار، ولولا تأدبها لصارحته بأنها لا تصدقه. وهي على كل

حال لم تستطع أن تخفي دهشتها: أأنت لا تعرف حقاً أم إنك تتجاهل؟ ولم يسؤه شكها أو يتوقف عنده، بل استعجل التأكيد على أنه لا يعرف، واشتد فضوله. وجاء دور خالد ليفاجأ حين جاءه الجواب: أبو الملاحم، وكانت هذه إذا ذكرت بغير مقدمات أو أوصاف هي كنية واحد من أشهر قادة التنظيم.

سيعترف خالد لسميرة فيما بعد بأنه شعر لحظتها بتعاطف معها من نوع خاص، ومن لا يتعاطف مع حمامة إذا اكتشف أن زوجها هو الغراب! أما في حينه، فقد راح يتأمل في المرأة التي أمامه، الإنسانة وليس زميلة العمل، ويمعن في التأمل، الوجه الذي يستريح إليه النظر، والعينان الصافيتان اللتان بادلتاه صراحة بصراحة، والأنف الأنيق، والشفتان، العليا دقيقة الطرفين ممتلئة الوسط والسفلى الممتلئة كلها، والشعر البنيّ الذي يؤطر الوجه ثم يسترخي على الكتفين، وهذان الكتفان ومزيج الإباء والنزق اللذان يوحيان به، والقوام الذي يجلو الزي الفدائي أميز ما يميزه: الليونة والتماسك معاً. ومع أن التأمل فيها طاب له فقد كفّ عنه حين انتبه إلى أنه أطاله بأكثر مما يأذن به الدافع البريء، واهتدى إلى ما يعيد الحديث إلى مجراه، الحديث الذي كفّ منذ تلك اللحظة عن أن يكون مثل أي حديث.

هل قال أبو الملاحم صراحة إن خالد يكرهه أو إن هذا هو ما استخلصته هي من كلام زوجها؟ سألها هذا السؤال فلم تجب، بل سألته أن يوضح هو موقفه، هل يكره زوجها أو لا يكرهه؟ يكره ولا يكره؟ ليس للمشاعر أهمية في هذه الحالة. قال هذا وقدم شرحه، إنه يخالف أبا الملاحم في آرائه السياسية ولا يرتاح إلى سلوكه في الحقل العام، وهذا هو جوهر الأمر، وهو يركز عليه وحده. وأصغت هي إلى شرحه دون

مقاطعـــة، ثم عقبت: هذا شأنكما، فارتسم بهذا التعقيب موقف ناشطة في الشـــأن العـــام تجـــتهد في أن تتعود التمييز بين الشخصيّ والعام. وبعد التعقيب الوجيز، صمتت سميرة، ونفضت رماد سيجارتها دون عصبية ومجّــت نفساً نفثت دخانه بهدوء، ثم رجعت إلى الموضوع الذي بدأ به صباحهما ذاك: إنها لم تجيء إلى المكتب لكي تتحنط فيه بغير عمل.

واستحضـــر حبـــيس الزنزانة كيف راق مزاج سميرة بعد أن كرر اعتذاره ووعدها بتدارك ما فات. وشاع في روحه دفء حضورها. لكن صـــرير الطاقة وهي تنفتح انتزعه من ذكرياته وأطل الوجه الذي كان يترقب إطلالته.

- حملـــت زوجة أخي بنفسها الرسالة، ولما لم تجد الجماعة تركتها عند الجيران.

عندما سلم الرسالة للحارس خشي ألا تخرج من السجن وها هي ذي قد خرجت، أن لا يهتدوا إلى العنوان، وها هم قد اهتدوا. وكان واثقاً بأن سميرة لن تظل في المنزل بعد أن وقع ما وقع، إلا أنه أمل في أن تنظم صـــلة مع الجيران، وها هي ذي رسالته إلى سميرة قد صارت عندهم. قطعت الرسالة نصف الطريق وعليه أن يستبقي الأمل.

جيء به إلى سجن المدينة العاديّ هذا فتصور أن سميرة والرفاق لن يعـــرفوا مكـــان اعتقاله فاقلقته هواجسه. وحين أخذوه إلى المحقق بعد عزلة الأيام الثلاثة لم يفته أن يلاحظ نظرة التعاطف في عيني الحارس المســـائي الـــذي يجوس الممر. ولما تكررت النظرة وهو عائد، تشجع وأقـــدم على المجازفة، فلقي استجابة من الحارس، فكتب رسالة قصيرة وقال للرجل إن سميرة هي خطيبته.

أليست سميرة خطيبته بالفعل، ما الفارق بين أن تكون الخطبة معلنة وبين أن تكون غير معلنة، ألم يتفقا على إتمام مشوار حياتهما معاً؟ بل ما الذي يمنع أن يعدّا زوجين، هل العلاقة التي ترسمها السجلات والقيود أوثق من العلاقة التي ينشئها الحب؟ تعرف على سميرة وهو على عتبة الثلاثين. ولم يكن قد تزوج. وكان كلما فوتح في الأمر ردّ السبب إلى عدم الاستقرار. فهل هذا هو حقاً السبب، هل هو السبب الوحيد، هل هو سبب يتعذر تخطّيه، ألا يتزوج إلا المستقرون؟ ولماذا استقرت علاقته بسميرة، لماذا اتفقا على الزواج، بالرغم من أنهما التقيا وتحابّا وعاشا معاً فيما حياتهما كليهما في ذروة الاضطراب.

قبل سميرة، عرف كثيرات ولم تستقر علاقته بأي منهن. عرف ابنة صاحب الحانوت الذي عمل فيه وهو فتى، وفتن بالصبية ذات الشهوات السافرة، لكنه لم يمض معها بعيداً، فقد خاف أن يسخط أبوها عليه هو الأجير ويطرده من العمل. وفي الشركة التي انتقل إليها بعد الحانوت، تودد إلى زميلة عمل، واستجابت هي، لكنها أصرت على أن تبدأ أي علاقة بينهما بالزواج، فلم يذهب معها بعيداً هي الأخرى. وفي الجامعة، أحبّ فتاة وأحبته، وامتدت علاقتهما سنة كاملة، ثم صرمها انهماكه الشديد في الهم العام واختلاف موقفيهما من هذا الانهماك. كان هو مسكوناً برومانسيتة الثورية، الحياة بالنسبة له قضية وتضحية في سبيل الآخرين. أما هي فأحبته كي تسعد معه كما قالت وكررت القول لا لتشقى من أجل سعادة الآخرين. ولئن حرص بعد فتاة الجامعة على الموازنة بين الشخصي والعام، فقد بقي الطبع غلّاباً وما من علاقة أفضت إلى زواج أو استقرت طويلاً.

مـــع سميرة، اختلف الأمر، تميز من أوله وظل متميزاً. اهتمامه بها لـــم يســتنبته اســـتنباتاً بل نما من تلقاء نفسه، وكل شيء جرى بعفوية، الاهــتمام أنبت الميل إليها، والميل أنبت الحبّ، والحبّ نما. ولد الحبّ كما تولد الكائنات الطبيعية فنما واستقر كما تنمو وتستقر. ومعها، لم يجد نفسه متطلباً كما كان مع غيرها، لم يعرض تضحية ولم يطلب تضحية، لـــم يتطلع إلى أن يسعد الآخرين أو يشقيهم، لم ينشد الكمال أو النقص، بـــل مضت الأمور كما تمضي أمور الذين يتحابّون لأن من المتيسر أن يـــتحابّوا ولأن الحـــب جميل. لم تنتصب أمامه نماذج ولم ترتسم أفكار مســـبقة، بـــل دفق الحياة، ليّنة وقاسية، عاديّة وطارئة وهو الذي جلب الحبّ. لم يستخدم مسطرة المبادئ حتى مع أن المبادئ بقيت ولم تتبدل. ولم تحمل هي أي مسطرة، لم تحمل مسطرة حتى بعد أن صارت تعلي شأن المبادئ. أدفأ الحبّ روحيهما دون أن يتوقفا لإجراء أي قياس.

وكانـــت مشـــادتهما الأولى هي الأخيرة، وبعدها راحت الإلفة تكسو حواراتهمـــا حـــتى حين تتناول أعوص المسائل. وبعد أيام فقط من هذه المشـــادة، وكان عملها قد انتظم فصارا يلتقيان كثيراً بحكم العمل، سألته سميرة عن سبب احتقاره لزوجها. لم يكن هو قد تحدث عن أي احتقار، إلا أن ســـؤالها جـــاء سافراً: لماذا تحتقر زوجي؟ فأدرك أن هذا هو ما استخلصـــته وإنهـــا اســـتخدمت الصـــفة التي ظنت أن تأدبه منعه من اســـتخدامها. وتوفرت له فرصة طيبة ليوضح موقفه: أنا لا أحتقره كما تتصورين. بدأ بهذا ليكمل الإيضاح، لكنها قاطعته مستدركة: لنقل إنك لا تحمل له شعوراً طيباً. وإزاء إصرارها على تقصّي طبيعة شعوره، وجد خـــالد نفســـه مدفوعاً لشرح موقفه بتمامه. إنه لا يكره أبا الملاحم تماماً مـــثلما أنـــه لا يحبّه، وهو لا يحتقره، تماماً مثلما أنه لا يجلّه، ولم يقع

بينهما ما ينشئ كرهاً أو احتقاراً. إنه اختلاف الآراء والمواقف وأوجه السلوك. والأمر لا يتعلق بشخص أبي الملاحم، بل بصنف القادة الذي هو منه. يضيق خالد بالذين يدفعون نحو أهداف غير قابلة للتحقيق، الذين ينشدون المتعذر ويرفضون الممكن. ولو اقتصر الأمر على الرفض وحده لما ضاق به حتى لو كان رفضاً أحمق، فالحمق ظاهرة مألوفة، حتى حمق القادة، والرافضون ليسوا كلهم حمقى. أما أن يقترن الرفض بالحمق والحمق بالتبجح، أن يجيز الرافض الأحمق لنفسه اتهام العاقلين بأشنع التهم، فهذا هو بالذات ما يضيق خالد به. تحرير فلسطين التي من النهر إلى البحر وإعادة أهلها إليها واستعادة حقوقهم فيها وطيّ نتائج الاعتداءات التي تعرضوا لها، هذه كلها مطالب لا يوجد في هذا العصر مطالب كثيرة أخرى تساويها في عدالتها. لكن عدالة مطلب وحدها لا توجب التمترس عنده إذا أتضح أن تحقيقه ليس في المتناول، وهم يتمترسون، أبو الملاحم والذين على شاكلته. وحين لاحت فرصة استعادة جزء من فلسطين في هدى الشرعية الدولية، رفضوا الذي في المتناول لحساب البعيد، كأن من الممكن القفز إلى هذا البعيد فوق الواقع أو بلوغه على متون الأوهام. ولم يكتفوا بهذا، بل دمغوا الداعين إلى الاستفادة من الشرعية الدولية بأنهم خونة. ألا يضيق العاقل بالمزايدة حين تستهدف حجب صوت العقل؟

يومها، حاججته سميرة، الشرعية الدولية تعرض إعادة جزء من الأرض والحقوق وتثبّت للمغتصب جلَّ ما اغتصبه، ولهذا يستصغر الناس ما تعرضه ويستنكرون ما تبيحه للمغتصب. وأغلبية الناس تؤيد الدعوة إلى التحرير الكامل، فما الذي يجيز أن ندين دعاته. أوردت ما يحتج به الرافضون جميعاً، لكنها لم تبد متعصبة ولم تخف رغبتها في

سماع الرأي الآخر. فشجع هذا خالد كما سيشجعه في كل مرة سيتحاوران فيها بعد تلك المرة، وجعله يمعن في شروحه. فحجم ما هو معروض تتحدد أهميته حين تقارنه بما هو في اليد فعلاً. وما دام العدوّ مسيطراً على كل شيء وليس في يد الفلسطينيين ما يزيد على الصفر، فكل شبر يستعاد له أهمية ومن الحماقة استصغار شأنه. وأن تكون الأغلبية مع رأي فهذا وحده لا يجعل هذا الرأي هو الأصوب، فالأغلبية لا تظل أغلبية إلى الأبد. وما أكثر ما كان موقف الأقلية هو الصائب. وهل كانت البشرية ستتقدم لولا المبادرات المتواترة التي بادر إليها أقليات أو حتى أفراد؟ ولما استحوذ على انتباهها كاملاً، فقد أمعن يومها في بثّ ما يصدم القناعات الرائجة. ما من أحد أجرى إحصاء، ما من أحد استفتى الفلسطينيين بشأن ما يرفضون وما يقبلون. بثّ بعضهم آراء وروج لشعارات كبيرة وهيج من أحاطوا به ثم قال إن الأغلبية معه. وأبو الملاحم واحد من الذين يبثّون الشعارات الكبيرة بالرغم من أنه في موقع يبيح له أن يعرف مدى مجافاتها للواقع، وهذه هي نقيصته.

ويومها، صدمت العبارة الأخيرة سميرة، فاستحضرت في تفسيرها موقف زوجها ما سمعته منه، الشعارات الكبيرة تثير حماس الشعب، والحماس قوة في حد ذاته، قوة دفع، الحماس يشحذ همة الشعب ويدفعه إلى الميدان. ورد خالد بأن هذا هو أخطر ما في الأمر كلّه، تبثّ الشعارات الكبيرة آمالاً ويندفع الناس، يكافحون ويضحون، ثم لا يحصلون على شيء فيما يستولي العدو على كل شيء، أليس هذا هو الحال في ظل الشعارات الكبيرة، فما الذي يولده الفشل وتراكم الفشل، هل ينجم من الفشل إلا خيبة الأمل والإحباط واليأس.

دهمـــته الذكريات، وأين تداهم الذكريات إن لم يكن في تلك العزلة. وحضرت سميرة، فما الغرابة، أليست سميرة هي الذكريات وهي الدفق.

لقد أحس بعد حوارهما ذاك بأنها من طينة غير طينة زوجها. وراح إحساســـه هذا يتقوّى مع كل حوار جديد. والواقع أنهما صارا يتحاوران كل يوم. كانت تجيء إلى المكتب مبكرة فتهيئ ملفات العمل وتقاريره ثم تدخل بها حجرة مكتبه، الحجرة التي يبيت فيها أيضاً. وما أن يفرغا مما لـــه صـــلة بعمل المكتب حتى تكون مدارات الحديث قد تخلّقت. وكانت تصـــغي بانتـــباه، وتحـــاجج بحمية، وتزن الآراء، ولا تكفّ عن طرح الأســـئلة. وبمضـــيّ الوقـــت، تضاءل التمايز بين الشخصي والعام في أحاديثهما، إلى أن امتزج هذا بهذا وامحت الفواصل.

سألته مرة عن عمله المسلح، عن سبب إقصائه، وبدا له أنها راغبة فـــي معـــرفة هذا الجانب من شخصيته. وفي رده، تعمد أن يعرض ما يســـاعدها على فهمه. عرض تطور صلته بالعمل المسلح، كيف اختار هـــذا المـــيدان دون غـــيره لأنه تصور أنه يبعده عن المناظرات التي صـــارت تمضه. حدثها عن الدورات التي اتبعها، عن القاعدة العسكرية التي تولى مسؤوليتها وعن المسؤوليات التي تسلسلت بعد ذلك. وعرض خـــبراته ومـــا استخلصه منها، كيف أمل في أن تنصب عملياتهم ضد قوات الاحتلال حتى وإن انطلقت من الخارج، كيف حلم بأن يتمكنوا من إقامـــة قواعـــد للعمل المسلح داخل الأرض المحتلة ذاتها. وحدثها عن تطـــور المظاهر المسلحة في الخارج ونموها المضطرد والجهود التي بـــددت فـــي إنشائها وتنميتها ثم في الدفاع عنها ضد المعترضين على وجودها في بلدهم. وقال إنه طالما جهر برأيه أن معظم ما نشأ كان مما

لا لـــزوم له. وبيّن كيف أدت انتقاداته المتلاحقة للوضع إلى أن تضيق غالبية القيادة به، وهذا هو ما انتهى بهم إلى إقصائه.

رأى خالد في إقصائه هذا عقوبة للمصيب ومكافأة للخطأ. ولم يخف عــن سميرة أن معاقبته في هذا النحو سببت له مرارة كادت تسلمه إلى اليأس، بل أسلمته إليه لبعض الوقت، وكان ذلك هو الوقت الذي ظهرت هـــي إبانـــه في المكتب. وقال إنه لم يلبث أن وقع على النافعة التي في الضـــارة فتعزى بها؛ ألم يعفه الإقصاء من مرارة الإنصياع لأوامر لا يرتاح إليها؟

كـــان ما آل إليه الوجود الفدائي في هذه البلاد مسعفاً لخالد في إقناع ســـميرة؛ القواعـــد التـــي انتشرت مقابل حدود الأرض المحتلة وحوت الباسل والهامل، الذي لوجوده فيها لزوم والذي لا لزوم له في أي مكان؛ ونشـــاطات إســـرائيل الانتقامية، ما يطال القواعد وما يستهدف مزارع الفلاحيـــن ومواشـــيهم وحيواتهم ذاتها، الغارات البرية والأخرى الجوّية وقصـــف المدافع. وفي المدن، خصوصاً العاصمة، حيث لا لزوم لأحد، اكتظـــت الشـــوارع بالمســـلحين. وتواترت المشاحنات بين التنظيمات، وداخـــل كـــل تنظيم، واشتد الاختصام على مظاهر النفوذ والمنافع. أما المشـــاحنات مع السلطة، هذه التي ساءها بروز العمل الفدائي من أول الأمر، فقد فرضت وقعها الدامي على حياة الناس، مؤيدي العمل الفدائي وخصـــومه والمحايدين. ومع اشتداد عزم السلطة على اجتثاث الوجود الفدائـــي بـــأي ثمن، صار السلاح هو سيّد القول والفعل، سلاح السلطة والسلاح الذي بيد الفدائيين.

كانـــت الأحداث تتواتر كأنها لا تتوقف، غير الدامي منها والدامي، وكان أصحاب الآراء المتباينة يتنافسون في التعبير عن آرائهم فتتسابق

وسائل الإعلام لتظفر بفرص النشر. وكان هذا كلّه يوفر لحواراتهما ما يجلعها على الدوام حيّة ومشوقة.

ومع تقارب القناعات، راحت الحوارات تتحرر من الحساسيات. وصار بمقدور خالد أن ينتقد مواقف أبي الملاحم دون أن يختلف رد فعل سميرة عن رد فعلها لو انتقد أي قائد آخر. وما كان لأي نقاش أن يتناول ما آلت إليه الأمور دون أن يجيء على ذكر أبي الملاحم، فقد كان هو زعيم تيار المزايدين في التنظيم، وواحداً من زعماء هذا التيار في الساحة كلها. وناس هذا التيار هم الذين راحوا يدفعون الأحداث في الاتجاه الخطير الذي تمضي فيه. ومنذ أدرك أن سميرة لا تتحسس إزاء انتقاداته، صار وصفه لأبي الملاحم يوغل في عمق شخصيته. فهذا إنسان أتى إلى العمل الفدائي دون أن يضحي بشيء، واكتسب شهرته بأيسر الوسائل، المزايدة، وبقي دون أن يخسر شيئاً أو يكفّ عن التمتع بمباهج الحياة، ولم يفته أن يراكم المنافع، فأعماله القديمة جارية، والصلات التي يوفرها موقعه في العمل الفدائي تمكنه من أن يوسع أعماله وينشئ أعمالاً جديدة ويزيد مكاسبه. حياته رغدة، وأعباؤه يحدد حجومها بنفسه، وإعلام اليمين وإعلام اليسار يتباريان في إحاطته بالأضواء والحفاوة به. أما المخاطر التي تكتنف الجميع فهو يقاربها ما دامت في حدود المحتمل، وإذا اشتد الخطر في مكان فما أيسر أن يسافر إلى غيره، وما أكثر الأسباب التي تبرر السفر، بل ما أكثر ما يسافر القادة حتى بدون أسباب!

وكان خالد على ثقة بأن أبا الملاحم والذين على شاكلته سيلقون اللوم على غيرهم لو انهار كل شيء، ولن يتورعوا عن اتهام الجماهير التي يعلون شأنها في خطبهم بأنها كانت دون مستوى الأحداث. وقد حرص

خـــالد على أن تعرف سميرة قناعاته كلها. وكان مزيد من الدوافع يحثه علـــى الـــبوح لها حتى بأكثر آرائه إثارة للحساسية: ضيقه الذي يخنقه، وحاجـــته إلـــى الدفـــاع عن نفسه إزاء هجمات المزايدين، ورغبته في اكتساب سميرة إلى صفه، الرغبة التي بدأت خفيّة حتى عليه.

هـــل نبت حبّه لهَا منذ صارت مستعدة لقبول رأيه في أبي الملاحم، هـــل أحـــبها لهـــذا السبب، هل كان ثمّة أسباب أخرى؟ سأل نفسه هذا السـؤال أكـــثر من مرّة، ولم يجد في أي مرة إجابة شافية. ليس للسبب أهمية، هذا السبب أو سواه، فقد وجد نفسه متعلقاً بها، وأدرك أنه يحبّها، وهي تستحق أن تحبّ سواء كانت زوجة لأبي الملاحم أو لم تكن زوجة لأحد، وهذا هو جوهر الأمر الذي له الأهمية، ألا يهتم هو عادة بجواهر الأمور، وحدها!

حضـــر إلـــى الزنزانة الصباح الذي أدرك فيه أنه يحب سميرة. في ذلك الصباح، اقتحمت هي حجرة مكتبه قبل أن تذهب إلى حجرتها وتعد أي ملفـــات، وأبلغت إليه وهي متوترة أنها كادت تقتل على الطريق إلى المكتـــب، وأنطقهـــا توتـــرها بالتفاصيل. وقعت الواقعة بين فدائيين من تنظـــيمهم وبين شرطة السلطة، وغمر رصاص الطرفين المنطقة التي كانـــت تعـــبرها بالصـــدفة لحظة بدء الاشتباكات. وألجأها الخطر إلى الاحـــتماء بمدخـــل أحـــد الأبنـــية، ومنه رأت بأم عينها تساقط القتلى والجـــرحى، وكان هؤلاء كلهم من المارّة، ولو تأخرت ثانية واحدة في الالتجاء إلى مدخل البناء، لأمكن بكل تأكيد أن تصير بين الضحايا.

كـــان تواتر الاشتباكات بين الفدائيين والسلطة قد اشتد وصار الأمر مألوفـــاً بالنســـبة له، فلم يظهر عليه رد الفعل الذي توقعت أن تشهده. وشاء هو أن يهوّن عليها الأمر ليهدئها هي التي ظلت متوترة حتى بعد

أن فرغت من رواية الحكاية، فاختار المزاح، تأخرتِ في المجيء فتصورت أنك تأخرت في النوم ولم أتصور أنك كنت تعانين الأهوال. قال هذا فأغاظها القول هي التي كانت مغتاظة أيضاً من رد فعله البارد. في مثل هذا الظرف! هتفت مستنكرة. فانساق في ما بدأ فيه، وأعوزته الحصافة، لماذا لا تسأل زوجها وأصحابه عما يفعلونه فيما الأحوال تتردى؟ ولم ينتبه إلى سخف ما صدر عنه إلا بعد أن تفوه به. ووخزه ندمه. وجاءته وخزات منها، الموت الذي ترصدها، الرعب الذي أحاط بها، الجرحى، القتلى، كل هذا وهو غير منشغل إلا بأبي الملاحم وكرهه له. هي على حق في تقريعها إياه، أقر بهذا واعتذر، إنها عزيزة عليه، ولكنه، مثلها، متوتر في داخله، بل مثل جميع من في البلد، تتوالى الاشتباكات وما من شيء جدّي يعمل لوقف التردي، وهو يعتقد أن السلطة مرتاحة لما يجري لأن بإمكانها أن تستثمره للتعبئة ضد الفدائيين، واسم أبي الملاحم لم يرد على لسانه إلا لأن الحاضرة أمامه، الخارجة لتوّها من الخطر، هي زوجته، ولئن كان أبو الملاحم مسؤولاً فالآخرون مسؤولون أيضاً، وهو لا يبرئ أي مسؤول.

نفع الاعتذار والشرح، وهدأت سميرة، وجاء دورها هي لتمزح، فقالت إنها تتصور أن خالد كان سيفرح لو أنها قتلت، لأن موتها سيعطيه الدليل الساطع على خطأ السياسة التي يؤيدها أبو الملاحم.

وانتبه خالد إلى شيء أجج في داخله المشاعر التي كان يغالبها: جاءت سميرة على ذكر أبي الملاحم مرتين ولم تقل زوجي بل قالت ما يقوله أي غريب: أبو الملاحم. وفي تلك اللحظة، كان إحساسه بها، بالمرأة التي أحبها وانتهى الأمر، أقوى من أن يغالط نفسه بشأنه أو يفلح

في مقاومته وأسفر من أن يخفيه. وعندما قامت لتنصرف إلى العمل، استوقفها شيء في هيأته. ولكم أحسّ منذ تلك اللحظة بأنها قريبة منه!

قريبة منه؟ لو جارى عاطفته لتمنى أن تكون معه في الزنزانة. لكن، في الزنزانة؟ لا، فهو لا يريد القرب إلا بالمعنى الذي يعرفه الحبّ، وخياله عامر بحضورها فيه، والخيال كالفكرة، لا توقفه الحواجز ولا تصده جدران الزنازين. تحجز الزنزانة الجسد لكنها لا تحجز الروح ولا تمسك الخيال.

2

كمـــا كانـــت معه، كان هو معها. وبينما راح يفكر فيها، كانت هي تفكـــر فيه. حضر طيفها إلى زنزانته، وحضر طيفه إلى حجرتها. وكما داهمـــته الذكريات في السجن، داهمتها الذكريات في المنزل الذي لجأت إليه لتتوارى عن الأنظار.

لكم شقي في حياته، أما حياتها هي فاختلفت. لم تعرف العذاب الذي عـــرفه ولـــم تضـــطرب أحوالهـــا كما اضطربت أحواله. فكرت بهذا وغمرتها موجة حنان آسرة، وتساءلت: لماذا كان عليه أن يكابد كل هذا الشقاء، كأنها آسفة لأن حياتها لم تكن شقية مثل حياته.

أبـــو سميرة كان مدرساً للغة الإنجليزية، ولد ونشأ وعمل في حيفا. ومع بداية 1948، مع الاضطراب الذي عمّ المدينة وثقلت أخطاره على كـــل مـــن فيها، غادر المدرس مدينته ولجأ بولديه وزوجته إلى دمشق. كانـــت تلك هي أمها وكان هذان هما أخويها. أما هي فلم تكن قد ولدت بعـــد، بـــل كانـــت جنيـــناً في رحم الأم. وكان الحمل هو الذريعة التي استثمرها الأب ليبرر رحيله عن مدينته التي يدعو أهلها بعضهم بعضاً إلى الثبات فيها.

وفـــي البلد الذي لم يكن مستعمروه الفرنسيون قد جلوا عنه إلا قبل سنتين فقط، سرعان ما ظفر مدرس اللغة الإنجليزية بعمل، بل بأعمال، مدرســـة حكومـــية ومدارس خاصة ودروس لأبناء الميسورين. وهكذا، بيـــنما راحت جموع اللاجئين الفلسطينيين تتدفق بعد شهور على المدينة

وتتحشد في المآوي الخيرية والمساجد أو حتى في العراء، كانت أسرة المدرس قد استقرت في شقة وتوفرت لها حياة لا ضنك فيها. وهناك ولدت سميرة واحتفلت الأسرة بالبنت التي تجيء بعد صبيين.

وبعد سنوات قليلة، تلقى المدرس عرضاً للعمل في الكويت، غمر النفط هذه البقعة الصحراوية الجرداء بنعمه الطارئة فتطلع إليها الباحثون عن الفرص. وكان الفلسطينيون، وهم الذين فقدوا مصادر رزقهم، بين أوائل المبادرين. وقد أنشأ بعض معارف المدرس الحيفاويين شركة للمقاولات. ولأن الإنجليز كانوا هم سادة كل شيء، فقد احتاجت الشركة إلى من يتقنون الإنجليزية. ولئن تردد الميال المزمن إلى الاستقرار في اغتنام الفرصة فإن تردده لم يطل. كان الدخل المعروض كبيراً فتغلبت غوايته على الحذر من المغامرة. ولئن انتمت الأسرة في الكويت إلى الوسط الذي شكله الميسورون من الفلسطينيين فإن علاقتها حتى مع وسطها هذا كانت مقننة. وقد وجد في الكويت أوساط كثيرة، فكان فيها الوافدون الفقراء الباحثون عن أي فرصة لإعالة أسرة متروكة في بلد ما، والمغامرون الذين يتصيدون فرص الغنى السريع بأي وسيلة، والأفاقون الذين يعتاشون في كنف حديثي النعمة أو تليديها. ولأن حابل الأوساط في بلد صغير اختلط بنابلها، فقد حرص أبو سميرة على النأي بأسرته عن أي وسط لا يليق بتصوره لمستواها، واقتصد في إقامة العلاقات، وكان في هذا المجال انتقائياً مفرطاً في التحوط، لكنه لم يكن متزمتاً، كما لم يكن الانطواء على النفس في طبعه.

في هذا الجوّ، درجت سميرة طفلة لم تفتقر إلى الرعاية، والدان لا يشغلهما شيء بأكثر مما يشغلهما الانهماك في توفير حاجات الأبناء،

وسكن مريح وفاخر، ومعيشة ميسرة، ومدارس من أرقى مستوى، وكل شيء من هذا القبيل.

إلا أن رغد العيش لم يخل من منغصات. فقد شابت حياة الأسرة مسحة مرارة كانت ترق أو تغلظ حسب الأحوال لكنها لا تزول. وكانت مشاعر الغربة والافتقار إلى الانتماء وحنين الكبار إلى مألوفهم الذي فقدوه هي قوام هذه المرارة؛ ترى الأم حياتهم المحصورة في وسط ضيق مكون من غرباء مثلهم، وتشهد استعلاء مواطني البلد على الغرباء، فتستحضر حياة حيفا، العلاقات الواسعة الحميمة، والاحترام الذي يخص به المجتمع أسرة المدرس، فيعتريها حنين إلى تلك الحياة لا شفاء له. وكان الأب يكابد الحنين ذاته للأسباب ذاتها، ويكابد معه قلقاً على وضعه في العمل. وقد تبين للأب أن معارفه الفلسطينيين الذين اجتذبوه إلى الكويت لا ينفردون بملكية الشركة وهم ليسوا أصحاب السلطة عليها. فنصف الشركة بكامله مسجل باسم كويتي لأن القانون يوجب أن يملك كويتي نصف أي شركة، على الأقل. ولما كان الحاج عبد اللطيف، وهو هذا الكويتي، هو مالك الحصة الأكبر فقد صار سيد العمل. وكان الحاج الذي لا تنسى سميرة اسمه حديث نعمة فضلاً عن أنه شبه أمي. وكأي جاهلٍ حديثِ نعمة، كان الحاج أنانياً فضلاً عن أنه فظ ومتقلب المزاج. وقد وصم نظرة الحاج إلى المحيطين به استعلاء قبيح، الرئيس الذي يعرف أن مرؤوسيه أكفأ منه ولا يعرف التواضع. وما أكثر ما توجع أبو سميرة وهو يقارن بين وضعه في الوظيفة الحكومية وبين ما آل إليه منذ صار الحاج عبد اللطيف هو المتحكم به!

وكان الفلسطيني في الكويت يوصف دائماً بهذه الصفة أياً ما كانت عليه صفاته الأخرى. وكثيراً ما نوديت سميرة بيا فلسطينية بدل أن

تـنادي باسمها. ولئن بدا الوصف عادياً في البلد الذي فاق عدد الوافدين إلـيه عـدد مواطنـيه واكـتظ بحاملي شتى الجنسيات، فإن وقعه على الفلسطينيين بالذات كان مختلفاً. فالبريطاني أو الفرنسي أو المصري أو السوري أو اللبناني أو الإيراني أو الهندي أو الباكستاني أو صاحب أي صـفة أخـرى توفر لكل منهم وطن يحمل جنسيته ودولة يحمل جواز سـفرها ومـلاذ يعرف أنه قادر على العودة إليه ولم يكن يتحسس إذا نـودي بصـفته. أما الفلسطيني فكانت مناداته بصفته هذه تنطوي على التذكير بما هو محروم منه فتحمل استهانة به أو استصغاراً لشأنه وتذكّر بغموض وضعه ومستقبله. وعند الذين عدّوا افتقار الفلسطيني إلى وطن ودولة عيباً فيه، انطوت الصفة على معنى الزراية. ومن الذي لا ينغصه تذكـيره بهمـه أو استصـغار شأنه أو الازدراء به! وما أكثر ما رجع عضو أو آخر من أعضاء الأسرة إلى المنزل وهو منغص لهذا السبب!

وقـد ألفت سميرة السادرة في رغد العيش أن تتشرب ما تسمعه من ذويهـا وتتأثر به حتى قبل أن يتكشف لها مضمونه بتمامه؛ تقول أمها: الخـير هنا كثير غير أننا غرباء؛ ويقول هذا الأخ أو ذاك: عيرني ولد كويتـي بأني فلسطيني وقال إن الفلسطينيين باعوا وطنهم؛ ويقول الأب: حنق الحاج عبد اللطيف على أحد شركائه فشتم الفلسطينيين كلهم؛ وتنزّ المـرارة مـن الأصوات والسحنات، ويتعذر ألا تحس الطفلة بطعمها. وبعـد أن كبرت، توجب عليها أن تدخل التجربة بنفسها وتختبر ما سبق أن سمعته، وصارت تسخط مرة وتستكين مرة، وتتنغص في كل مرة.

بالطـبع، لم يكن كل كويتي فظاً أو جاهلاً أو متجنياً مثل الحاج عبد اللطيف. ولم تبلبل هذه المنغصات حياة الأسرة أو تبدل مجراها. بل إن الأمور سارت على العموم في النحو المألوف، الأم ومسؤولياتها، والأب

وعمله واهتمامه بتوفير ما يضمن مستقبل أسرته، والولدان ودراستهما. وجرى كل شيء بانتظام. أنهى الولدان الثانوية والتحقا بالجامعة وتخرج أولهما وأوشك الثاني على التخرج. وأتمت سميرة الابتدائية ثم الإعدادية، وصارت على وشك أن تتم الثانوية. وتقدم الأب في الوظيفة وزاد دخله وكبرت حافظة مدخراته. وكان مقدراً لحياة الأسرة أن تستمر في هذا النحو لو لم تعصف بها الأزمة التي بدلت مجراها.

بدأت الأزمة منذ اليوم الذي افتتن فيه الحاج عبد اللطيف، وهو من كان زوجاً لثلاث نساء وأباً لجيش من الأولاد، بمن صارت ابنه سبعة عشر ربيعاً وصارت تفتن الرجال.

يومها، قدم الحاج لتناول الغذاء في منزل الأسرة. وكما جرت عليه العادة، جالس الأب وحده وليّ النعمة، وأشرفت الأم على خدمة المائدة دون أن تجلس. أما سميرة فكانت في المدرسة، وقد سهت أمها عن أن تبلغ إليها أن الحاج سيتغدى عندهم، فلم تتبع سميرة العادة التي كانت تتبعها كلما كان الحاج في ضيافتهم ولم تدخل المنزل من بابه الخلفي، بل اقتحمت الباب المفضي إلى حيث يجلس أبوها وضيفه. ولحظتها، وقع نظر الحاج على الصبيّة ذات المفاتن العفيّة وأسكرته مفاتنها. ومنذ ذلك اليوم، صار الحاج يفتعل الأعذار ليحمل أبا سميرة على دعوته إلى منزله أو ليجيء بغير دعوة. وغرق المنزل في الهدايا التي راح الحاج يغدقها عليه بمناسبة أو بدون مناسبة. ولم يفت والدا سميرة أن يستخلصا مرمى سلوك الحاج، لكن ما من واحد منهما لفت نظرها إلى ما يقلقهما كليهما، وكل ما احتاطا به أنهما صارا يختلقان أسباباً لإبعادها عن المنزل كلما جاء الحاج إليه.

وذات صـباح، اسـتدعى الحـاج عبد اللطيف أبا سميرة إلى مكتبه وسلمه قراراً بترفيعه استثنائياً وزيادة راتبه زيادة سخيّة. فشكر المهموم بهاجسه وليّ نعمته وتعجل الانصراف، غير أن الحاج استوقفه، وعاتبه علـى تعجلـه، وقال إنها مناسبة تستحق أن يحتفل بها، وطلب بصريح العبارة أن يجري الاحتفال في منزل الأسرة.

ولما لم تظهر سميرة في الاحتفال، سأل الحاج عنها دون أي تحرج، بنيـتكم الزينة لماذا لا نراها، ثم لم ينصرف قبل أن يطلب يدها. وتلقى أبو سميرة الطلب غير مفاجأ به، ومع هذا فإنه ارتبك. لعله غالط نفسه قبل ذلك اليوم، أو لعله أمل في أن يرتدع ابن الخمسين من تلقاء نفسه، فلـم يتهيأ للخطة التي يواجه فيها مثل هذا الطلب. ومما لا شكّ فيه أن الأب كان حريصاً على تجنيب ابنته هذا المصير، إلا أنه لم يجرؤ على مواجهة الحاج برفضه للتو، فاستمهل الطالب وتذرع بما يتذرع به الآباء دائماً: الحاجة إلى استشارة أهل المنزل. ولم تكن أم سميرة أقلّ ارتباكاً، فهي ترفض، لكنها، مثل زوجها، تحسب حساب ما قد يفعله وليّ نعمتهم بهم. والأصحاب الذين استشارهم الأب تنوعت آراؤهم، قال أحدهم: أين الضـرر، ستعيش البنت في الحرير والذهب، وحثّه ثان على الرفض، وقال ثالثهم: دبر رأسك! وعندما استعجل الحاج الإجابة، استمهله الأب مرة أخرى.

جـرى هـذا كله دون أن تعلم سميرة به. وهي لن تنسى اليوم الذي فوجئـت فـيه بمـا جرى. ففي ذلك اليوم، جاء الحاج عبد اللطيف إلى مـنزلهم فـي غياب الأب، وتلقته الأم محرجة، زوجها ليس في الدار، قالـت عـند الباب لتصد الزائر. إلا أن الحاج اندفع إلى داخل المنزل وجلـس، وصـارح الأم بأنـه لم يأت ليرى أبا سميرة، بل ليرى البنت

ويسألها بنفسه لماذا ترفض العزّ المعروض عليها. وأنسى الهلع أم سميرة الحذر فتوسلت للحاج توسلاً: سميرة لا تعلم أي شيء عن الموضوع. هكذا إذاً؟ زأر الحاج كأنه وحش انتزعت منه فريسته، أخفيتم الأمر عنها، لقد حزرت. وكان هذا هو ما سمعته سميرة الراجعة في تلك اللحظة إلى المنزل. ولما لم يكن في عبارة الحاج ما يكفي لأن تفهم كل شيء وإن كفى لإثارة هواجسها، فقد وجدت نفسها تصرخ: ما الذي تخفيانه عنيّ. وجاءت الإجابة من الحاج الذي انطقه حنقه: طلبت يدك من أبيك، على سنّة الله ورسوله، وهو يماطل.

للوهلة الأولى، لم تستوعب سميرة فحوى الإجابة الوجيزة، فظلت النظرة المستفهمة عالقة في عينيها، ثم انكشف لها كل شيء دفعة واحدة: الأسى الذي كسا وجهي والديها في الأسابيع الأخيرة، وتفلت أخويها من التبسط في الحديث معها، والهمسات، كل شيء. ووجدت نفسها تجري نحو حجرتها وهي تبكي.

تناقضت مشاعر أبي سميرة. انفثا الدمل فبارحته آلامه، وتأكد الرفض فهدأ ضميره، لكن الخوف من انتقام الحاج اشتد، وصار في حكم المؤكد أن يجيء الانتقام قاسياً. وأعجب الأب بمسلك ابنته، ألم تشهر في وجه وليّ النعمة لا كبيرةً انداح صداها في كل مكان. ومن هو الأب الذي لا تعجبه شجاعة أبنائه خصوصاً حين يتفوقون عليه!

أما سميرة فقد أحنقها ما عرفته من تردد أبيها وصمت أمها. لماذا لم يقولا لا منذ البداية، لماذا لم يشركاها في مناقشة مصيرها؟ وعندما احتج أبوها بأنه ما كان ليزوجها أي رجل لا تريده، لا الحاج ولا سواه، لم ينطفيء حنقها كلّه، بل لقد كادت تصرخ في وجه أبيها بأنه جبان. أما

عـندما صـارحها بإعجابه بمسلكها هي، فما أشد ما أحست بالتعاطف معه، هو الذي أحاطت به الهموم بسببها!

لـم يـتوقع الأب العارف بنزوات الحاج أقلّ من الطرد، الطرد من العمل والطرد من البلد، فحاول أن يكسب وقتاً يتدبر خلاله أمر خروجه بنفسـه. كـان يعد وَلديه للدراسة العليا فألغى ما أعدّه وتدبر لكل منهما عمـلاً، المتخرج في السعودية، والذي سيتخرج في البحرين. وأحصى مدخـراته واسـتثماراته فوجد أن لديه ما يكفي، فطلب هو إعفاءه من العمـل. ومـا أن أنهـت سميرة امتحانات الشهادة الثانوية حتى رحلت الأسرة عن الكويت، وانتهى عهد سميرة في البلد.

اخـتار الأب في تقاعده المبكر هذا الإقامة في الإسكندرية، البحر، والميناء، وما يذكر بحيفا، ومصر التي يحبها اللاجئ الفلسطيني ميسور الحـال. وارتاحـت الأم للاختيار، ورحب به الأولاد. وقدر الجميع أن الإسكندرية هي المدينة التي يمكن أن يلتئم شمل الأسرة فيها كل صيف حين سيبحث الولدان عن مكان يقضيان فيه الإجازة.

وهكـذا، شـهدت حـياة سـميرة تحولين كبيرين معاً: من الكويت ومجـتمعها المكـبل بشـتى القيود إلى الإسكندرية وانفتاحها على شتى الأمدية، ومن مدرسة الإناث الصغيرة ومحرماتها الصارمة إلى الجامعة الكبـيرة وحرية الاختلاط. ووفر الوالدان لابنتهما الطالعة كل ما يلزمها دون أن يـتدخلا فـي شـؤونها. وتبارى الأخوان في إرسال الهدايا أو جلبها، وحرصا على أن تظل ملابسها وأشياؤها كلها من أحدث طراز. اسـتمر، إذاً، رغد العيش، بل زاد. وبقيت الرعاية الحادبة. بالرغم من هـذا، وبالرغم من أن سميرة تمتعت بما توفر لها، فقد ظلت تحسّ في

قرارة نفسها بأن شيئاً ما ينقصها، شيئاً لا تتبين كنهه لكنها تدرك أنه هو ما يبقي حياتها غير ممتلئة.

أولـــت دراســتها ما يلزم من الاهتمام لكي تنجح، لكي تنجح بدرجة جيدة، لكن الدراسة لم توقد في داخلها هذا الذي يتّقد في أرواح الطلاب المولعيـــن بالمعـــرفة. وشاركت زملاء الكلية نشاطاتهم، لم تعتزل، لكن مشاركتها افتقرت إلى الحميّة التي تحرك مَنْ حولها. سعى كثيرون إلى التقرب منها، وتودد بعضهم إليها صراحة، لكنها لم ترفع الكلفة مع أي مـــنهم ولم تشجع أي معجب. وقالت الفتيات: متكبرة، أما الفتيان فقالوا إنهـــا انطوائـــية. وكانت تدرك أنها ليست هذه أو تلك، لكنها لم تفعل ما يصحح انطباعاتهم. ولولا أنها لم تتدخل في شؤون أحد ولم تزاحم أحداً على شيء لأمكن أن تعامل بعداء.

استحضـــرت حالهـــا ذاك وتذكـــرت دهشة خالد حين باحت له بأن حـــياتها افـــتقرت إلى الحميمية، وإن أول علاقة حميمة في حياتها هي علاقتها به. وأبو الملاحم؟ وضعت دهشة خالد يومها السؤال الذي يسوّغ ظنّه بأنها تبالغ، فردت هي بحسم: لم تكن تلك علاقة حميمة.

متى دخل أبو الملاحم حياتها؟

حينما عرفته لم يكن يحمل هذه الكنية، بل كان يخاطب باسمه: وليد. وقـــد ربطـــت أسرته بأسرتها في الكويت علاقة معرفة، وكان وليد من أصـــحاب أخويهـــا. وحين انتبهت إلى وجوده، هو الذي يكبرها بعشر ســـنوات، كان قد تخرج لتوه من الجامعة وظفر بعمل أنشأه له مال أبيه ونفـــوذه. وممـــا لا شك فيه أن الشاب مفرط الحيوية الذي يتدفق كلامه وحـــركاته بصخب قد اجتذب نظر الصبيّة التي كانتها. إلا أن صاحب

أخويهــا هــذا لــم يحظ منها باهتمام خاص. كان أصحاب أخويها كلهم يعاملون بحفاوة وإكرام، ولم تتميز معاملتها له عن معاملتها لسواه.

وعــندما أفضــت الأزمة مع الحاج عبد اللطيف إلى قرار الرحيل، اقــترح أبــو ولــيد على ابنه هذا أن يخطب له سميرة قبل أن ترحل. واســتجاب ولــيد لرغبة أبيه، رأى في سميرة، كما قال لها، فتاة مؤدبة ومــتعلمة وذات جاذبــية، وشهد كيف تربت في عائلة محترمة، فرحب بالاقــتراح. ولما كان أبو سميرة مسكوناً بخوفه من انتقام الحاج فإنه لم يشأ أن يبتّ في الأمر، لكنه لم يجد ما يحمله على الرفض، بل كان ميالاً إلــى القبول. وعندما فوتحت هي في الأمر لم تعترض، ولكنها وضعت شرطاً أعلنت أنها لا تتنازل عنه: أن تدرس في الجامعة. وقبل الخاطب الشرط وقبلته أسرته، خصوصاً أباه الذي رأى أن انصراف الصبية إلى الدراســة سيوفر وقتاً ينسى الحاج فيه نزوته وعقابيلها ويتمكن ابنه من تمتيــن مكانــته في عمله الجديد. وبكتمانٍ حرص عليه الجميع، رسمت الأســرتان الترتيــبات اللازمة. وكانت تلك، كما وصفتها وهي تروي حكايــتها لخالد وترد على سؤاله، صفقة تقليدية لم تؤثر فيها العواطف. وفــي أول صيف لها في الإسكندرية، وكانت قد أتمت امتحانات سنتها الجامعــية الأولى، جاء أخواها، وجاء وليد وأسرته، واحتفلت الأسرتان بإعلان الخطوبة، تماماً كما رسم في الصفقة.

في ذلك الصيف، قضى وليد في الإسكندرية شهرين، ولما كان ذلك وقــت إجــازة فإنه لم يفارقها طيلة هذين الشهرين. وقد لمست هي أن تعلقــه بهــا يشتد بمضيّ الأيام ويتحول إلى اندفاعة. وأسعدها هذا دون شــك، إلا أنها لم تتحمس لمجاراته. وفي حينه، لم يستوقفها الفارق بين سخونة لهفته وبرودة استجابتها، ولم تنتبه إلى أي شيء غير طبيعي في

صدها له كلما حاول أن يداعب جسدها وإحجامها حتى عن تبادل القبل. وحين اشتكى من أن الصد يلهب شهواته ثم يبقى بغير ريّ فيتوجع، لم يتبدل سلوكها، فأمامه، كما قالت له، إما أن يكفّ عن محاولاته أو أن يحتمل ما يوجعه. أما حين طلب أن تقطع دراستها فيتزوجا ويعودا معاً إلى الكويت، فقد ذكّرته بشرطها، الجامعة أولاً، وأرغمته على الانصياع له.

وما كادت الدراسة تشدها ثانية إلى الجامعة، حتى فوجئت بوليد راجعاً إليها. رجع وليد دون إخطار مسبق، بعد شهرين فقط من رحيله. وفي تبريره لرجعته، قال لوالديها إنه جاء ليتخصص ويحصل على الدكتوراة. أما لها فقال إن شوقه إليها هو الذي أرجعه. وبعد أيام، حين أنبأها بأنه سينتسب إلى جامعة القاهرة وليس جامعة الإسكندرية، كاشفها بسبب جديد فعلمت أن خطيبها منتسب إلى التنظيم الذي كان آنذاك مفرطاً في سريته، وباح لها بما طلب أن يظل سراً بينهما، وهو أن قيادة التنظيم أوكلت إليه مسؤولية فرعه في مصر.

كيف تدبر وليد أمر تعيينه هذا، هل سعى إليه سعياً كي يصير قريباً منها كما قال لها، أو أنه جرى بتلقائية؟ في ذلك الوقت لم تنشغل هي بالسبب. وحين انشغلت به بعد تبدل رأيها في من صار زوجها، كان أوان الظفر بإجابة قد فات ولم يبق للإجابة لزوم.

ومنذ رجعته، توزع وقت وليد بين الإسكندرية والقاهرة. فصارت هي إما أسيرة اندفاعته وهو معها أو أسيرة الأنواء التي تتدافع عبر مكالماته الهاتفية المتلاحقة في الليل كما في النهار. وأنبتت اندفاعته الحاجة إلى حل، وقد عرض هو حلاً لم تملك هي أن ترفضه: الزواج فورا والإقامة معاً في القاهرة ما دام من المتيسّر إكمال دراستها

الجامعـــية فيها. ولكي لا يشق عليها الجمع بين الزواج والدراسة، تعهد وليد أن يعد لسكنهما شقة قريبة من الجامعة وأن يجيء بخادمة. وما أن ضمتهما الشقة حتى جهر وليد برغبته في أن يصير لهما ولد، بل أولاد، بأعجل ما يمكن. ولكي لا تشغلها العناية بالمولود عن الدراسة تعهد أن يجيء بمربية.

والواقع أن سخاء وليد في الإنفاق لفت نظرها منذ انصرفا إلى تأثيث الشـــقة وراح يحثها على اختيار ما تشتهي دون أن تتهيب الأسعار مهما غلـــت. وكلما سألته عن مصدر المال الذي يتوسع في إنفاقه، كان يردد الإجابـــة التي لا توضح شيئاً: لسنا فقراء فاطمئني! ولئن لم تطمئن كما شـــاء هـــو فمن الحق أن المسألة لم تشغلها طيلة الوقت، بل مضت في حـــياتها دون هواجس، الزوج، والجامعة، والعلاقات الاجتماعية التي لا بدّ منها، حياة إن كانت رتيبة فقد كانت ميسورة، ولم يكن في هذه الحياة ما يقلقها.

حتى بعد أن انقضى شهر وثان وثالث دون أن تظهر أعراض الحمل فقلق وليد، لم تجاره هي في قلقه. ولأنه كان متعجلاً فقد أصر على أن تراجع طبيباً، وهو الذي انتقى الطبيب وأخذها إليه. وقد عاينها الطبيب وعاينه هو وأجرى فحوصا واختبارات لكليهما، ثم جاء التشخيص: ليس لـــدى أي مـــنهما ســـبب بيويولوجي يمنع الحمل، والمانع على الأغلب نفسي. ومن هذا الطبيب إلى طبيب آخر، ثم إلى ثالث، والتشخيص ظل هـــو هـــو: المانع على الأغلب نفسي، والعلاج؟ لا علاج إلا أن يزول السبب النفسي الذي قد لا يكتشفه أحد.

فـــي ذلـــك الوقت، كانت كنيته هذه، أبو الملاحم، وهي الكنية التي اختارها هو إسما تنظيميا له، قد راحت تطغى على اسمه الحقيقي، وكان

انهماكه في العمل العام قد اشتد، مظاهرات، وندوات، واجتماعات، وما إلـى ذلـك. وكانـت حكاية الدراسة العليا قد نسيت. أما هي فظل لها انشـغالها بدراسـتها ولم يجتذبها العمل العام زيادة على ما اجتذبها قبل الـزواج: حضـور نشاطات الكلية إن كان لها صلة بالشأن الفلسطيني، والإدلاء بصوتها في انتخابات اتحاد الطلبة، وما إلى ذلك، لكن ليس ما هو أكثر.

فما الذي راح يباعد بينها وبين زوجها؟ أهو تمايز المشاغل؟ أم هو تبدل موقفه منذ أعياه الجري وراء الأطباء ولم يجيء أي ولد؟ لم يسؤها انهمـاك زوجها في النشاط العام، بل واءم حاجتها إلى تخصيص وقت أطـول للدراسة. ولم يشكل تمايز مشاغلهما تناقضاً يضع كلا منهما في موضع منفصل عن الآخر. أما الحمل فتأخره لم يسبب لها أي غم، هي التي جعلت الأولوية للجامعة. وقد توالت، على كل حال، التطورات التي أفضـت إلـى حـرب حزيران/ يونيو 1967، فيما هي منصرفة إلى التحضـير لامـتحانات سنتها الجامعية الثانية، فلم تنتبه إلى أي مغزى خـاص في استغراق زوجها كلية في النشاط العام. أما هو فيبدو أن قلّة اهتمامها بما يجري قد ساءته في نحو أو غيره.

وهـي لـم تنس كيف دخل عليها ذات مساء وهي بين كتبها وكيف هتف دون مقدمات أن ألقي هذه الكتب بعيداً إذ لا لزوم لأي امتحانات. لقـد خاطـبها يومهـا باللهجة التي يستخدمها في خطبه العامة، بل إنه اسـتخدم التعبـير ذاتـه الذي يكرره في كل خطبة: دنت ساعة تحرير فلسـطين. ولمـا لم تجاره في حماسه، نسب هدوءها إلى قلة معرفتها بالـتطورات وسألها بلهجة مستنكرة: ألا تسمعين الأخبار، ألا تشاهدين الـتلفزيون؟ ولم ينتظر إجابتها بل بادر إلى عرض الوقائع التي ألهبت

حماسه، الجيش المصري وآلياته الضخمة والتحشد في سيناء، جيش سورية المستنفر في الجولان، الأردن والمصالحة مع مصر والجيش الذي يحتشد في الضفة الغربية، العراق وجيشه، والنجدات العربية الأخرى التي على الطرق، وإسرائيل التي لن تصمد أمام الزحوف.

وفي مساء اليوم الذي أدّت فيه أول امتحاناتها، وفيما هي منصرفة إلى الاستعداد للذي يليه، دخل عليها أبو الملاحم، أشدّ حماساً وأكثر عجلة، ونحى كتبها بيديه وأطلق نبوءة: الحرب مصابحة مماسية ولن تستكمل الامتحانات لأن الجامعات ستغلق، وحين تفتح الجامعات من جديد لن يكون للامتحانات لزوم لأننا سنكون قد عدنا إلى فلسطين.

وقعت الحرب فأقفلت الجامعات كما تنبأ أبو الملاحم، إلا أن الجيوش التي تهيأت للزحف لم تزحف إلى أمام بل ارتدت إلى وراء، ردها جيش إسرائيل الذي احتل قطاع غزة وسيناء والضفة الغربية والجولان في أقل من ستة أيام. واللاجئون الفلسطينيون الذين منّوا بالعودة إلى مساقط رؤوسهم لم يعودوا، بل إن منهم من فقد ملجأه وراح يعيد الحكاية الفاجعة القديمة ويبحث عن ملجأ جديد.

كانت الكارثة كبيرة، وكان وقعها هائلاً على الجميع. وكما قالت سميرة لخالد وهي تصف كيف تحوّل موقفها، لم تبح النتائج المروعة لأحد أن يظل بمنأى عن الهم العام أو أن يهمل ما يستحقه. لم تعد السياسة تسكن منزل سميرة وحده، ولم تحضر في الجامعة وحدها، بل سكنت كل منزل وحضرت في كل مكان، وصارت خبز الناس جميعهم وملحهم في الليل كما في النهار. ووقع على سميرة ما وقع على غيرها دون أن يكون لأبي الملاحم دخل فيه. سنتان أخريان في القاهرة. للجامعة الوقت اللازم من أجل النجاح فقط، أما بقية الوقت فللنشاط العام

والمهام التي اقتضاها انضمامها إلى التنظيم. وما أن أتمت امتحانات سنتها الجامعية الأخيرة، حتى اتبعت ما هيأت نفسها له، فتفرغت لتخوض بكليتها في اللجّة.

شاءت الالتحاق بالعمل المسلح. غير أن أبا سمير تدخل، لا خبرة لها في مجال السلاح، وحاملو السلاح والراغبون في حمله فاض عددهم عن أي لزوم، وهي متعلمة ولديها هذه الإنجليزية التي تتقنها. وكان أن جاء بها أبو سمير إلى خالد، فماذا وجدت هي المشحونة بالرغبة في العطاء؟ وجدت مسؤولاً في العمل الفدائي ينزّ يأسه من كل شيء فيه، وما أشدّ ما خاب أملها بهذه البداية! أما رأيها الإيجابي فيه فراح يتشكل بعد مشادتهما، لم يتشكل دفعة واحدة، بل نبت بالتدريج، أو بالتدريج البطيء كما ألفت هي أن تقول لخالد. ولعل هذا هو ما أرسى علاقتهما على أسس لم تتزعزع.

وقبل انتقالها إلى هذه المدينة، كان أبو الملاحم يجيء إليها كلما انعقد اجتماع لقيادة التنظيم فيها فيقيم في فندق أو عند أصحابه. أما بعد انتقالها فقد اشترى أبو الملاحم منزلاً لتقيم هي فيه ويجيء هو إليه كلما زارها. وصار أصحاب زوجها يجيئون إلى المنزل كلما حل فيه، فتنعقد مجالس السمر والحوار والنميمة وتدور شتى الأحاديث. ومع تطور موقفها من خالد وانتظام حواراتهما، صار من المنطقي أن تقارن بين ما تسمعه في المكتب وما تسمعه في المنزل وترسم موقفها.

وفي مساء لم تنسه لأنه المساء الذي انتبهت فيه إلى حميمية شعورها تجاه خالد، انعقد مجلس الأصحاب، وسألها واحد منهم عن رأيها في رئيسها، فحاذرت أن تثير ما ليس لإثارته لزوم. فردت بأنها لم تستكمل تكوين رأيها فيه بعد. وهكذا، انفتحت سيرة المناوئ المزمن لما يروجه

هـــؤلاء الأصـــحاب، وتدفقـــت الأوصاف المهينة والشتائم، المتهاون، المتخاذل، المنبطح، المستسلم، وما إلى ذلك. ووجدت نفسها تسألهم وهي محـــتاجة لكظم غيظها: ألا تخشون أنكم تصفونه بما ليس فيه، أليس في هذا تحامل على إنسان له آراء تستحق أن تهتموا بها، فلماذا لا تناقشون الآراء بـــدل أن تشتموه؟ وبدل أن يجيب أحد على السؤال، حل الصمت علـــى الجميع. ولما لم تكن قد قالت ما يصدم فقد أدهشها صمتهم. ولئن خـــلا صـــوتها وهـــي تسأل من نبرة التحدي، فقد تحدتهم صراحة وهم صـــامتون: لمـــاذا تصـــمتون؟ وحيـــن انفلت الكلام من جديد، تكررت الأوصـــاف السلبية، ثم تسلم واحد منهم الحديث وأفاض. إنهم يصفونه بـــأقل مما فيه، قال المتحدث، وما الذي يوصف به فلسطيني يحمل مثل آرائـــه، هل ينبغي عليهم أن يحيّوه لأنه يدعوهم إلى التنازل عن أربعة أخماس فلسطين مقابل وعد باستعادة الخمس الخامس، وهل يشكرونه إذ يســـميهم مزايدين لأنهم لا يقبلون هذا التنازل، وما الذي يمكن أن يقال للذيـــن ضـــحوا بكـــل شـــيء في سبيل أن تتحرر فلسطين وتعود إلى أصـــحابها، مـــاذا يقال لأسر الشهداء، لأبنائهم وأحفادهم، للعرب الذين قاتلوا مع الفلسطينيين والذين أيدوهم.

في تلك الأمسية، تحدث الأصحاب جميعهم في السياق ذاته، إلا أبو الملاحـــم، فقد بقي صامتاً منذ تناول الحديث رئيس زوجته. ولأن روح الـــتحدي تلبستها فإنها لم تنتبه لما حل بزوجها وهي تسفه رأي أصحابه في خصمه، بل انفلت مخزونها فلم توقفه. انطلق الرصاص منذ سنوات، ومنذ سنوات أكثر انطلقت الشعارات الكبيرة، وتاجر بقضية فلسطين من تاجروا وحلت النكبة الأولى، ثم الثانية، دون أن يقدم أي متاجر بالقضية ما ينفع الفلسطينيين. وما الذي يحدث الآن؟ تساءلت، ثم أحاطت المجلس

بـــنظرة شاملة، وأكملت، تدخلون أنتم السوق فيما الإسرائيليون يغسلون أقدامهم بمياه قناة السويس ويستدفئون بشمس الغور ويتمتعون بالطراوة فـــي مـــرتفعات الجـــولان. تكدسون الفدائيين حيث لا ينبغي أن يكونوا فـــيخلق تكديســـهم مشاكل توجب تكديس المزيد منهم. وتوجهون أسلحة نحو أهداف لا لزوم للتوجه نحوها. وتطلقون الشعارات التي تملأ الأفواه ويجـــتذب ضـــجيجها أضواء الشهرة، وتهملون الأرض المحتلّة ذاتها. والمحصلة؟ قولوا أنتم ما هي المحصلة!

قالت ما قالته وهي منفعلة، فاحتاجت إلى استراحة. وهم أحدهم بأن يستغل سكوتها ويقول شيئاً، لكنها لجمته بإشارة حازمة الدلالة وأكملت، تستصـــغرون استعادة ما احتلته إسرائيل في العام 1967، تتمعنون في الخـــراط وتصرخون، خمس بلادنا فقط فكيف نقبل، لكأنكم أنتم، وليس إسرائيل، هم المسيطرون على الأخماس الأربعة، أو لكأن الخمس الذي تستصـــغرونه معروض عليكم على طبق من فضة أو ذهب ولا يترتب عليكم إلا أن تمدوا أيديكم لتحتازوا عليه. ما أتعس ما تقود إليه الأوهام! ألا تدركـــون أن تحريـــر كل شبر سيحتاج إلى قافلة من الشهداء وإلى سياسة غير هذه السياسة التي تبدد الجهود.

هـــذه أفكار داعية التفريط بالوطن وكلماته، كلماته بحذافيرها، بهذا صاح الذي لجمت سميرة رغبته في الكلام، فيما بدا الآخرون مبهوتين. وتنبهـــت هي إلى أنها تكلمت بالفعل كما يتكلم خالد ورددت أفكاره بما فيها أفكار اعترضت هي عليها وهي تحاوره. وفي هذه اللحظة، انتبهت إلى ما آل إليها شأنها معه.

كمـــا صمت وهي تتكلم، بقي أبو الملاحم صامتاً بعد أن فرغت من الكـــلام. أما تعقيبه على ما قالته فجاء بعد أن غادرهما الأصحاب، وقد

صاغه في جملة واحدة صبّها في أذنها صباً: هل شغلناك معه لتتثلمذي على يديه؟ قال تتثلمذي، ووشت لهجته بأنه يتهمها بما هو أكثر. ولم ترد هي. ولم يطلب هو رداً.

لم يملأ أبو الملاحم حياتها في أي وقت، لم يجتذبها عالمه ولا سلوكه ولا آراؤه، لـــم يوقد مشاعرها، لم يجعلها تحسّ الحاجة إلى التكيف معه أو تتمـــنى أن يتكـــيف معهـــا. أما مع خالد فاختلف الأمر، اختلف من النقيض إلى النقيض، العالم الذي تتخلق فيه الأسئلة، والمواقف المتميزة، وآراؤه الصـــادمة للســـائد وتشـــبثه بها، سلوكه، حرصه على إقناعها، واحـــترامه عقلها، وكل شيء. مع خالد، لم تظل كما كانت، اتقد داخلها وماجت فيه أشياء وأشياء، أفكارها، عواطفها، رغباتها، اهتماماتها، كل ما فيها اتقد وماج. ولم تغالط نفسها، ولماذا تغالط، إنها أحبت هذا الرجل ولـــيس لديها رغبة في مقاومة حبّه ولا قدرة على المقاومة. يأتي الحبّ دون إرادة ولا توقفه أي إرادة.

طافـــت هـــذه الخواطـــر في رأسها في ذلك المساء بعدما أغفى أبو الملاحـــم ولم يواتها النوم. واستحضرتها في حجرتها الصغيرة حيث لم يواتها النوم أيضاً. وتذكرت كيف حسمت في ذلك المساء بالذات أمرها: لـــن تنأى بنفسها عن عالم انفتحت آفاقه لها ولن تحجم عن الدخول في التجربة.

وفـــي الصباح التالي، جاءت إلى المكتب وهي عازمة على اختبار عواطـــف خـــالد تجاهها. كانت قد تلقت إشارات وشاءت أن تتيقن مما وراءهـــا. ســـألته: ألا تـــدرك معنى أن اشتبك مع أبي الملاحم بسببك؟ فحـــاول أن يزوغ، لكنها أوقفته: أنا لا أطيق أبا الملاحم، وأنت السبب. جملـــة واحـــدة حملتها كل ما شاءت قوله، فأدرك هو أن لا مناص من

دخول الدائرة: أنا أم أفكاري؟ حمّل هذا السؤال إقراراً بما أدركه ولكنها ظننت أنه يتمنع، هذا الذي لا يتكلم كثيراً عن عواطفه، يتفحص العواطف كما يتفحص السياسات ويسعى إلى اليقين، في الحبّ كما في السياسة بالرغم مما يقوله عن الاختلاف بينهما. ولم تشأ أن يستمر الغموض، فسألت السؤال الذي ينطوي على أتم إقرار من جانبها: هل تحبني كما أحبك؟ ورد هو على طريقته حين يُستدرج إلى البوح بعواطفه: لا تسألي سؤالاً جوابه معروف. ولكن العازمة على استدراجه إلى الإقرار الكامل لم تصمت: تحبني أم لا؟ فتلقت أكمل إقرار: أكون كاذباً إذا أنكرت أني أحبك كما لم أحبّ أحداً من قبل. ولئن اتبع بعد ذلك عادته فتبعت إقراره بالحب شروح وشكوك وتحفظات، فإن هذا لم تكن له أهمية، أحبها كما أحبته، هذا هو جوهر الأمر، ألا ينبغي أن تتعود هي الأخرى على الاهتمام بجواهر الأمور وحدها!

في ذلك الوقت، بلغ التوتر في المدينة أعلى ذراه، واشتد التمايز، واكتمل الاصطفاف على الجانبين، الفدائيون في جانب والسلطة في الجانب الآخر. وفيما صار الشارع المكتظ بالوجود الفدائي يتهدد نفوذ السلطة، كَمَنَ في قصور هذه السلطة من اجتهدوا كي لا تفلت الخيوط من أيديهم. وبينما اشتد صخب الخطب والمزايدات وغمر الشوارع، راح الذين في القصور يرصدون الوضع بتبصر ويشحذون الأسلحة.

لم تكن تلك مهارة صياد فقط، بل غفلة النعام أيضاً. والنعام لا تنقصه الشجاعة بل تنقصه رؤية الأخطار المحدقة. الإفراط في الحماس غفلة، ما أكثر ما ردد خالد هذا القول. وأن تحجب الأشجار عنك رؤية ما في الأدغال غفلة، وأي غفلة! وفي الأدغال تربّص الذين أعدتهم القصور للإنقضاض. أما الطيور فاستهوتها أعالي الأشجار ومن هناك

راحـــت تزقزق فتنتشي بزقزقتها. أبو الملاحم وآباء الملاحم كلهم كانوا عصافير، كانوا غربانا، لم يكونوا نسوراً مع أن للواحد منهم حجم نسر وأكـــبر. النســـر قد يحلق في الأعالي لكن عينيه تظلان مشدودتين إلى الأرض وتتمعنان في ما يجري عليها. أما العصافير فتنتطط وتفرط في الحـــركة لكنها لا تقوى على فعل شيء. والغربان تنفخ أوداجها بالنعيق فيدل نعيقها عليها.

حشـــدت القصـــور قواتهـــا، شرطتها ومخابراتها وجيشها، وطوقت العاصمة وتهيأت في كل مكان للهجوم. أعلنت السلطة أن الكلمة صارت للســـلاح، أعلنـــت هذا بأفصح العبارات. وتسمم الجوّ بشميم الدمّ. وفي اليوم الذي انشدّ فيه كل ذي صلة إلى سلاحه، جاءت سميرة إلى المكتب فـــي المســـاء على غير عادة فوجدت خالد فيه كما توقعت. لم تطق أن تبقى في المنزل وحدها. وأبو الملاحم؟ تساءل خالد. شم رائحة الخطر، أجابت. كذلك تفعل النوارس، عقّب خالد. أتهرب؟ استفهمت هي. تصاب بالذعر وتضطرب حركتها، أوضح هو.

هـــو إذاً أقل من نورس، جاء إلى المنزل قبل انقضاء النهار، وأبلغ إلـــيها علـــى عجـــل أن القيادة كلفته مهمة في الخارج وتعجل مغادرة المدينة. أما كيف استخلصت أن مغادرته كانت هرباً فلأن القيادة اتصلت والرئـــيس سأل عنه. وحين عرف الرئيس أن أبا الملاحم غادر المدينة فـــيما هـــم بحاجة إليه كادت صرخة استهجانه تسقط السماعة من يدها. والواقع أن أبا الملاحم قد سقط، في تلك اللحظة، من حياتها. روت لخالد ما جرى، ثم نهضت عن الكرسيّ ودارت حتى صارت خلفه واحتضنت وجهـــه بكفيها، وتساءلت ألا يشعر هو بالخطر، ألا يخاف؟ هم في قلب الخطـــر، أجـــاب، فهل يعقل ألا يشعر به؟ ومن الذي لا يخاف؟ رؤية

الخطـــر أو الـــتغافل عنه، مواجهته أو الهرب منه، هذا هو ما يتميز به الإنســـان غـــير الجبان. الخوف ليس هو الجبن، الجبان قد يهرب حتى حيـــن لا يوجد ما يخيف. أما غير الجبان فخوفه مما يخيف يحفزه على الاستبسال في مواجهته.

أصغت إلى شروحه فلما فاضت عن اللزوم أوقفت فيض كلامه بيد وراحـــت تمسّد رأسه بيدها الأخرى. جاءت لتكون معه في قلب الخطر وستظل معه، هي خائفة إلا أن قربه منها يوفر لها الإحساس بالأمان.

كـــان خالد ينتظر زيارة طارئة، والزائر المنتظر هو أبو سمير. ولم يجد القائد الذي يعزهما كليهما بأساً في أن تشترك هي في اللقاء، فهي، فـــي خـــتام أي حساب كما في أوله، معاونة خالد في العمل. وكان أبو ســـمير قادماً إليهما من الاجتماع الذي عقدته القيادة لتتدارس الأوضاع. وأوجـــز الرجل لهما ما جرى، رفاق فقدوا العقول والعيون ولم يبق لهم إلا الألسنة، وآخرون لديهم عقول كما أن لديهم عيوناً لكنهم فقدوا القدرة علـــى الفهـــم الصـــحيح، تبســـط أمامهم الوقائع التي لا يمكن إنكارها فـــيعجزون عـــن فهم دلالاتها، فإذا بسطت الدلالات أيضاً ونجحت في حملهم على فهمها فإنهم يحثون على التصرف بعكس ما توحي به. وبنيّة التخفـــيف عـــن القائد المحتقن بضيقه من العجز عن الفهم، أدلى خالد بملاحظـــة، إذا توتـــر أبو سمير نفسه فمن المتعذر أن يقع المرء على إنسان هادئ واحد في المدينة كلها. ولما لم تنتبه سميرة إلى مناورة خالد هذه، فقد انطقها ضيقها هي الأخرى بملاحظة صبت في سياق مختلف: أبـــو سمير يشكو، وخالد يشكو، والرئيس كان على الهاتف يشكو، فلمن توجّـــه الشـــكوى، هـــل توجـــه إلى الجمهور الذي لا يحيطه أحد علماً بالنواقص، أو إلى من؟

بعــد الملاحظتيــن، اعــتذر أبو سمير عن انسياقه إلى التذمر هو المطالــب باستنهاض الهمم وتعبئة الصفوف. واسترخى في مقعده كأنما ليعلــن أن توتره انحلّ، ورشف رشفة كبيرة من فنجان القهوة الذي قدم إلــيه في تلك اللحظة، ثم راح يشرح الموقف هو الذي جاء من أجل أن يشــرحه، محاولات رأب الصدع فشلت جميعها، والسلطة أصدرت إلى جيشها أوامر الهجوم، وهم في القيادة يتوقعون أن يباشر الجيش هجومه في الصباح.

وصلت الأمور، إذاً، إلى ما خشي خالد أن تصل إليه ولا مجال لكبح العجــلات. وأحست سميرة بما يؤلم خالد وأشفقت عليه. وقال أبو سمير لخالد إنه يعرف مآخذه كلها وهو لم يجيء ليستمع إليها مرة أخرى، بل ليسأل الذي طالما اشتكى قصور غيره أين سيكون هو حين يبدأ الهجوم علــى الفدائيــن. واتضح أن أبا سمير جاء ومعه قرار اقترح هو على القــيادة اتخــاذه، قــرار تعيين خالد قائداً للدفاع عن منطقة من مناطق المدينة وعلى خالد أن يتولى مسؤوليته الجديدة دون أي إبطاء.

ما زالت سميرة تتذكر هيأة المفاجأ بالمهمة؛ أن يتولى قيادة المقاتلين في وضع طالما انتقده، أم أن ينكص عن تولي مسؤولية دفاعية في وقت الشدّة. لقد رأته يتوجع، فكل واحد من الخيارين موجع.

وما أن انصرف أبو سمير حتى نشأ بينها وبين خالد جدل لم يتمكن أي مــنهما مــن حسمه. طلبت أن تظل معه، لكنه كان ذاهباً إلى حيث سينشــب قــتال يتوقع أن يكون شديداً، وهي لم تتدرب، فكيف يعرضها للخطــر. فتذكرت دورة التدريب التي اتبعتها في الجامعة، وإذا فرض عليها أن تخوض التجربة فستتدبر أمرها مثل غيرها، ألم يقل هو نفسه إن كثيريــن مــن حملــة السلاح غير مدربين! إلا أن دورة جرت قبل

سنوات لم تتعلم فيها سوى فك البندقّية وتركيبها ولم تطلق سوى خمس رصاصات لا تؤهلها للقتال، وإذا وجد مسلحون غير مدربين فما الذي يجيز له أن يزيد عددهم.

تحدث خالد بمنطق القائد المسؤول، وأضمر خوفه عليها من خطر يعرف هو أهواله ولا تعرفها هي، وعنى منطقه ألا تتحقق رغبتها في البقاء معه، أن تنفصل عنه في ظرف تستهين فيه بأي خطر في سبيل أن تظل بقربه. وحين اقترح أن يرسلها إلى مقرّ القيادة حيث تتوفر أعمال كثيرة غير القتال، رفضت اقتراحه، فالذهاب إلى هناك، مثل الذهاب إلى المنزل، سيبعدها عنه، وفي المقر سيعاملونها بوصفها زوجة أبي الملاحم وهذا لن يطيب لها. وصار كلما عرض اقتراحاً يبعدها عنه جاءت بذريعة لترفضه، ولم يتوصلا لشيء. ولما كان عازماً على تفقد المنطقة التي أوكلت إليه، فقد قبل أن ترافقه في جولته فيها شريطة أن تذهب بعد الجولة إلى حيث ينبغي أن تكون.

وفي حجرتها الصغيرة، استمر شريط الذكريات. فقد جالت معه على المواقع، وتابعت الحوارات التي دارت فيها، وشهدت خالدها وهو بين المقاتلين، يُسمعهم ويستمع إليهم، ويعدّهم لما هم مقبلون عليه، ويشحذ الهمم.

ليلتها، فوجئ كثيرون بعودته إلى العمل المسلح واستحضروا الآراء التي أقصي عنه بسببها. وفي أول موقع حلاّ فيه، جوبه خالد بمن جادلوه، تسميها معركة دفاع عن النفس وتحثّ على الاستبسال فيها، فلماذا تغفل الحاجة إلى إسقاط السلطة، هل نحن ضعفاء، مسلحون بعشرات الألوف، فدائيون وميليشيا، وأسلحة وفيرة ومخازن ذخائر، والجمهور المؤيد، فلماذا لا نسقط السلطة؟ وكان هذا سؤالاً مربكاً لمن

لا يريد أن يحبط المعنويات في ظرف لا يُبثّ فيه إلا ما يقويها. وطاب لسميرة أن تشهد كيف يشدّ خالد عزائم المقاتلين دون أن يضللهم. استمعت إليه وراقبت ردود الفعل، استمعت بانتباه وراقبت بإمعان. وفي غضون ذلك، تكلمت كلما وجدت أن من الضروري اجتذاب خالد لقول شيء فاته أن يقوله. تحدث هو عما آل إليه الوضع، عن الفدائيين وقدراتهم، عن الميليشيا ودورها، بيّن المزايا واستبعد الأوهام. وتحدث عن الجمهور، تأييده للعمل الفدائي ومآخذه عليه أيضاً، عن تعدد التنظيمات ووجود قيادات متعددة مقابل السلطة الموحدة التي يقودها مركز واحد. وخلص إلى الرد على السؤال، يملك الجانب الفدائي ما يؤهله للدفاع عن نفسه ومنع السلطة عن الفتك به. أما ما هو لازم لإسقاط السلطة فغير متوفر، وإسقاطها لا لزوم له، لا لزوم لإقحام العمل الفدائي في ما لم يوجد من أجله، ما له لزوم هو تثبيت حق الفلسطينيين في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي لوطنه وإرغام السلطة على احترام هذا الحق.

وفي طريقهما إلى الموقع التالي، حيث سيتناول الحوار الموضوع ذاته، قالت سميرة إنه كان مقنعاً، وقال هو إنه خاف، ليس من السهل مواجهة السائد وقول ما لا يقال، غير أن خوفه ذاته شجعه على البوح بما يؤمن به، وقد راهن على شيء خبره منذ كان قائد قاعدة: المندفع بإراداته إلى التضحية لا يمكن أن ينغلق عقله حين توضع أمامه الحقائق، وكلما تسلح الفدائي بالحقائق استبسل أكثر.

لماذا حُجبت حقائق الوضع عن المقاتلين؟ تساءلت بعد أن أتما الجولة، فبدا أنه كان يفكر في السؤال ذاته، إذ ما أعجل ما أجاب: لمئة سبب كلها غلط، ثم فاضت شروحه.

كانا وحدهما، في شارع مظلم، فلم تتبين ما طاف على صفحة وجهه وهو يتحدث. لكن جرس الصوت نزّ أسى ومرارة. ووجدت نفسها تستوقفه، ما دام يائساً فلماذا يقاتل؟ فتدفقت شروحه من جديد، اليائسون يقاتلون أيضاً، يقاتل اليائس لكي لا يسقطه يأسه، وهو يفعل ما يفعلون، لا يمكن أن يهرب من معركة مفروضة على فريقه، وإذا فرد الحقائق أمام الرفاق، بما فيها الحقائق الموجعة، فلكي يحثهم على الاعتماد على القوى المتوفرة وليس الأوهام. وأين تريده أن يكون هي التي تسأله هذا السؤال؟ أفي غير الصف الذي يقف فريقه فيه؟ قصيرو النظر، قصيرو النفس تبعدهم الكبوات عن الميدان وتفتت الأخطاء عزائمهم وإذا لم تتطابق الأوضاع مع تصوراتهم فإنهم يبتعدون، وهو ليس من هؤلاء، ومكانه هو خندق فريقه، وإذا حنق على المخطئين فإن حنقه على الهاربين أشدّ.

أطال الشرح فطال صمتها، لم تصغ فقط، بل تحسست أوجاع روحه أيضاً. ونبهه صمتها فاعتذر وكف عن الشرح، وقال: كنت فاتنة. ودون اتفاق، رجعا إلى المكتب معاً.

اختلط العام والشخصيّ في مشاعرها، وكانت منتشية، هذا هو رجلها وهما معاً في ساحة واحدة. وعندما بلغا حجرة مكتبه حيث يبيت، دخلتها هي بإحساس العروس الراجعة إلى حجرة نومها بعد جولة طويلة في ليلة من ليالي شهر العسل. وفي تلك الليلة، نامت بعمق وهي قريبة منه. أما في الحجرة التي توارت فيها وهو بعيد عنها، فإن قلقها عليه أبقاها مسهّدة، وما أصعب أن تنام وهي قلقة!

3

اخترقت صرخة حادة إغفاءته، يا لليل الزنازين! يعذبون سجيناً في عزّ الليل فهو إذاً سجين سياسي.

نظـــر إلـــي معصمه فتذكر أن ساعته أخذت منه. وسمع وقع خطى مقــبلة وسعال أبي محمود، فقدر أنها لم تبلغ بعد الثانية ما دام الرجل لم ينصرف.

- ألم تستفهم؟

- بلى! أخذت وأعطيت في الكلام إلى أن عرفت، منع المحقق تقديم الطعام إليك.

أعطـــاه المحقـــق فرصـــة، وجه إليه إنذاراً وسماه فرصة، وباشر المقدمـــات، هم متماثلون، الإنذار بالتعذيب، وصراخ المعذّب الذي ذكّره بما ينتظره إن لم يرضخ، والتجويع.

- متى تبدأ ورديتك غداً؟

- مثل كل يوم، مع الغياب، في السادسة، وسأحضر لك شيئاً تأكله، من كل بدّ.

- في السادسة أكون عند المحقق، هو يبدأ في السادسة.

- أنتظر رجوعك، لا يجوز أن تظل بغير أكل.

- إحضاره يعرضك للخطر، من الأفضل ألا يشتبهوا بك.

- الحامـــي هو ربّ العالمين، المهم أن تأكل أنت، وأنا أتوكل على الله.

أبو محمود وطمأنينته. أما خالد فما كان له أن يطمئن، القلق غذاؤه، والهواجس هي الشراب، فمن أين يأتي الاطمئنان. حتى تجاه أبي محمود المتطوع لإعانته لم يبرأ شعوره من القلق والهواجس، أولاه ثقته فهل يستحقها هذا الحارس فعلاً؟

- تعطف عليّ وتخاطر، فهل يمكن أن أعرف السبب؟

- الناس للناس يا ابن الناس، وسأقول لك.

وقد قال. رجل مقبل على الستين، أمضى عمره في خدمة الحكومة، مرتبته صغيرة، بدأت صغيرة وظلت صغيرة، لكن راتبها يستره من العوز. وإذا كان هو حارس سجن فأخوه فدائي مثل خالد، ولخالد أن يسأل عنه الفدائيين أصحابه، فقد غادر البلاد معهم يوم غادروا. هو ليس فلسطينياً، لكن سامح الله الذين يميزون، إذ ما الفرق. وإذا لم يصر هو الآخر فدائياً فلأنه ليس شاباً مثل أخيه، ولأن عمل الحكومة أضمن، ألم يتشرد أخوه ويبقى هو. والوضع صعب، يقول الرؤساء له إن الفدائي عدو، يقولون: الفدائي يكره ابن البلد. وهو لا يصدق ما يقولون، وكيف يصدقه وأخوه نفسه فدائي. أما الرد على ما يقولون فهو لا يرد، لا تواتيه الجرأة، لو رد فسيشكّون فيه ويخسر عمله وربما...، ما يفعلونه بمن لا يعجبهم معروف، إنه يعمل في السجن وهو يعرف.

لم ير خالد من أبي محمود سوى وجهه الذي يطل من الطاقة. وكان هذا وجهاً أسمر خددته تجاعيد كثيرة وشابته الصفرة التي تكسو بشرة من يعملون في الأماكن المغلقة ويمضون ليلهم فيها. وكانت تعابير الوجه تؤكد ما يقوله صاحبه. وكان قد بقي لدى أبي محمود ما يقوله فقاله همساً. فزوجة أخيه التي بقيت في المدينة بعد رحيل الأخ اشتغلت هي الأخرى مع الفدائيين واسمها زكية ولعل خالد سمع بها. وعندما

ذكـــر لها اسم المسجون عندهم عرفت من هو وقالت إنه مهم والجرائد والإذاعات حكت على اعتقاله.

مـــا كان أبسط هذا الإنسان!، إذاً، فقد شاع نبأ اعتقاله، وإذا وصلت الرســـالة فستعرف سميرة أين هو. أليس من المدهش أنه لم يناقش معها أبداً ما الذي ينبغي عمله إن اعتقل.

- هل قلت شيئاً أزعجك؟

- منك لا يجيء إلا الخير. كنت أفكر في الرسالة.

وملأت سميرة ذهنه من جديد.

لـــيلة رافقته في جولته على المواقع شحذ وجودها إلى جانبه همته. وما أكثر ما عني بأن تراه سميرة في ميدانه وترى أنه ليس اليائس الذي يقعـــده يأســـه فيستكين! هل احتاج في تلك الليلة الفاصلة أن يثبت هذا لنفسه أيضاً؟ سؤال لم يحبّ قط أن يتوقف عنده، تراوده أسئلة كثيرة لا يحـــبها، ومـــن الذي يحب الأسئلة التي تحرجه حتى لو كان هو السائل والمسؤول معاً. وهناك سؤال طالما برق في ذهنه وطالما تعجل تنحيته، وهـــو سعيد لأن سميرة، كثيرة الأسئلة، لم تفطن إليه: هل يبالغ في رد فعله ضد مزايدات المزايدين، هل يتطرف في موقفه ضد التطرف؟ وكم كان سيتحرج لو أنها وجهت إليه هذا السؤال!

لقـــد كانت على كل حال فاتنة حقاً. وهو لم ينس كيف رجعت معه بتلقائـــية، وكيف نامت في حجرته دون استئذان، وكيف لم تتحرج حين أيقظها مع الفجر هي التي نامت على الصوفا المخصصة له. وهل تمنح الحـــياة مـــا هـــو أحلى من حلاوة امرأةّ تبتسم حين يوقظها حبيبها في الصباح الباكر!

سـنبدأ الجهاد؟ سألت وهي تتمطّى استعداداً للنهوض. سيبدأ الجهاد الأصغر بعد قليل، قال، أما في هذه اللحظة، في هذا المكان المضطرب، فعلينا أن نجد وسيلة لإعداد القهوة، وهذا هو الجهاد الأكبر، أضاف. وما أسـرع ما قامت، ثم ما أسرع ما رجعت من المطبخ ومعها فنجانا قهوة طافحان! وصار عليهما أن يشربا قهوتهما بسرعة. ووقفت أمامه مدركة أنـه وقـت المغادرة، ففطن إلى أنه لم يبتّ بشأن المكان الذي سيرسلها إلـيه، وكانـت نظرتها تبث أملها في أن تبقى معه، تبثه بقوة وصراحة تامة. إلى أين سترسلني؟ سألت. رضوان ينتظر الوافدين إلى الجنّة فهل تتعجلين الذهاب إليه، أجاب باللهجة التي أظهرت لها أنه لن يرسلها إلى حيـث يمكـن أن تموت. أحبّ رضواناً آخر يقف على باب جنّة أخرى ويجتهد كي يبعدني عنه، قالت. رضوانك هذا إن صدق وصفك له فهو تيس ابن تيس دون شك!

خـتم الجدل الملغز بمزحة، وختم تفكيره بقرار. وكتب كلمات قليلة علـى ورقـة واستدعى حارساً وسلمه الورقة. وقال بلهجة آمرة ليقطع علـى سميرة فرصة الاعتراض: ستصحب الرفيقة إلى المستشفى، أنت تعرفه.

أقبلت الخطوات وميّز السعال، ثم انفتحت الطاقة وأطل الوجه المخدد المثقل بالسهاد.

– ذهبـت إلـى المطبخ، هم نائمون، فجئتك بهذا قبل أن أنصرف. لماذا تبقى بلا أكل.

وعبر الطاقة رغيف خبز وثلاث بيضات مسلوقة ومثل هذا العدد من حـبّات البـندورة. أن تجـد في السجن حارساً شهماً يجازف حتى لا تجوع... لقد حصل على ثروة.

- لا أدري ما الذي كان سيحل بي لولاك.

أخجل التقريظُ الرجلَ الشهم، فدارى أبو محمود خجله بعرض خدمة جديدة.

- إن كنت بحاجة...، أنت فاهم، فقبل أن تنتهي ورديتي.

التقط خالد العرض المخالف للتعليمات وأغوته الفرصة. وفتح أبو محمود الزنزانة وسار أمام خالد الذي كان يرى قامة الحارس الطيب لأول مرة. وفي حجرة المراحيض، حيث ما من أحد يعد الدقائق هذه المرة، قضى خالد حاجته دون أن يستعجله حارس أو يكون سجين آخر في الانتظار، وغسل رأسه ووجهه وأطرافه.

وحين رجع إلى زنزانته، قطع الرغيف ثلاث قطع وحشى كل قطعة ببيضة وحبّه بندورة، وخبأ قطعتين تحت طرف البرش، وشرع في أكل الثالثة. شهامة الحارس، والاغتسال بالماء البارد، وهذه الوجبة وقد تيسرت بعد جوع، فما الذي ينقص كي ينتعش ويحسّ الطراجة!

في ظروف غير هذا الظرف، في سجون أخرى، ألف خالد أن يشتري خدمات الحراس بالمال. إلا أنه لم يكن، آنذاك، السجين الخطير الذي يتشدد أمار السجن في التضييق عليه، لم يكن قد قاتل بالسلاح جيش السلطة التي تحبسه. أما هنا فأبو محمود يجازف متطوعاً ويفرط في المجازفة مع أنهم لو رأوا في عينيه مجرد نظرة عطف على السجين الخطير لربما فتكوا به.

وبينما راح يأكل بأناة ويفكر بشهامة أبي محمود، حضرت صور الحفاوة التي استقبل الفدائيون بها أول ما حلّوا في منطقة الحدود. آنذاك، اختار هو موقع قاعدته بنفسه وأشرف على إعدادها. وما أن حل هو وفدائيوه فيها حتى توافد فلاحو القرية القريبة للسلام عليهم. وجلب

الوافـــدون هداياهم، خبزاً، وجبناً، وعسلاً، وخضاراً، وفاكهة، وانهالت الدعوات إلى الولائم.

كانـــت القواعد في البداية قليلة، وكان فدائيوها يتسللون إلى الطرف الآخـــر مـــن الحدود في عتمات الليالي ويضربون ما تطاله أيديهم من مواقع الإسرائيليين أو يشتبكون معهم، فيستشهد من يستشهد ويرجع من تقـــدر له الـــنجاة. وكان الفلاحون يحسون بما يجري ويشهدون بعضه بأمهـــات العـــيون فيشـــتد إعجـــابهم بالفدائيين. وكانت إسرائيل تلاحق الفدائييـــن فـــي قواعدهم ذاتها أو على دروب الذهاب والإياب، قصف مدفعـــي وصواريخ وغارات بريّة وأخرى جوية، وكانت الملاحقة توقع ضـــحايا، فيشـــتد عطف الفلاحين على الذين يضحوّن في سبيل تحرير وطنهم، ويتعمق.

غير أن الحال لم يظل كما بدأ. فتنافس التنظيمات المتعددة نمّى عدد القواعـــد حتى زاد عن أي لزوم. وكدّس التنافس في القواعد أشتاتاً من الـــناس لم يجر أي تدقيق في اختيار كثيرين منهم، وجعل مواقع القواعد المكـــتظة أكثر قرباً من القرى. وتأذى الفلاحون، احمرّت عليهم عيون السلطة التي تشددت في مراقبتها لصلتهم بجيرانهم في القواعد. وكثفت إسرائيل هجماتها وجعلت القرى بين أهدافها. وكان للسلطة هدف سافر: منع الفلاحين من الالتفاف حول دولة الفدائيين التي راحت تتشكل داخل الدولـــة. وكـــان لإســـرائيل الهدف ذاته وقد انضاف إليه حرصها على حرمان الفدائيين من الالتجاء إلى القرى حين تشتد هجماتها هي عليهم.

ومع هذه التطورات وما أحدثته من تحول في النفوس المتأذية، اشتد انتـــباه الفلاحيـــن لأخطاء الفدائيين، ومن يتنبّه للأخطاء أكثر مما يتنبّه المـــتأذون! أخطـــاء نجمت من طبيعة الوضع، أخطاء نجمت من نقص

الخبرة، وأخرى سببها وهن في الأخلاق. ولأن المخطئين لم يُردعوا أو لأن الــردع بقي واهناً وغير مثابر، فإن إحساس الفلاحين بالتأذي راح يشتد. وما عاد من الممكن أن تظل المشاعر القديمة على حالها.

وفـــي زنزانته، تذكر خالد آخر لقاءاته مع مختار القرية القريبة من قاعدته، القرية التي طالما أكرمت فدائييه قبل أن يحيق بها الأذى ويشتد. كـــان بعض فلاحي هذه القرية قد نزح عنها وبعض آخر يتهيأ للنزوح. وجـــاء المخـــتار متذمراً وشاكياً: هل يرضيكم ما يحل بنا؟ وذكّر خالد زائـــره وهـــو يحـــاول تهدئته بأن الفدائيين عرضوا المساعدة. فاهتاج المخـــتار بدل أن يهدأ، أي مساعدة، ما الذي يساعد الفلاح إذا كفّ عن اســـتثمار أرضـــه وخسر مواشيه وصارت حياته ذاتها مهددة، ما الذي يحمـــيه مـــن انـــتقام سلطة تتواتر الأزمات بينها وبين الفدائيين، أو من هجمـــات إسرائيل التي تحرق الزرع والضرع ولا تستثني البشر. هي حـــرب يا أبا إبراهيم، الاحتلال والمقاومة، قالها لمختار القرية، فما زاد علـــى أن أثـــار مواجع الرجل الموجوع. ليتها كانت حرباً هذه التي لا تـــدور إلا حولهم، ردّ المختار، جيوش العرب كلها قاعدة ومعها جيش هـــذا الـــبلد، والفدائـــيون هم وحدهم الذين يريدون أن يقيموا الدين في مالطـــة، وأي ديـــن؟، الشـــياطين أكثر من الملائكة، والأقوال أكثر من الأفعـــال، والغلـــط يأكل الصح، والأذى الذي يلحق بالأصدقاء أشد من الأذى الـــذي يصـــيب العـــدو. وباح المختار بما يتهامس به الفلاحون، ســـيرحل الفدائـــيون إن لم يكن اليوم فبكرة، بضغط السلطة أو بضغط إســـرائيل أو بهما معاً، ولن يجني الفلاحون بسبب تأييدهم لهم إلا الأذى الذي حل بهم والأذى الذي سيحل بعد رحيلهم.

كـــان خالد يعلم أن ما يقوله أبو إبراهيم صحيح. وكان هو قد كتب إلى القيادة وتحدث مع المعنيين بالأمر، ليس مرة واحدة بل مرات. لماذا تحتشـــد هـــذه الأعـــداد مـــن الفدائيين كلها على الحدود؟ لماذا القواعد المكشـــوفة؟ هـــل هم حراس حدود؟ ما هي إذاً وظيفة جيش البلد؟ لماذا يحل الفدائيون محلّه؟ وإذا عجز الجيش فلماذا يتنطحون هم للمهمة؟ وإذا كـــان الأمـــر أمـــر الحاجـــة للتسلل إلى الأرض المحتلة، فلماذا يحتاج الموكلون به إلى هذا الوجود العلني وهذه الأعداد الكبيرة، ألا يمكن أن يـــؤدي المهمـــة نفـــر من رجال منتقين ومدربين يبقون حيث لا تشتهر أماكـــن وجودهـــم ويتسللون عند الحاجة؟ كتب، وتحدث، وانتقد، وكرر الانتقاد. وكتب كثيرون غيره وتحدثوا وانتقدوا. وبقيت القيادة سادرة في ما غرقت فيه، استهوتها العلنية وأضواؤها والشهرة وغواياتها. وبدل أن تلجم الإندفاعة منذ تكشفت مضارّها، صارت تقول: هل من مزيد!

انتـــبه خـــالد إلى أنه فرغ من الأكل وما زالت أسنانه تصرف، إنه، إذاً، الغـــيظ الـــذي أثارته الذكرى المغيظة. ووجد نفسه مدفوعاً إلى أن يفعـــل شيئاً، أي شيء، كي يهدأ. ولم يجد ما يفعله في زنزانته سوى أن يلـــم قشر البيضة المنتثر على البرش ويخفيه تحته. وبهذا، أيضاً، حتى بهـــذا، حضـــرت سميرة. وقد تذكر كيف كانت تستاء كلما نفض رماد ســـيجارته خـــارج المنفضة، وكيف تحرر هو من عادات غير ملائمة كثيرة لكي يرضيها، لكنها أعلنت بصريح العبارة أنها لن ترضى إلا إذا تحـــرر من هذه العادة أيضاً. تذكر الرماد، وما أشد ما تاق إلى تدخين ســـيجارة. وخطر له أن يلجأ إلى أبي محمود لكنه قدر خطورة الأمر، فالدخان في الزنزانة المقفلة ليس قشر بيضة ليخفيه تحت البرش.

وكعادتـــه منذ حلّ في الزنزانة، لم يغف خالد إلا مع اقتراب الفجر. وفـــي الصباح، أفاق على جلبة الممر، كانوا يوزعون الطعام فتخطوه. وقدر أنها السادسة فأمامه إذاً نهار بطوله، سيرى قفا حارسه حين يقوده بعـــد ساعة نحو المرحاض وحين يعيده، وبعدها لن يكون لديه ما يفعله بقية النهار كله.

قـــرأ مـــنذ يومـــه الأول كل ما كتبه أسلافه على جدران الزنزانة. وتمعـــن فـــي كل ما هو مرسوم أو محفور. وكرر القراءة والتمعن كل يـــوم، مرة أو مرات. وحاول في كل مرة أن يستخلص جديداً ينشغل به حـــتى لـــم يبق ما يُستخلص. وكان يعرف أساليب أخرى لتخفيف الوقع الثقـــيل للوقت. فبمقدور السجين أن يشاكس، يخبط باب الزنزانة بيديه، وربما بقدميه أيضاً، أو حتى برأسه، يصرخ، يشتم، يحدث جلبة، والجلبة تســـتدعي تدخل الحراس، وربما التحقيق، فتخفّ وطأة الفراغ. يستطيع أن يـــنادي على الحراس ويدعي المرض ويطلب عرضه على طبيب، يستطيع أن يطلب أي شيء من هذا القبيل أو من أي قبيل. إنهم لن يلبوا الطلب، غير أنهم سينشغلون به فينشغل هو بتصور ردود فعلهم. لكنه لم يـــرد أن يظنوا أن صبره نفد. خشي أن يعطي هذا الانطباع، إذ ما أن يتصور المحقق أن سجينه على وشك الانهيار حتى يمعن في تعذيبه ليتم انهياره. بين السجين والمحقق صراع، ولكل منهما الهدف ذاته: أن يهزم الآخر، المحقق بضغوطه والسجين بصبره. وإذا جاز لخالد أن يتصور أنـــه ليس مسؤولاً عن الهزيمة العسكرية التي حلّت بفريقه، أو أنه ليس المسؤول الوحيد، فالهزيمة أمام المحقق لا يحمل مسؤوليتها أحد سواه.

وفـــي عزلـــته، حيـــث أريد له أن يضعف، شحذ خالد قدرته على الاحـــتمال وعزمه الثبات، وهيأ وسائله. شطارة المحقق تبطلها الخبرة،

وقـــد توفـــر له الوقت كي يستحضر خبراته ويتفحص عبرها. التعذيب الجسدي يوجع في بدايته ثم يغيب الإحساس بوجعه خصوصاً إذا اشتد. وأســـرع السجناء إلى الانهيار هم الذين يرعبهم تصور التعذيب، وغالباً مـــا يـــنهار المرعوب حتى قبل أن يشرعوا في تعذيبه أو بعد الضربة الأولـــى. والمحقق الفطن هو الذي يزعزع معنويات سجينه ويثير رعبه قبل أن تمتدّ إليه أي يد. والثبات ليس أمراً خارقاً، الصبر واحتمال وجبة التعذيب الأولى والحذر إزاء المناورات التي تستهدف المعنويات.

وفـــي استحضاره لخبراته، حضرت قصة سجنه في بيروت. ذهب إلـــى العاصمة ذات السمعة الجذابة بعد تخرجه من الجامعة، دفعه إليها الفضول والرغبة في تغيير الجوّ، ووفر له زميل لبناني تخرج معه إذن الدخـــول، فدخـــل البلاد، إذاً، في صورة ليس فيها ما يخالف أي قانون وبدوافـــع ليس بينها ما يثير الريبة. بالرغم من هذا، اعتقلوه قبل أن يتمّ فـــي الفـــندق ليلته الأولى، جاء رجلان من المكتب الثاني والنزلاء نيام واقـــتاداه إلى حيث لم يعرف، ودار تحقيق استمر حتى الصباح. اتهموه بأنـــه جاء ليجري اتصالات سياسية وشاءوا أن يعرفوا طبيعتها. وأنكر، فلم يصدقوه. وكلما تشدد في الإنكار زاد شكهم فيه وتشددوا في الاتهام. وعذبوه فاحتمل التعذيب ولم تتبدل أقواله، ولماذا يكذب ما دام قد احتمل الضـــربة الأولـــى. وشددوا التعذيب لكن قدرته على الاحتمال كانت قد تأسست. وتواتر التعذيب مع التحقيق على امتداد ثلاثة أيام فلم يفقد هذه القـــدرة. وحيـــن ملّوا، أو ربما لأنهم يئسوا، أرسلوه إلى السجن، وكان بالصـــدفة هـــو السجن الذي حبس فيه راعيه القديم أبو جلال قبل عشر ســـنوات. أما كيف لم يُنس في السجن حين كان من المألوف أن ينسى أمثاله، فلأن جريدة بيروتية يسارية كتبت حكاية اعتقاله والتعذيب الذي

تعــرض له، فتصــدت لهــا جريدة يمينية قالت إنه اعتقل للاشتباه بأنه مهــرب. ولــم تفوتهــا اليسارية لليمينية، بل تصدت للدفاع عن سمعته ونســبت إليه أمجاداً تثقل حتى كواهل الأبطال. وبتلويث سمعته والدفاع عنها، بهذا وذاك، صار مشهوراً فلم ينس في السجن.

والحكاية التي بدأت في بيروت انداحت أصداؤها في المحيط الذي لا يشغله شيء بمقدار ما ينشغل بمثل هذه الأصداء. فما أن عاد إلى دمشق حتى استدعاه الأمن السياسي، وكان تحقيق جديد وما يقترن بكل تحقيق. واستحضر المحقق الدمشقي ما نشرته الصحافة، واستعان بفطنته فنحى تهمــة التهريــب، أما التهمة السياسية فليس من حق خالد أن ينكر أنه يســتحقها. فلمــا أنكر، جابهه المحقق بما رآها حجة دامغة، هل كانوا ســيعتقلونه فــي لبنان يوم وصوله بالذات لو لم يقعوا على ما يجعلهم يشكون فيه؟ وبعد سنوات، توجه خالد في عداد وفد فلسطيني إلى إمارة مــن إمارات الخليج، فدخل أعضاء الوفد الإمارة ومنع هو وأوقف في المطــار. وحينما احتج رفاقه، ووجهوا بما نسبته إليه الجريدة اليسارية وقيل لهم: هل كانوا سيشهدون له لولا أنه واحد منهم. ولأن هذه الواقعة دفعته إلى التقصي، فقد اكتشف أن اسمه مدرج فعلاً في القوائم السوداء في دول عدة، بما فيها دول حصلت على استقلالها بعد زيارته بيروت.

لم تغب سميرة حتى حين حملته ذكرياته إلى الخليج البعيد. وقد تذكر جدلهمــا بعد أن روى لها هذه الواقعة وكيف استحضرت هي ما جرى لأســرتها في الكويت لتقول إن الفلسطيني مستهدف في كلّ مكان. ومن الحق أنه كان قد حمل مثل هذه القناعة في وقت من الأوقات، لكن الحياة بدلــت قناعته. وهذا هو ما قاله وقتها لسميرة وأتبعه كالعادة بالشروح. ففــي كــل بلــد تضطهد سلطاته فلسطينيين يوجد مواطنون تضطهدهم

السلطات ذاتها. وحيث يوجد فلسطينيون مضطهدون يوجد إلى جانبهم فلسطينيون يتمتعون بطيب الإقامة والثروة والنفوذ. ألم يملك فلسطينيون في لبنان بنوكاً فيما الفلسطينيون الآخرون محرومون من حق العمل.

يومها، لم تقتنع سميرة برأيه، إلا أن قناعتها برأيها هي لم تظل راسخة كما كانت. وكم تاق إلى استئناف حواراتهما هذه التي كانت تقربهما الواحد من الآخر حتى لو بقيا مختلفين. فمتى تتوفر الفرصة؟ لم يرها منذ شهور، وهو لم يعرف أين هي. وفاقم قلقه عليها ضيقه وكاد الضيق يخنقه، فأحس ثانية بأن عليه أن يفعل شيئاً. لا يجوز أن ينفد صبره؟ يمكن الخبط على الباب في صورة مختلفة، وربما أمكن استدراج الحارس إلى الكلام دون مشاكسة. وسرعان ما نفذ عزمه.

- نعم؟

هكذا، من دون تحية، سؤال ساخط ألقاه الوجه الذي ظهر في الطاقة. ساخط؟ ليس هذا مهماً، لقد تحقق ما توخاه.

- صباح الخير! أردت أن أصبّح عليك بالخير، لا شيء غير هذا.

قالها خالد للوجه الذي بدا جهماً وبرماً، ثم تظاهر بأنه أنهى الحوار. غير أن الوجه تكلم.

- لي في الخدمة عشرون سنة، لم يلاطفني سجين إلا إذا أراد مني حاجة.

بدت اللهجة جهمة وبرمة مثل الوجه. أما فحوى القول ففيه استدراج، وهو ما التقطه خالد، سجّان بارد الوجه، بلا عواطف، لكن لا شك في أنه عملي.

- إن كان لابدّ من أن أطلب خدمة فخذني إلى حجرة المراحيض!

وانفتح الباب والحارس يقول إن دور خالد كان سيحل خلال دقائق، فكأنه قال: أطلب غيرها! وفيما الرجل يغلق الباب بعد أن أعاد السجين إلى الزنزانة، ألمح خالد إلى أن لديه، فعلاً، غيرها: لي طلب لا أعلم إن كنت ستلبيه. وانتظر. وعندما أطل الوجه ثانية في الطاقة دون استدعاء، أدرك خالد أن الفرصة مواتية.

- هل في السجن معتقلات سياسيات؟
- عمن تريد أن تسأل؟
- عن سيّدة يهمني أمرها.
- ما دخلي أنا؟ ما الذي سأناله إن تورطت بالسؤال عن أحد؟
- الآن، ليس معي ما أدفعه لك...
- إذاً، لا تسأل!

أراد خالد في البداية تزجية الوقت، لكن فرصة ما لاحت، فلماذا يفوتها.

- قد يتبدل الحال، بل لابدّ من أن يتبدل فأقدر على مكافأتك، فاستفسر لي عن شيء واحد، هل في السجن معتقلات من الفدائيات؟
- السجن فيه أشكال وألوان، والذي لا يملك ما يدفعه لا يسأل.
- أقدر أن أعطيك علامة لأصحاب لي فيكافئوك كما تشتهي.
- الاتصال بالخارج يكلف وحده الكثير.
- أنت تصعب التفاهم كأنك لا تحبّ أن تنفع نفسك، والأفضل أن تنسى!

كان التظاهر بطيّ الحاجة وسيلة مجرّبة لمعالجة تردد الحارس الطماع. والواقع أنها فعلت فعلها، تماماً كما أمل خالد. فقد أقفل الحارس

الطاقـــة بأناة، لكنه لم يلبث أن فتحها ثانية، وسأل عن إسم السيدة. ثم لم يمض وقت طويل حتى ظهر الوجه البارد.

– لا أحبّ أن تحولني على أحد في الخارج، ستدفع لي حين تجيئك نقود، كل سجين تجيئه نقود، وإذا لم تدفع فعندي ما يجبرك على الدفع، تذكر هذا!

– قل لي، إذاً، ماذا عرفت؟

– التي سألت عنها ليست في السجن.

كـــتم خالد ردّ فعله، ولاحظ على الوجه الذي يشغل الطاقة ما يشي بـــأن الكلام لم يتم، فلجم رغبته في الاستفسار حتى لا يوفر سبباً إضافياً لابتزازه. وتكلم الوجه.

– لم تقل لي إنها مهمة، هذه السيدة.

– لا أعلم أن لها أهمية عند ناس السجن.

– أنكـــر! كلكـــم تـــنكرون، ولا دخل لي بهذا، لكني أقول لك إنهم يبحثون عنها، صدر الأمر باعتقالها وسيجدونها. ولن تعرف أنت النتيجة قبل أن تدفع.

لم يشك خالد في صحة ما نقله الحارس ذو الوجه البارد، واضح أن للـــرجل شركاء في إدارة السجن يتقاسم وإياهم ما يبتزه من المسجونين وإذا لـــم يدفع خالد فسينتقمون. أما سميرة فهي لن تفلت إلا إذا غادرت المديـــنة والبلاد كلها، فهل تعلم هي أنها ملاحقة؟ وهل تغادر لو علمت؟ سأل نفسه كأنه يتمنى أن تفعل، لكنه كان يعرف الجواب، فهي لن تبتعد ما دام هو معتقلاً، وهل كان هو سيبتعد! ومن جديد، اتقدت الهواجس.

أما حين جاؤوا لأخذه مع أول المساء، فكان قد أغفى لبضع ساعات عوض بها سهاد الليل وأكل قطعة الخبز الثانية والبيضة وحبّة البندورة،

فلم يكن، إذاً، خائراً كما أراد المحقق. لقد أعدّ نفسه كما ينبغي لمواصلة الصـــراع، وبأفضل ما سمح به ظرفه. إلا أنه ما أن دخل الحجرة حتى رأى وراء المكتـــب رجلاً آخر غير المحقق الذي أنذره بالتعذيب، وكان للرجل وجه تذكر أنه رآه ذات مرة في مكان ما ولم يتذكر أي تفاصيل.

- مساء الخير!

- مساء الخير!

- تفضل يا أستاذ خالد!

التحـــية، ولقب أستاذ الذي يغفل صفته العسكرية، وجرس الصوت، كـــان هـــذا كله جديداً. وفجأة، انبثق الاسم من مخزون الذاكرة، الرائد صـــبري البشاشنة، الضابط ذو المنزلة المتميزة في المخابرات، ضمهما لقـــاء مشـــترك عقد لمعالجة واحدة من الأزمات، هو في وفد الفدائيين والـــرائد في وفد السلطة، ووجد وقتها من همس في أذنه: الرائد مقرب من رئيس الحكومة.

- تفكر في لقائنا السابق، حزرتُ؟

- اللقاء، وغيره، ما أكثر ما يدور في الذهن!

- لا تناســبنا اســتعادة ما مضى. ما حصل قد حصل، ونحن أبناء الحاضر، فخلّنا نتكلم عن ما نحن فيه!

- الماضي، الحاضر، المستقبل، كل إنسان يرى الزاوية التي تهمه.

- يبدو عليك أنك تعبان، هل أوذيت؟

- منعوا عني الوجبات، والتدخين، هذي هي المسألة.

- لعلهـــا تعليمات المحقق السابق. الآن، أمسك أنا قضيتك وسأبدل التعليمات. في الحقيقة نحن نريدك في حالة أفضل.

شـــدد الرائد كلمات الجملة الأخيرة. وأعمل خالد فكره، لماذا تبديل المحقــق، لماذا ضابط من هذا الوزن، لماذا التودد إليّ. وباشر محاولة الاستكشاف.

- وجه إلي المحقق أمس إنذاراً، توقعت اليوم...

- من أي نوع؟

- ألا تعلم حقاً أن زميلك أنذرني؟

ارتسمت ابتسامة على وجه الرائد، وأدرك خالد أن الرجل يتجنب أن يفسد الجو الذي يحاول إشاعته. وبلهجة خلت من السطوة، تحدث الرائد وهو مسترخ على كرسيّه.

- من واجبي أن أنبهك، ليس لك حق توجيه الأسئلة.

فـــبدأ الرائد كمن يشير على خالد بأن ينتقل إلى نقطة غير هذه التي يلح عليها. لكن خالد ظل يلح.

- زميلك أنذرني بأني سأتعرض للتعذيب الجسدي.

- تصفحت محضر التحقيق تصفحاً، وقرأت ما كتبته أنت، كل هذا لا لـــزوم له، لا لـــزوم له عـــندي إذا بدأنا بداية جديدة، أقصد من نوع جديـــد. أنـــا هنا من أجل هذا. وأقدر على أن أؤكد لك أنك لن تتعرض للتعذيب ما دمت أنا المسؤول عن القضية. سجّل هذا وانس ما قبله!

شـــدد الرائد الجملة الأخيرة ودلت نظرته إلى خالد على أنه ينتظر إجابـــة؛ قدّم عرضاً وهو يتوقع أن يتلقى موافقة. فلما لم يقل خالد شيئاً، وصل الرائد حبل الكلام، كأنما ليشجعه.

- قـــد لا تـــتعرض لأي تعذيـــب حتى لو لم أكن أنا المسؤول عن قضيتك. يتوقف هذا عليك أنت نفسك.

وبالتشـــديد على الجملة الأخيرة، تحسس خالد اتجاه الكلام دون أن يتبينه بوضوح.

- هل أعتبر كلامك عرضاً أو إنذاراً؟

ارتســمت الابتسامة على وجه الرائد مرة أخرى. ومدّ الرجل علبة سجائره لخالد، وأشعل السيجارة التي تناولها، ثم قال وهو يتهيأ لإشعال سيجارته هو:

- تذكر، لا حق لك في توجيه الأسئلة!

ومـــن جديد، أظهرت هيأة الرائد أنه ينتظر سماع شيء من جليسه. فلمـــا ظـــل هـــذا صامتاً، غاضت الابتسامة واستعاد الرائد سمت الجد، وسوى قعدته على الكرسيّ.

- نحـــن يا أستاذ خالد لا تنقصنا المعلومات، فلا تتصور أننا نبحث عنها عندك! ولو أطلعتك على ملفك الشخصي عندنا فستجد فيه ما نسيته أنت نفسك...

- زميلك قال هذا، وكل محقق يقوله، ربما كان...

- ربمـــا كان صحيحاً وربما كان غير صحيح؟ تتصور أني أبالغ، فاعـــرف، إذاً، أن مصادر معلوماتنا هي من داخلكم، وهي ليست قليلة ولا قليلة الأهمية.

- هذا أيضاً قد يكون صحيحاً وقد لا يكون، لكن لماذا تقوله لي؟ ما الذي تريده وأنت تؤكد عليه؟

ابتسم الرائد، فتوقع خالد أن يذكّره بأن لا حق له في الأسئلة، إلا أن الابتسامة غاضت، وسرعان ما استعاد الرائد سمت الجد!

- حتى أكون أميناً، على أن أذكر أن كثيراً من الذين تعاونوا معنا لم يفعلوا هذا لأننا أرهبناهم أو رغبناهم بالمنافع كما تتصور، بل تعاونوا عن قناعة.

أدار دخان السيجارة رأس خالد فحاول أن يحتفظ بتوازنه. وحين شدد الرائد الكلمات الأخيرة، أحس الذي يغالب الدوّار بأنه يستفزّ، والواقع أن الاستفزاز ساعده على الاحتفاظ بتوازنه. لما قاله الرائد مغزى لا يفصح عنه، فهل سيفصح أو أنه سيطيل اللفّ والدوران.

- هل تصغي لما أقول؟

- كما تراني، أنا أمامك ولي أذنان.

- لكن، ذهنك؟

- التدخين بعد الحرمان الطويل، مع الجوع، هل جربت هذا؟

فتجاهل الرائد الإشارة المكررة هذه إلى منع الوجبات، وتابع ما بدأ فيه.

- العداء لا لزوم له، لم يكن له لزوم في الماضي، والآن لم يعد له أي لزوم، ولو تخليت عن عدائك لنا فما أسهل أن نتفق!

- أنا لم أعاد أحداً منكم، عدّوي موجود بعد الحدود. نحن اختلفنا وإياكم...

- هل تظن أني أعاديك، هل تتصور أني أحمل لك مشاعر العداوة؟

- مشاعرك أنت أدرى بها.

لحظتها، ترك الرائد مقعده، وانتقل إلى الناحية التي يجلس فيها خالد، وجلس على حافة المكتب إزاءه، ومال ليقرب وجهه من وجهه.

- أحسب أنك، مثلي، لا تحمل عداوة، هذا يسهل الأمور ويجعلنا نتحاور دون أحقاد.

- بودي لو نتحاور، لكن الوضع لا يسمح إذ لا تكافؤ، والحوار لا يصير حواراً بدون تكافؤ. أنا سجين وأنت...

- هذه مسألة شكلية يا خالد! إذا تفاهمنا على الجوهر فما قيمة الشكليات.

لم يفت خالد مغزى انتقال المحقق ليجلس بقربه هو السجين، ثم لم يفته مغزى مخاطبته باسمه المجرد. أفرط الرائد في اصطناع التودد ورفع الكلفة، فاستُفز خالد ولم يشأ أن يخفي أنه مستفز.

- من مصلحتك أن تقول هذا، أن تسمّي سجني وعزلي وتجويعي مجرد شكلية. لن يضرّكم أي قول. حسمتم المعركة العسكرية لصالحكم. رفضتم التعامل معنا بما نحن تنظيمات وقيادات تمثل شعبها. الآن تريدون التعامل معنا في صورة مختلفة، فلماذا لا تقول لي ما الذي تريده مني بالضبط؟

همّ الرائد بقول شيء إلا أنه أحجم. وتصور خالد أنه حزر ما أحجم الرائد عن قوله، فقاله هو.

- ليس للسجين حق توجيه الأسئلة، أعرف هذا.

- هذه أيضاً مسألة شكلية إن تفاهمنا على الجوهر. المهم هو أن نتفاهم. هل نتحاور كما يتحاور العقلاء الذين تهمهم مصلحة البلد ومصلحة الناس. هذا هو المهم. وبالرغم من أنك ثائر لأن وجبتين أو ثلاثاً فاتتك فإني وجدتك، والحق يقال، أقلّ عداء مما توقعت، وأقلّ بكثير مما قيل لي عنك.

شدد العبارة الأخيرة ثم توقف وهو، مرة أخرى، في هيأة من ينتظر أن يسمع من السجين. وكان لدى خالد فعلاً ما يُسمعه للمحقق، إلا أنه رآه يتخابث فلم يشأ أن يسهل اللعبة. ويبدو أن الرائد استخلص من

صمت خالد ما رغب هو فيه، فخطا خطوة جديدة في اصطناع رفع الكلفة، وتكلم همساً، دون أن يفطن إلى أن الموقف لا يستلزم الهمس.

- سأبوح لك بسر. دولة الباشا مهتم شخصياً بك. ولا أكتمك أنه هو الذي طلب تكليفي أنا القضية.

ودولة الباشا، حين ترد على أي لسان في البلاد بدون مقدمة أو إضافة فهي تعني رجل الدولة الكبير الذي يعدّ الرائد من أزلامه والذي كان رئيساً للحكومة مرات عديدة.

- هل يحق لي أن أعرف سر اهتمام الباشا بي؟

- ستعرف كل شيء.

لم يعد الرائد يهمس، لم يعد يمثل، بل بدا كمن التقط سانحة موافقة وهو لا يريد أن تفلت منه.

- نعم. ستعرف كل شيء. إنس أننا سجين ومحقق. أنا هنا للتفاهم معك. وهذه هي مشيئة دولة الباشا.

وفي هذه المرة، شدد الرائد الجمل كلّها.

- لنقل إني نسيت، فمتى أعرف ما تريدونه مني بالضبط؟

الإلحاح أنهض الرائد عن مقعده وجعله يمشي في الحجرة ثم يجلس من جديد على حافة المكتب إزاء خالد.

- يعرف دولة الباشا ما بينك وبين قيادتكم. يعرف أنك عارضت استخدام السلاح في بلدنا. وإنك تدعو إلى ما نؤيده نحن، إلى تسوية مع إسرائيل في هدي الشرعية الدولية، ودولته راغب في التعاون مع العاقلين من قادة الفلسطينيين، وهو لا يشك في أنك واحد منهم.

- أنت تتحدث الآن في صلب الموضوع، صح؟

- يعتقد دولته أن العقلاء لن يرفضوا يدنا الممدودة للتعاون معهم. سوف نساعدكم في كل شيء، في إطلاع ناسكم قبل ناسنا على الحقائق، في فضح القيادة المنحرفة، سوف نقدم كل ما هو لازم حتى تكملوا المشوار وتقودوا شعبكم على الطريق الصحيح.

ردد الرائد ما يحفظه من عبارات سيّده الباشا. وبذل خالد مجهوداً هائلاً كي يتمالك نفسه. كان الدوار قد بارحه إلا أن توقه إلى سيجارة أخرى صار يعذبّه. وكانت علبة سجائر الرائد على المكتب، فخطر له أن يستأذن بأخذ سيجارة أو أن يأخذها بغير استئذان. إلا أنه خشي أن يسيء الرائد الفهم، وأنف أن يبدو ضعيفاً. وصار، بهذا، محتاجاً لكامل إرادته كي لا يشتّ.

- أعرف نفوذ الباشا، لكنه الآن ليس في رئاسة الحكومة، فهل تعرض عليّ التعاون معه شخصياً أو مع السلطة؟ كنت قد بدأت توضح شيئاً فأكمل الإيضاح! هل تمثل أنت الباشا؟ أو أنك هنا بوصفك مسؤولاً في مخابرات السلطة؟

أقامت هذه الأسئلة الرائد عن حافة المكتب. وكان واضحاً أنه، هو الآخر، يبذل مجهوداً هائلاً حتى يظل مسيطراً على مشاعره. وأغلب الظن أنه راح يتمعن في مغزى أسئلة خالد، هل تشي بالعناد أو تنم عن ملاينة. ورأى خالد يد الواقف إزاءه وهي تمتد إلى علبة السجائر، وتسحب سيجارة، وتشعلها، ثم تعيد العلبة إلى مكانها دون أن تعرضها عليه.

- أنت تدرك ما نريد، تدركه جيداً دون شك، لكنك لا تثق بي، وأنا لا ألومك على هذا، فمن الصعب التفاهم في لقاء واحد، وسأعطيك مهلة، تستريح، وتفكر. لديك عرض تعرف أننا سنكون كرماء معك إن قبلته،

ففكر فيه! وتذكر أني لست الضابط الوحيد في المخابرات، فإن أفشلتني فسيستلم غيري القضية، وأنت تعرف، ليس من المؤكد أن يكون غيري كـــريماً معك مثلي. بقائي أم ذهابي، أسلوب التفاهم أم العداء، أنت الذي يقرر.

وبتشديد الرائد الجملة الأخيرة وصلت إلى خالد الرسالة بكاملها. ما كـــان أحوجه للعودة إلى الزنزانة كي يخلو إلى نفسه، وكم ارتاح حين أعـــادوه إلـــيها! أيتوق السجين إلى زنزانته؟ ألا يتوق كل إنسان إلى ما يألفه!

احتاج إلى لم شتات نفسه وتركيز أفكاره. كان مع محقق يطلب شيئاً يرفضـــه هـــو فجاؤوه بآخر يطلب ما هو أخطر. والمحقق الجديد معتد بنفســـه وذو نفوذ، واللعب معه خطر، التمنع أو اللين كل منهما خطر، فكـــيف يعد نفسه للعبة الخطرة. لم يتحقق الإتصال بسميرة، يحتاج إلى وقـــت، وقـــد يطـــول هذا الوقت، وربما لا يتحقق أي اتصال. والتنظيم تمزق وأشتاته ملاحقة ومن العبث التعويل على أنهم سيتخذون المبادرة للاتصـــال به. لم يدرب الرفاق أصلاً على العمل السري فلا يرجى أن يتمكنوا من اتخاذ أي مبادرة. دربوهم على أن السلاح هو كل شيء ولم يهيئوهم لظرف ينفد فيه مفعول السلاح.

وجـــاء سعال أبي محمود، فأخرج خالد من استغراقه في هواجسه. وامتدت يد الحارس بصرّة، ثم احتل وجهه المخدد الطاقة.

– ما ظننت أنك سترجع بهذه السرعة، ألم يحققوا معك؟

صرّة طعام، وإنسان طيب، وسؤال مفعم بالتعاطف، فما الذي ينقص كي يعتدل مزاج خالد.

– كانت مناوشة قصيرة، أول الرقص.

ولما أظهرت تعابير الوجه أن الإجابة لم تفهم، أوجز خالد الأمر في إجابة مفهومة.

- سؤال وجواب، التحقيق في بدايته.

وفطـــن أبو محمود إلى أن خالد لم يسأله عن الصرة وكيف دخلت، فـــتطوع بالشرح: قال لهم إنه طعام جلبه من أجل سحوره لأنه نوى أن يصــــوم. زكية زوجة أخيه الفدائي هدته إلى هذه الحيلة وطمأنته إلى أن الله لـــن يحاســـبه على كذبه ما دام فيه منفعة لإنسان مكروب. أما أهم الأخبار فأجله أبو محمود إلى النهاية. فقد ذهبت زكية إلى جيران سميرة مرة أخرى فطلبوا منها أن تجيء غداً ولم يزيدوا علَى هذا.

هـــل أغفلـــت ســـميرة تنظيم صلتها بالجيران قبل أن تبرح المنزل المعروف؟ هاجس جديد شغله وأثار قلقه.

- لا أدري إن كـــان ذهابها مفيداً. من الذي قابلته زوجة أخيك من الجيران؟

- لم أسألها، فلا تؤاخذني! هل تروح إليهم غداً؟

- قل لها أن تتصرف!

- تتصرف؟ لم أفهم.

- تعرف هي ما يلزم عمله فقل لها أن تعمل اللازم!

حـــتى بعد هذا الإيضاح، لم يبد على وجه أبي محمود أنه فهم. أما خـــالد فقـــد شرد ذهنه مع هاجسه الجديد وكثرة الاتصالات للبحث عن سميرة وما تحمله من مخاطر عليها وعلى غيرها، ومع زكية التي عليها المعـــول والتي قد ترتكب أي خطأ فتقع وتوقع سواها، ومع أبي محمود الذي ما أكثر ما يجازف. ولماذا يعرض الآخرين للأخطار.

- لـــم تر ما في الصرة، جهزتها زكية وأحبت أن تعرف رأيك من أجل المرة القادمة.

- لا حاجة لمرة قادمة، لا أريد أن تتعرض للأذى، جاؤوني بمحقق جديد وتبدلت الأوامر، وسأحصل على الوجبات.

- تريد أن تغشني، سامحك الله، سألتهم قبل أن أجيء إليك فقالوا: ما في شيء تبدل، الأوامر الجديدة مثل القديمة.

هـــذا الرائد، رجل الباشا، وتودده، هو إذاً مثل غيره لا يدفع قبل أن تصـــير البضـــاعة في يده. يطلب مني الكثير ولا يسلفني لقمة هي حق لأي ســـجين. مســـتعجل هو الآخر، يتعجل انهيار فريسته ويتحدث عن التعاون. فلتستمر اللعبة، ماذا يهم إن طالت. لا تتوقف اللعبة بين المحقق والسجين قبل أن يهزم أحدهما الآخر.

- هـــون عليك! أين شردت؟ قل لي فأنا لم أفهم، ماذا أقول لزوجة أخي؟

- قل لها أن تذهب فتسأل مرة أخرى!

وتفقـــد خالد ما في الصرة. لابدّ من أنها امرأة فطنة زكية هذه، ففي صرتها على صغر حجمها ما يقيته لأيام عدّة إذا اقتصد، وهو سيقتصد، وليصـــدر الـــرائد الأوامـــر التي تطيب له! وبنيّة الاقتصاد، لم يقرب محـــتويات الصـــرة في ذلك المساء، بل أخرج قطعة الخبز الباقية من رغـــيف الـــيوم السابق وحبة البندورة والبيضة وشرع في المضغ. ما أعظم ما يفعله أبو محمود، خصوصاً جلب الطعام! الجوع مذلّ، الجوع سبب كل ذلّ. وهل كان بمقدوره أن يثبت لو لم يأته أبو محمود بما يقيم أوده!

في إبان القتال في المدينة، نفد مخزون التموين العائد لتنظيمه في منطقته وتأخر وصول التموين الجديد فتحسب العواقب هو الذي لم يعرف متى يمكن تدارك النقص. يومها، قصد زميلاً في تنظيم آخر كان رجاله يباهون رفاق خالد بما هو متوفر لهم، وطلب المساعدة، فادعى الزميل أن مخزونهم هم الآخرين على وشك أن ينفد. ولأن خالد لم يصدق، ولأن الحاجة غلاّبة، فقد ألح، يقاتل الجميع في خندق واحد في سبيل قضية واحدة، فلماذا لا يتقاسمون ما لدى أي منهم. ولما تشبث زميله بالإنكار، طوى خالد الحكاية، ثم كاد ينساها، بل لقد نسيها فعلاً في زحمة الأحداث المتعاقبة إلى أن وقع ما ذكّره بها، وذلك حين حطت على المستودع الذي قيل إنه فارغ قذيفة دمرته ورأى خالد بنفسه ما رآه الجميع: المخزون الوافر وقد امتزجت مواده بدمار المبنى والناس الجياع الذين جازفوا بالخروج من منازلهم وكل منهم يحاول أن يستخلص لنفسه ما يقيت.

كانت تلك أياماً قاسية، لم يتهددهم فيها خطر نفاد التموين وحده، بل كابوس نفاد الذخيرة أيضاً. فمنذ أحكم الجيش حصاره على المدينة وغاض الأمل بوصول النجدات، راح مخزون الذخيرة ينقص ولا تعويض، وصار للخوف من نفادها ثقل الصخرة على كل صدر.

كان عليهم أن يثبتوا في مواقعهم ليتجنبوا فتك المهاجمين بهم ويستبقوا للعمل الفدائي كله الوجود اللازم للعمل ضد الاحتلال وبعض الحقوق المتصلة بهذا العمل. وكان الوسطاء قد بدأوا نشاطهم لإيقاف القتال وحمل الطرفين على الاتفاق. وصارت القاهرة، وهي التي كانت توصف بأنها عاصمة العرب، مركزاً لتجمع الوسطاء من شتى الأطراف ومداولاتهم. وكان رؤساء دول العرب كلهم قد وافقوا على

عقد قمة في القاهرة تصيغ شروط الاتفاق المطلوب وتضمن إنفاذه. ولو أن ذخيرة الفدائيين نفدت، لما بقي لهم إلا أن يستسلموا دون قيد أو شرط ويخسروا كل شيء، الحاضر والمستقبل، وهذا ما استبسلوا لكي يتجنبوه. ولأن كل يوم جديد صار يحمل نذراً جديدة، ولأن مساعي الوسطاء بدت للمحاصرين بطيئة الوقع، فقد ظل سؤال المصير يمضّهم: ماذا لو فشل الوسطاء أو نفدت الذخيرة؟

في ذلك الظرف، دعي خالد إلى اجتماع حضره القادة العسكريون كلهم، قادة تنظيمه والتنظيمات الأخرى، وأبو سمير هو الذي رأس الاجتماع، وهو الذي جاءهم بآخر الأنباء: رؤساء دول العرب، الملوك والأمراء ورؤساء الجمهوريات أو من في حكمهم، افتتحوا اجتماع قمتهم الطارئة في القاهرة وقرروا أن يبقوا في حالة اجتماع دائم إلى أن يتوقف القتال. وسيصل إلى المدينة بين لحظة وأخرى وفد يمثل القمة ومعه مشروع اتفاق فيه شروط لصالح الفدائيين وشروط موجعة لهم. وكان أبو سمير مكلفاً من رئيس الفلسطينيين المدعو إلى القمة بأن يتداول مع القادة العسكريين شروط الاتفاق ويرجع إليه برأيهم فيها.

ولما كان الحال أثقل من أن يأذن بإطلاق الكلام على عواهنه أو غير عواهنه، فقد صار على كل صاحب قول أن يوجز ويصبّ قوله في اللباب. وفي ذلك الاجتماع، أيدت أغلبية الحاضرين اقتراح وقف إطلاق النار، وانتهى الجدل حول الشروط إلى تخويل الرئيس حق التفاوض بشأنها والبتّ فيها. وكان خالد أوجز الحاضرين كلاماً وأشدهم تركيزاً على لبّ الموضوع: في وقف إطلاق النار إنقاذ لما بقي، والشروط لن تصير مقدسة إذا قبلناها ولن يتعذر تعديلها إن تعدل الميزان في المستقبل، ولن تعجز السلطة عن فرضها فرضاً إن رفضناها.

لمـــاذا امتنع عن توجيه أي انتقاد هو الذي وضع يده على الخلل منذ الـــبداية وتنـــبأ بالمأساة، لماذا لم يتحدث عن الأسباب والمسببين؟ سؤال تلقاه خالد بعد ارفضاض الاجتماع فلم يجد ما يرد به على السائل سوى الإفصـــاح عمـــا كـــان في ذهنه فعلاً: ما فائدة الانتقاد في اللحظة التي يتطلب الموقف فيها تكاتف الجميع من أجل عبور المحنة. سيقال كل ما ينبغي أن يقال بعد الخروج من هذه المحنة، وما أن تواتي الفرصة حتى يقول كل ما عنده.

ومنذ ذلك الوقت، لم توات أي فرصة. غرق في المهام التي أوكلت إليه، وتواترت الأحداث، أو ليقل إن المحن توالت، ولم تتوفر الفرصة لا لقـــول كـــل شيء ولا لقول أي شيء. فهل ستتوفر هذه الفرصة في أي وقت.

كـــلام الرائد أظهر لخالد كم هي محدودة الفرص الباقية له. فما دام في قبضتهم فليس أمامه إلا أن يرضخ لهم أو أن يظل في القبضة ويشتد فـــتكها به. واعتداد الرائد بنفسه يسنده صلف السلطة المعتدة بقوتها بعد أن لـــم يبق في وجهها قوة تصدها. إنه قبح الاعتداد بالنفس حين يصير المعـــتد بنفسه ذا سطوة، وهو أيضاً خطره، وخالد يعلم أنه محاصر في شـــدق هذا الخطر. يتصور الرائد أنه قادر على الإيقاع بخالد بمعسول الكلام أو بالإكراه، الإغواء أو البطش، ثنائية كل سلطة تحتقر خصومها وتكـــون باغية. والباشا يتصور أن الواقعين في القبضة سوف يساعدون فـــي تدمـــير مـــا بقـــي من العمل الفدائي فيسهلون عليهم البطش بكل خصومهم. ومن أجل أن ينجحوا أشرعوا إنذارهم: الخيانة أو التعذيب.

امـــتدّ اللـــيل. وانداحت الهواجس. واشتد وقعها. وجافاه النوم. ليلة أخرى ثقيلة الوقع لم يبارحه فيها السهاد.

4

سـميرة هي الأخرى جافاها النوم. حاولت أن تقرأ فأعوزتها القدرة علـى التركيز. شغّلت المذياع فلم يبثّ ما يجتذبها. اصطخبت الأفكار، والقلق، فامتدت ليلة أخرى ثقيلة الوقع.

- أنت سهرانة يا ابنتي؟

- أدخلي يا أم باسم!

- السهر يهدّ الحيل.

قالـتها العجوز وهي تجلس إزاء سميرة على حافة السرير دون أن يظهر صوتها أنها تعني حقاً ما تقول أو تحثّ المسهدة على النوم. كانت أم باسـم قـد آوت إلى فراشها مبكرة بأمل أن تصحو في الموعد الذي توقعت عودة باسم فيه. وعندما صحت فعلاً، وجدت ابنها في سابع نومه فحـثها الفضول على إيقاظه ومنعها إشفاق الأم على الابن المتعب. ثم حسـمت الأمر حين رأت النور في الحجرة التي تنام سميرة فيها فلابدّ من أن الأنباء قد وصلت إليها.

- لـم يجدوا ما يجعلهم يشكّون في الحارس. بالرغم من هذا، فضل باسـم أن يـتوثقوا أكثر، وسيأتيه الخبر اليقين في الصباح. هذا هو ما رجع به.

ولـم يكـن فـي الأنباء ما يغوي العجوز بالسهر أو يجلي نعاسها، فرجعت إلى حجرة نومها. وأطفأت سميرة النور، وحاولت أن تغفو، إلا أنها لم تفلح؛ لقد دخل القلق حياتها ولا يبدو أنه سيبرحها. إنه القلق الذي

عصـــفت موجاتـــه بهـــا، موجة إثر موجة، منذ تفرغت للعمل الفدائي وجاءت إلى هذه المدينة وتعرفت على خالد.

ومع السهاد، تدفقت الذكريات. وحضر الصباح الذي فارقت فيه خالد وتوجهـــت إلـــى حيث قرر لها أن تكون أثناء القتال. وقتها، لم تسترح لقـــرار إرســـالها إلى المستشفى هي التي لم تكن تعرف شيئاً عن عمل المستشـــفيات، لكنها رضخت، فما دامت بعيدة عنه فالمستشفى أو غيره سيّان.

وجـــدت جمـــيع مَنْ في المستشفى في حالة انتظار وترقب. وحين ســـألها المدير عما تستطيع أن تعمله في مستشفاه، ارتبكت، إذ ما الذي كان بإمكانها أن تقوله. عملتُ في مكتب، لكني، كيف أقول، أنا خريجة جامعـــة في اللغة الإنجليزية. عرّفت المدير بوضعها كأنها تعتذر. وقال المديـــر إن مستشفاهم لا ينقصه الذين يتقون الكلام فقد أرسلوا إليه من هـــؤلاء كثيرين، ولما كانوا في حالة طوارئ فقد كانوا بحاجة إلى ذوي المهن الطبيّة حتى لو كانوا خرسانا. ولئن أحرج برم المدير سميرة فإنها لـــم تنسحب، فأين كان يمكن أن تذهب لو انسحبت وخالد لا يريدها بين المقاتلين. أحبّ أن أكون نافعة، قالتها بحزم وافاها في تلك اللحظة، ولم تتطامن.

ألبســـوا سميرة معطف ممرضة فوق زي الفدائيين، وتوجوا رأسها بالقلنســـوة البيضـــاء، ووضـــعوها فـــي حجرة استقبال الوافدين الجدد، وكلفوهـــا ملء استمارات إدخالهم المستشفى. وأدركت سميرة أن ما من أحـــد عـــرف مـــن هي أو ما هي صلتها بأبي الملاحم فعدّت هذا من علامات حسن الحظ.

وكـــانوا قد أتموا كل ما أمكن عمله لمواجهة مفاجآت القتال؛ أخلوا الأسرّة من غير المحتاجين إليها احتياجاً قاهراً، وملؤوا الخزائن بالمواد الطبية، والمستودعات بالتموين، والحاويات بالوقود. فلما اشتعل القتال، لـــم يرتبك أحد. حتى سميرة المستجدة لم ترتبك ولم تخف. وجودها في مستشفى، ومعنويات المحيطين بها، واكتمال الاستعدادات، هذا كله وفر لها الإحساس بالأمان. وبعد انتظار لم يطل، بدأ توافد المصابين. وكان علـــى ذوي الإصـــابات اليسيرة أن يتوقفوا عندها بأنفسهم ليزودوها بما يلـــزم لمـــلء استماراتهم. أما ذوو الإصابات الخطيرة فصارت تستعين بمن يأتون بهم أو ترجيء ملء استماراتهم إلى أن يتمّ إسعافهم.

أول الوافدين كان شاباً فخوراً جزم أن إصابته ليست خطيرة وطلب أن يضـــمدوه بسرعة، والتفت إلى رفيقه الذي أتى به، وهتف: إياك أن ترجع بدوني! الثاني كانت له العزيمة ذاتها مع أن إصابته أشدّ، الوضع صـــعب فـــي موقعه، كما وصفه، لكنه تحت السيطرة. مصاب إصابته واضحة الخطورة تحدث مرافقه إلى سميرة، كان وراء متراس اخترقته قذيفة دبابة فأثاره ما وقع فخرج من وراء المتراس وهو يطلق رصاص بندقيته على الدبابة فأصابه رشاش دبابة أخرى فرجع إلى المتراس وهو يـــنزف. مصـــاب آخر، هو شبل ابن ستة عشر ربيعاً، قال مرافقه، لا تسألوا عنه فهو بطل، قتل منهم ضابطاً قبل أن يصيبوه.

ومـــع أن العدد زاد ووتيرة التدفق على المستشفى اشتدت، فقد بقيت المعـــنويات جـــيّدة بالإجمال وبدا المصابون فخورين بما قاموا به. أما ســـميرة فظلت قادرة على تقصي المعلومات اللازمة وملء الاستمارات بعـــناية حـــتى الظهيرة وما بعدها بساعة أو اثنتين. ثم فاق العدد قدرتها علـــى العناية باستماراته. وقبل أن ينحسر ضوء النهار، صدر لها أمر

بالكفّ عن التسجيل، وطلب منها أن تعاون المضمدات المغرقات بعمل الإســعاف، وتحوّلت حجرة الاستقبال إلى حجرة تضميد. ولما كان عدد المحتاجيــن للإسعاف أكبر من طاقة المناضد المعدة لهم، فقد استخدمت كــل منضدة متيسرة. كما استخدمت المكاتب. وحين قصر عدد الأسرة مــع اقــتراب المســاء عــن استيعاب المحتاجين إليها، مدّت فرش في الــردهات على الأرض. ولأن أعمال التضميد التي انهمكت سميرة فيها كــثرت، فــإن فرص الاستماع إلى الوافدين الجدد قلت، ولم تعد سميرة تتبادل مع هؤلاء سوى أحاديث قصيرة ومبتسرة.

وقــبل أن يحلّ المساء، انضاف إلى حشد المصابين المصابون من غــير المقاتليــن، من هؤلاء الذين كان الإعلام يسميهم الأبرياء، وراح عددهم يزيد. بعض هؤلاء كان من ضحايا القصف والرصاص الطائش، وبعضــهم من ضحايا الرعب. وكان هؤلاء جميعهم، بخلاف الفدائيين، يشكون ويملؤون الجو بصخب شكاواهم. والفدائيون أنفسهم، إذا أظهرت أحاديث الصباح فخارهم وكم هم مسيطرون على الموقف، فقد أظهرت أحاديــثهم فــي المساء أن الوضع اختلف. الأحوال ليست سهلة. هكذا صاروا يقولون. إنها الحرب التي لا تكافؤ بين طرفيها، هكذا قال الذين سموا الأشياء بأسمائها.

ومــع تقــدم اللــيل وإطباق الظلام، هجعت المدينة، وانقطع توافد المصابين، وبدا أن ضجيج القتال قد أخلى مكانه لهسيس الهواجس. ونام العــاملون في المستشفى كيفما اتفق، إذ لم يبق لمعظمهم حجرة ينام فيها أو ســرير، ولم يذهب أي منهم إلى منزله. ووجدت سميرة مكاناً خالياً بين منضدتين مشغولتين بجريحين ابقيا ليناما عليهما، فنامت فيه.

فـــي لـــيلة الخطر نامت ما أن مددت جسدها على الأرض. أما في حجرتها التي يغمرها القلق والهواجس فقد جافاها النوم طويلاً. فما الذي جعلهـــا تـــنام بعـــد أن رأت في المستشفى ما رأت من أهوال، ولماذا عجـــزت عن النوم في سريرها المريح؟ هل هو الفارق بين أن يكتنفك الخطر وأنت بين الجموع التي تواجهه وبين أن يحاصرك وأنت معزول وفاقد الحيلة، بين أن تكون صامداً وبين أن تنهزم، أو هو سبب آخر؟

في يوم القتال الثاني، دوّى القصف مع أول ضوء فأخرج المدينة من هجعـــتها. وصـــحت سميرة مع المستشفى الذي سرعان ما تدفق عليه المصـــابون، مدنييـــن وفدائيين. وفي أحاديث الفدائيين، تسربت المرارة حتى من حكايات المزهوين بصمود مواقعهم، ولاحت بوادر خيبة الأمل حتى على الذين أعلنوا تشبثهم بالتفاؤل. كيف تريدون أن تكون الأحوال بيـــنما ينصبّ هذا الهول على مواقعنا المحاصرة. كانوا يقولون هذا ثم يتعزون: لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم.

ومـــع الظهـــيرة، مـــع استطالة صفوف الذين ينتظرون الدور لتلقي الإســـعاف، صدرت الأوامر بالاقتصاد في استخدام المواد الطبية، أوّل إشارة إلى النقص.

وفـــي اليوم الثالث، ازداد سوء الحال حتى لم يعد من السهل تصور مـــا هـــو أســـوأ. زادت نسبة المدنيين، وزادت بين هؤلاء نسبة الذين أمرضهم الرعب، وبدا كأن الرعب وباء طاف بالمدينة واستهدف بتأثيره الجمـــيع. وزادت أعـــداد المصـــابين من المقاتلين وارتفعت نسبة ذوي الإصابات الخطيرة. وأخليت الأسرة والفرش حتى من المحتاجين إليها، وحلّ محلهم الأشدّ حاجة. أما الباقون، وهم الأغلبية، فقد تحشدوا في أي مكان خال من الأسرة والفرش أو في الحديقة. ونفدت مواد طبية بعينها،

وصــدرت الأوامر بقصر استخدام المواد الباقية على علاج الإصابات شــديدة الخطورة وحدها. وثقل الوضع على كل نفس، وراح ثقله يشتد مــع وفــود مصابين ومرضى جدد لا أمل لأي منهم في الحصول على علاج.

في هذا الوضع، لم يبق للمتطوعين بالعمل في المستشفى الكثير مما يفعلونــه، إلا إذا تعلق الأمر بمواساة المبتئسين وتهدئة المتذمرين. وهذا هو ما انهمكت فيه سميرة. ملّ بعض الموجوعين الشكوى وانطوى على نفسه واستكان أو هجع. وواصل آخرون التوجع أو الاحتجاج. وراحت ســميرة تــتجول هنا وهناك، تهدئ، وتواسي، وتوزع نصائحها، وتمني المبتئسين بأن المستشفى طلب إمدادات وهذه قد تصل في أي لحظة. ولم تكــن تجهــل حقــيقة الوضع، بثّ المستشفى نداءات متلاحقة، غير أن الحصار كان محكماً، فكيف ينفذ أي شيء. مع ذلك، لم تفقد الأمل.

وعــندما بلغت المعنويات القاع واستحكم اليأس، ظهرت عند البوابة شــاحنة فــأحدث ظهورهــا انفجارة فرح هادرة. لكن يأس الموجوعين ســرعان ما استعاد سيطرته حين اتضح أن الشاحنة جلبت طعاماً وليس مــواد طبــية. ولئــن أحدثت ربطات الخبز وصناديق المعلبات بعض الانفراج فإن هذا لم يكن هو الانفراج الذي يمسح خيبة الأمل. ويبدو أن المدير المتألم أكثر من سواه، العارف بالحال أكثر من أي شخص آخر شــاء أن يعــزز الشعور بالانفراج، فأمر بتوزيع الطعام على الجميع، العاملين والمرضى والزوار. ووجدت سميرة ما تنشغل به فيصرفها عن الغــرق في الهم الذي يوجعها وانهمكت في عملية التوزيع بحميّة. وبعد أن ظفر كل جائع بشيء يأكله، وقفت هي عند نافذة مطلة على الحديقة وراحــت تلوك لقمات من قطعة خبز خصّت نفسها بها. وكان أميز ما

مـــيز المشهد الذي أحاط نظرها به عبر النافذة هو انصراف المحتشدين في الحديقة إلى أكل ما تلقوه وخفوت الضجيج.

وفيما هي في وقفتها تلك، حاضرة تارة وشاردة تارة، وغير مركزة نظـــرها أو فكـــرها على شيء بعينه، رأت جماعة صغيرة تلج المدخل المفضــــي إلـــى الحديقـــة وتتقدم ناحية المبنى. وكانت هذه جماعة كأي جماعـــة، وما كان لها أن تجتذب أي انتباه لولا الصراخ الصادر عنها والذي برز صخبه وسط الهدوء المهيمن. وحين اقتربت الجماعة أكثر، اتضـــح لسميرة أن ما تسمعه هو مزيج من صراخ إمرأة وصراخ طفل رضيع.

ســـيدة في عزّ شبابها، ورضيع تحمله على صدرها، وقد برز ثدي الســـيدة الأيســـر خارج ثوبها وانغرزت أصابع الرضيع في لحم الثدي. وكانـــت الســـيدة تصرخ من الوجع فيصرخ رضيعها لصراخها ويشتد انغراز أصابعه في اللحم. وكان مرافقوهما يتكلمون دفعة واحدة فيحتاج كـــل منهم إلى أن يصرخ بأمل أن يُسمع ما يقول. ذلك كان هو المشهد الـــذي تمـــيزته ســـميرة ما أن دنا منها. وبالرغم من أن ما ملأ نظرها وســـمعها وأوجع روحها لم يكن بحاجة لشرح فإن أحدهم أصر على أن يفســـر مـــا جرى، سقطت قنبلة وهي ترضعه فأرعبه صوتها فتشنجت أصابعه ولم يتمكنوا من تنحيتها عن الثدي دون أن يؤذوه.

حـــتى هـــنا، ثم لم تعد سميرة تسمع. عصف برأسها دوار عنيف، وســـقطت قطعـــة الخبز من يدها، وتوقفت حركة فكيها، وبقي ما كانت تلوكه محشواً في فمها، ثم سقطت هي. وحين استعادت وعيها، كانت ما تـــزال فـــاقدة القوة، وكان بجوارها طبيب يحاول المساعدة. وشاءت أن تصـــرف نظرها عن المشهد الذي زعزعها لكن المشهد كان يحيط بها،

الأم ورضيعها والصراخ المزدوج، والمرافقون وصخبهم الذي لا يهدأ، والفضوليون وقد احتشدوا في الحجرة وراحوا يزعقون ويحثون الطبيب علـــى عمل شيء، والطبيب الذي صار عليه أن يصرخ ليرغمهم على ســـماع صوته: أعطونا وقتاً، الدواء المضاد للتشنج نفد، فأعطونا وقتاً! ولـــو أن مطـــرقة راحت تخبط رأس سميرة فربما كان وقعها أخف من وقع هذا المشهد وضجيجه.

ودون أن تحس بما تفعله، وجدت نفسها تنهض وتخترق الحشد الذي تكـــتظ بـــه الحجرة وتنفلت من الباب وتندفع إلى الحديقة وتجري باتجاه بوابة الخروج. كانت هاربة في الطّرقات التي تعصف برأسها، ولم تكن تنشـــد إلا الابتعاد عن مصدرها. وحين انتبهت إلى نفسها بعد أن هامت في محيط المستشفى دون إرادة، حين استعادت إرادتها، برق في ذهنها خاطر فاتبعت البريق، وراحت تبحث عن خالد.

اهـــتدت إلـــيه وهو جالس في حديقة منزل اتخذه مقراً لقيادته. وفي لحظـــة تلاقي النظرات، أحست سميرة إحساس من وصل إلى هدفه بعد أن اســـتنفد السـعي إلـــيه قواه. ورآها هو تترنح فحماها بذراعيه من السقوط. ولحظتها، انفجرت هي بالبكاء، فأجلسها وهي تبكي. ولم يحاول ثنيها عن إفراغ شحنتها، بل أرخى لها العنان. وقد نفعها البكاء؛ تلاشى وقع المطرقة وخفّت أثقال الروح.

أنـــتم هـــنا تقاتلون، فالأمل مفتوح ما زال، ولديكم ما يشحذ الإرادة، قالت. أما عندنا فالدائرة أقفلت والحلقة صارت صماء، أضافت، وطلبت أن لا يلومهـــا علـــى مجيـــئها إلـــيه. ولم يلمها على المجئ، بل أدهشه اعـــتقادها أنـــه قد يلومها ولامها عليه. واستحضرت شدّة حرصه على الانضـــباط، فطلـــب مـــنها أن لا تقسو في الحكم عليه، فهو ليس ذلك

المترمـــت الـــذي تصورته، وهو لا يتطلع إلا إلى أن يظلوا متماسكين وتظل لهم القدرة على الثبات في مواقعهم إلى أن يفرغ مؤتمر القمة مما شرع فيه. وحين استفسرت عما يتوقعه من القمة، رد وقد امتزجت في صوته رنة أمل برنة يأس: أن تفضي المفاوضات التي ترعاها القمة إلى شيء حتى لا نخسر كل شيء.

لـــم يـــأذن الموقـــف بأي مناجاة. لكن، حتى حديث السياسة والقتال يصـــير مـــناجاة إذا تبادله متحابان. وقد أحست يومها وهو يحدثها عن أهمية الصمود بأنه يناجيها ويقدم لها العهد بأن لا ينكسر. وعندما افترقا كانت عيونهما تفيض حباً وكانت روحاهما تغتسلان بفيض الحبّ.

وفـــي المستشفى، بعد نفاد المواد الطبية، صار على سميرة أن تشهد الاســـتمرار الصـــامت للمأساة. الموجوعون وقد اسلمتهم شدة أوجاعهم ذاتهـــا إلـــى الصمت. والذين تعفنت جراحهم فماتوا فصمتوا إلى الأبد. والذين بقوا أحياء فدفنوا الموتى وهم صامتون. ولم تجد سميرة ما تقوله فآثرت الصمت.

صار دفن الموتى مشكلة المشاكل. فكيف تؤخذ الأجداث إلى المقابر البعيدة إذا كانت الأخطار قد احتلت أرجاء المدينة كلها وراحت تترصد الماضـــين على أي طريق. ولأن المشكلة تراكمت مع تراكم الأجداث، فقـــد هدتهم الحاجة إلى حل فاتبعوه، فحفروا في حديقة المستشفى حفرة فســـيحة وعمـــيقة وأنـــزلوا الأجداث إليها وطمروا هذه الأجداث وأبقوا الحفرة مفتوحة. وصار كلما تراكمت أجداث جديدة وضعوها في الحفرة وطمروها، تزيد الأعداد فينقص فراغ الحفرة.

وفـــي يوم لم تعد تتذكر رقمه بين أيام القتال، لم يبق في المستشفى مـــاء، نضـــب مـــا في الأنابيب ونفد مخزون الحاويات. وبهذا، اكتملت

المأساة، أليس صحيحاً أن لكل مأساة عناصر لا تكتمل بدونها، وهل تكتمل مأساة مستشفى واقع في حصار إذا لم يُضف نفاد الماء إلى الجوع والجراح التي لا علاج لها! صار الجرحى على يقين من أنهم سينضمون إلى من في الحفرة إن طال أمد الحصار ومن المتعذر تبديل الحال ما دام الحصار قائماً. ولأن وضع المستشفى صار معروفاً في المدينة ولم يعد أحد يأتي إليه، فقد تجمد كل شيء، واستقرت المأساة، ولم يبق إلا الأمل المعقود على القمة: لو أمكن التوصل إلى اتفاق يفك الحصار اللعين! وصار حال سميرة جزءً من هذا الحال. توارت همومها الشخصية ومشاعرها المميزة واندغمت في الجمع الذي تحاصره المأساة وراحت تنتظر كما ينتظر الجميع.

غير أن المستشفى الذي قدّر عليه أن تتكثف فيه مأساة المدينة لم يقدّر له أن يبتهج بوقف إطلاق النار عليها، كأن عناصر مأساته لم تكن كافية فصار لا بدّ من إضافة! فقبل ساعات فقط من توصل القمة إلى الاتفاق المأمول، كانت سميرة واقفة عند النافذة وبصرها ممتد عبر الحديقة التي يمتزج فيها شميم الموت والصمت والترقب. ومن موقعها هذا، قيض لها أن تشهد الاندفاعة الأولى للذين اقتحموا البوابة. مسلحون مهتاجون، وبنادقهم، وحرابهم المشرعة، هل كانوا جنوداً؟ رجال أمن؟ أو أنهم كانوا، كما ستصفهم بلاغات السلطة فيما بعد، من المنفلتين؟ من الذي كان بمقدوره أن يوجه أي أسئلة، وأين الفارق بين هذا الصنف أو ذاك؟ وما الحاجة إلى معرفة هويتهم أو طبيعة ولائهم، هم الذين لم يسألوا من فتكوا بهم عن أي هوية أو ولاء؟

وفيما الحراب تغزّ والرصاص يقتنص صمت الحديقة، اندفعت سميرة هاربة في الاتجاه الذي يبعدها عن المقتحمين. ووقعت عين

الهاربـــة على باب مفتوح فولجته، ثم أغلقته، وأحكمت إغلاقه. ووجدت نفســـها في الحجرة المخصصة لنوم الطبيبات، وسرعان ما وافتها فكرة فشرعت في تنفيذها بأسرع ما أوجبته رغبتها في النجاة!

خلعــت معطــف الممرضة وزي الفدائيين الذي تحته والحذاء الذي ســاءت حاله، ولبست ثوباً تناولته من خزانة الملابس وحذائين. وعندما اشــتد الخبط على الباب وجاء الإنذار أن افتحوا حتى لا نكسره، كانت سميرة قد صارت جاهزة.

مــا أعظم أن تسعفك حيلة منجية وأنت في شدق الخطر! أنا كويتية فماذا تريدون مني، أنا خائفة. أرسلت عباراتها خلال الباب المقفل بلهجة كويتية لا شائبة فيها، وكررت بأعلى صوت: أنا كويتية، فتوقف الخبط، وســمعت أحدهــم يقول لمن بدا لها أنه رئيسه: سيّدة كويتية تقول إنها خائفــة. وجاءتهــا إشــارة النجاة حين خاطبها صوت تشي نبرته بأن صاحبه صاحب سطوة: افتحي، لن يؤذيك أحد، نحن نبحث عن الفدائيين المختبئين هنا ولا نريد أحداً غيرهم!

وجدت سميرة أمامها شاباً في زي عسكري دون الشارات التي تدل علــى الرتبة وإن وشت هيأته بأنه ضابط. وسألها الشاب عما تفعله هي الكويتــية فــي مكان يختبئ فيه المتمردون على سلطة البلد، فوضعت الحاجة التبرير الملائم على لسانها، جاءت تبحث عن قريب لها أصيب قبل أيام برصاصة طائشة وانقطعت أخباره، ولما رأتهم قادمين دون أن تعرف من هم فقد خافت ولجأت إلى هذه الحجرة.

لم يكن لدى الشاب وقت للتدقيق، إلا أن تردده بدا واضحاً، فأدركت ســميرة الســبب، فلهجتها كويتية، ما في هذا شك، أما شكلها فمختلف. وبيــن يقيــن الشاب وشكّه، نجت التي اضطرت إلى تزوير هويتها من

الفـــتك بهـــا لكنها أخذت إلى مدرسة كبيرة وضمت هناك إلى مشبوهين آخريـــن اكتظت بهم باحتها وحجراتها. وأمضت سميرة بقية ذلك اليوم والـــيوم الـــذي تلاه في حجرة حشر فيها النساء. وفي اليوم الثالث، في صـــباحه الباكر، حلّ دورها لمواجهة محقق أسيان أجهده العمل الكثير المتصـــل. وكـــان سؤال وجواب كررت فيه الحكاية التي اختلقتها. أما أوراقهـــا التي سأل المحقق عنها فقالت إنها فقدت في المستشفى؛ كانت الأوراق في حقيبة يدها، قالت للمحقق الذي يتعجل الفراغ من قضيتها، وقـــد فقدت الحقيبة وما فيها. وتردد المحقق كما تردد الشاب، ثم أصدر قراره، فكان الترحيل الفوري عن البلد.

وفي حجرتها الصغيرة، تذكرت سميرة المسهدة كيف تأملت المدينة وهـــي في الطائرة التي تنقل المرحلين، وكيف أدركت كم هو عميق ما يربطها بهذه المدينة. كان حرياً بها أن تفرح بنجاتها لكنها لم تفرح، بل كانـــت حزينة. رأت مدينة موجوعة وكادت تسمع أناتها من ذلك العلوّ، وأحســـت بأنها مشدودة إليها، وتمنت أن ترجع. ولو لم تكن تلك طائرة يـــتعذر الفـــرار منها لما أتمت سميرة الرحلة! وفي المطار الذي حطّت الطائـــرة فيه، وقف مندوبو التنظيمات، كل مندوب ينتظر من قد تجيء به الطائرة من ناس تنظيمه، فلم تقدم نفسها لأي منهم، بل أوكلت أمرها إلـــى ممثل الصليب الأحمر الدولي الذي رحّلت بإشرافه، وهو الذي أتم الإجراءات اللازمة.

حلّـــت في دمشق وأبو الملاحم هناك. علمت بوجوده فور وصولها لكـــنها لـــم تتصل به. وفي المساء، بادر هو، فتلقت على الهاتف صوته الهـــادر واستفساراته اللائمة، فصبرت نفسها وأرغمته على أن يختصر الكلام. تعال لأن لدينا ما نناقشه! قالت، ثم أنزلت السماعة.

انتصبت أمام أبي الملاحم سيدة ليست هي تلك التي يعرفها. فما أشدّ ما تبدلت سميرة منذ افترقا. ربما لم ينتبه المشحون بسخطه إلى الفارق علـــى الفور، لكنه لم يلبث أن أدرك، دون شك، أنها لم تعد سميرة التي كانت. ولما بثّت عيناها التهم التي تحملها ضده منذ دخوله، فقد أغضى وترك لها هي أن تتكلم، فأدركت هي أنه لم يتبدل، إنه يتجنب الإفصاح عـــن شيء قبل أن يتيقن من اتجاه الريح. فأعطته أول هبة وتوخت أن تكـــون ممـــا يحرق: هل وفقت في المهمة التي كلفوك بها، المهمة التي بســـببها نجوت من الحصار. فتردد للحظات، ثم جرّب وسيلته العتيقة: نعـــم، كانت مهمة وقد أديتها، أما الذين حاولوا تشويه سمعتي وأسمعوك كلامـــاً غير هذا فهم المتخاذلون الذين استاؤوا لأننا طالبناهم بالصمود ورفض وقف إطلاق النار. قال هذا، ثم أضاف ممعناً في المكابرة: لماذا تكلمينني أنـــا زوجـــك بهذه اللهجة. وأعطته هبةً أخرى: لماذا؟ سألت بـــازدراء وشفعت السؤال بنظرة صبتها في عينيه كأنها تبصق عليهما. ومـــا أن هـــمّ بقول شيء حتى لجمته بحزم: كنتُ هناك وأنا أعرف كل شيء. ثم ساقت الوقائع التي عرفتها.

توقعـــت أن يرغـــي ويزيد، أن يظل ممعناً في المكابرة. كل مزايد يكابـــر إذا أخـــذ بالوقائع. غير أن أبا الملاحم بقي صامتاً. لعله حسب حساب العواقب فلم يشأ أن يستفز سميرة زيادة على ما هي مستفزة، أو لعله تصور أنها ثورة زوجة ستأخذ مداها ثم تنطفئ. ولم ترحمه سميرة حـــتى فـــي صمته، لقد صممت على أمر ولابد من حسمه دون إبطاء. حـــياتهما المشتركة لم تكن متينة النسيج في أي وقت، قالت، وفي الفترة الأخـــيرة تقطعت الخيوط ولم يبق إلا الخيط الورقي ومن اليسير قطعه، واقترحت أن يقطعاه دون ضجيج.

هــل فوجــئ أبو الملاحم بطلبها الطلاق؟ السؤال الذي خرج به من صمته يوحي بأنه فوجئ: لماذا؟ ما السبب؟ أما هي فوضعت في حسابها أنه يراوغ ليثنيها عن عزمها، ولم تشأ أن تترك فسحة للجدل: لم يبق ما يجمعــنا معاً. اكتفت بهذا الإيضاح، لكنه هو لم يكتف: خالد هو السبب، كنــت أسمع وأكذب، أقول سميرة ابنة أصول وهي لا تخون، عليّ الآن أن أصدق كل ما سمعت. ما الذي رمى إليه بفتحه هذا الملف؟ هل كان غــيوراً حقاً هو الذي لم يظهر أي غيرة في أي وقت؟ هل ما زال يأمل فطمــع في أن يسمع منها نفياً، أو أنه يئس فرماها بما اعتقد أنها التهمة الشــنيعة؟ طافت هذه الأسئلة بذهنها، لكن عزمها على الخلاص لم ينثن وإصــرارها علــى تجنب الجدل لم يهن: حتى لو لم أعرف خالد، كنا سنصل إلى هذه النتيجة.

ويــبدو أن أبا الملاحم أدرك في نهاية المطاف أن الأمر مبتوت فيه مــن جانــبها، وبــدل أن يستسلم عاوده تأثير طبعه: لا أقبل أن أتركك ترتميــن فــي حضــن هذا المتخاذل، ألم يكف أنه وقف في مقدمة من شجعوا على القبول بالاتفاق ولم ينبس بكلمة واحدة ضد الشروط المهينة التي فيه. صار أبو الملاحم، إذاً، يرغي ويزبد فعرفت سميرة أن أصعب لحظــة في المواجهة معه قد انقضت، وأمكن أن تصغي إلى بقية كلامه دون أن تــنفعل، خــالد الــذي تعمد إغواءها لينتقم منه هو زوجها لأنه يفضح آراءه الاستسلامية، خالد المفرّط بأرض شعب فلسطين وحقوقه، القابل بالتسوية السياسية، المنكر لأهمية الكفاح المسلح، خالد الذي كل ما فــيه هــو من هذا القبيل. وما أن أتم المأزوم إفراغ ما في جعبته حتى كــررت هي طلبها، إما أن يتم الطلاق دون ضجيج وإما أن تطلبه هي علــناً. وحيــن تــراءى على صفحة وجهه السؤال الذي دار في ذهنه،

اســتبقت هي تفوهه به وقالت بلهجة باترة: سأعلن أني أرفض أن أظل زوجة لرجل جبان.

لـم تطـب لهـا الإقامة في دمشق، ليس لأنها لا تحب هذه المدينة، فدمشـق هـي مديـنة طفولتها الأولى وليس فيها ما تنفر منه، بل لأن روحهـا ظلـت مولّعة بالمدينة التي أبعدت عنها. وما أن علمت أن أبا سـمير وصل إلى دمشق حتى هرعت إليه، لم تنتظر أن يتصل هو بها بـل ذهبت هي إليه حتى دون اتصال. وكان أبو سمير قادماً من المدينة التـي تتوق هي إليها ومعه الأنباء. ستسألينني عن خالد، حزرتُ؟ عن خـالد والآخرين، أجابت. فأرجأ أبو سمير حديث الآخرين وحدثها عن خالد وما هو فيه.

صـمد وقـف إطلاق النار حتى تلك اللحظة. وصار على الفدائيين الذين أوجب الاتفاق خروجهم من البلاد أن يستعدوا للمغادرة. أما خالد فقد عزم على البقاء فضموه إلى واحدة من اللجان المشتركة التي تشرف علـى تنفـيذ الاتفـاق وفي هذا ما يوفر له حماية يحتاج إليها المخاطر بالـبقاء. وإذا رغـب خـالد فـي أن يظل هناك بعد انتهاء عمل لجنته فالفرصـة متاحة، بل إن هناك أكثر من فرصة واحدة. فقد أباح الاتفاق بقـاء المؤسسـات الفلسـطينية التي تقدم خدمات للجمهور، المستشفى، العـيادات، الإدارة المالية، والإدارة التي ترعى أسر الشهداء، وما إلى ذلـك، وبالإمكـان إلحاق من يشاء بواحدة منها. كما أباح الاتفاق بقاء وحدات من الفدائيين المسلحين على أن تتمركز في منطقة التلال القريبة مـن حـدود الأرض المحتلة، خارج المناطق المأهولة، ولخالد فرصة مواتـية، هو الذي طالما دعا إلى أن يتركز نشاط الفدائيين المسلح ضد مواقع المحتلين وحدهم.

ولمـــا لم تطلب سميرة مزيداً من الشرح، فقد صمت أبو سمير دون يبدو أنه قال كل ما يود قوله. كان كمن ينتظر التشجيع، إلا أن سميرة لم تشـــجعه لأنها حزرت. وحين تكلم، احترم ما رأى أنه رغبتها في طيّ موضـــوع ذي حساسية، فلم يتطرق مباشرة إلى هذا الموضوع، بل قال إن حياتها الشخصية ملك لها وحدها وليس من حق أحد أن يتدخل فيها، وعليها ألا تهتم إذا سمعت ما قد يسوؤها.

كانت، في الواقع، تهتم، لكن ليس إلى الحد الذي تصوره من جعلها تفهم أنه يساندها. ولكي تطمئنه، قالت له إن أصعب ما في الموضوع قد انقضـــى وصارحته بأنها تتطلع إلى مستقبلها مع خالد. ومع أبي سمير، رتبت سميرة أمر عودتها إلى المدينة التي بقي خالد فيها. لقد أبعدت عن المديـــنة بوصـــفها كويتية باسم غير اسمها، فكان من المتيسر، إذاً، أن تعود دون موانع. وزودها أبو سمير بقرارين، واحد يسميها مسؤولة عن إدارة العلاقـــات العامـــة في المستشفى، وثانٍ سري يسميها عضواً في اللجنة التي كُلّفت إعادة بناء التنظيم في المدينة.

وفيما خالد الذي رجعت إليه بأسرع مما توقع يحتضنها، همست هي فـــي أذنـــه: صـــرت مطلقـــة، فشدّها إليه بمزيد من الشوق وامتزجت الـــروحان في قبلة طويلة. وحين تمددا أحدهما في حضن الآخر، طاب لهـــا أن تمازحه، يتهمك أبو الملاحم بأنك أغويتني فهل الاتهام صحيح. وضـــحكا. إذاً، لقد صار الزوج زوجاً سابقاً، جزءاً من ماض انقضى، وصار بإمكانها أن تتذكره دون ضغينة. لقد خرجت منه.

يومهـــا، تـــداولا أمر المكان الذي سيقيمان فيه معاً. لم يكن لديه هو مـــنزل يقيمان فيه فقد كان يبيت، كعادته منذ التحق بالعمل الفدائي، في المكـــان الـــذي يعمـــل فـــيه. وكانت هي تخشى أن يطالب أبو الملاحم

بالمــــنزل الـــذي تقـــيم هـــي فيه بما هو منزله وترى أن هذا من حقه. واستعرضا احتمالات شتى تعذر البت في أي منها. البت في أمر الإقامة كـــان يتطلـــب اســـتقرار الوضـــع المحيط بهما، فكيف يبتان والوضع مضطرب وآفاق تطوره كلها غامضة!

بالرغم من الافتقار إلى الاستقرار، ما كان أحلى الأيام التي قضياها معـــاً! لقـــد تمتعت سميرة بكل لحظة، ولم تحس بإنسانيتها في أي وقت بمقدار ما أحست بها في ذلك الوقت القصير. وتلك كانت هي أسعد أيام عمرها وأدفأها وأشدها حميمية.

كانت تذهب إلى المستشفى مبكرة، فتعمل، وتلتقي الرفاق الذين وفر المستشـــفى غطاء لاجتماعاتهم، وتقوم بما يلزم من اتصالات، ثم تعود إلـــى المنزل قبيل المساء. ولأن ناس المدينة التي لم يبارحها الرعب قد خضعوا لعادة الإيواء المبكر إلى منازلهم وتجنب الخروج في الليل فإن خـــالد لم يكن يتأخر في العودة، والليالي كانت بطولها ملكاً خالصاً لهما معـــاً، للمناجاة، للحوار الذي يقربهما الواحد من الآخر، ولأي شيء من هذا القبيل.

روت لخالد وقائع حياتها كلها حتى أدق التفاصيل وأعمق الأسرار، ونقلت إليه خلجات نفسها وهسيس أفكارها وكل ما خطر ببالها. وعرفت وقـــائع حياته، التفاصيل والأسرار والمباذل، وانتقل إليها خلجات نفسه وأفكاره وخواطره. كانا ينسيان كل ما يمضّ ويتحللان من أي حرج ما أن يخلـــو أحدهمـــا للآخـــر ويستسلمان للرغبة في البوح، وكان لديهما الوقت.

لـــم تنشـــغل ســـميرة في التفكير بشكل علاقتها بخالد. كيف ينشغل بالشكل من يشغله حبّ أعمق من أي شكل وأوسع وأعظم. لم تكن شقية

قبل خالد، بل كانت معدودة في السعداء. أما معه فما أشد ما اختلف معنى السعادة، الحياة الرتيبة أو الحياة المتوقدة، هذا هو الفارق الذي ميّز معنى عن معنى. عملها في المستشفى والانهماك في مشاكل الناس، التنظيم وبناؤه، الإخفاق والنجاح، والأخطار المحدقة والتحوّط لمواجهتها. مضايقات السلطة والهواجس إزاء سلوكها ونواياها وحماية الرفاق من عقابيلها، والرفاق ومصاعب عيشهم وتوفير الوسائل ليتغلبوا عليها. كان الجهد الذي تبذله كل يوم ينهكها، وكانت تعود إلى المنزل وهي مستنزفة، إلا أنها كانت في المساء تتجدد، كل مساء، وفي الصباح تتألق من جديد، كان الجهد يتلفها فينشطها الحب الذي يحثها على بذل مزيد من الجهد، وكان هذا يسعدها.

شحذت سعادتها في الحبّ ذكاءها وقدرتها على اكتساب الخبرة والابتكار، وقوّت حرصها على إتقان ما تعمله كما قوّت قدرتها على الاحتمال. وفي زمن النكسات، حين يصير على أحد ما أن يصون ما بقي مما خرّبه الآخرون، تلعب المزايا الشخصية دوراً حاسماً. وقد أدركا، خالد وهي، هذه الحقيقة وتواصيا بالعمل بما تفرضه. كانت في زمن نكسة وكان عليها أن تقوم بأعباء من انتكسوا، فصار من الضروري أن تجلو مزاياها وتعد نفسها لأثقل المهام.

كثر الذين أخرجوا عفن الصناديق، والذين تحوّلوا من طرف إلى نقيضه، والذين أحلّوا محل التفاؤل الأحمق تشاؤماً أشدّ حمقاً. كثر الذين خلعوا جلودهم دون أن يقرّوا بعريهم. وصار على سميرة أن تعوض بجهدها ما خسره التنظيم منذ كف هؤلاء وهؤلاء عن بذل أي جهد، كما صار عليها أن تتصدى لأذاهم في زمن تكاثرهم. والواقع أن الذين انتكسوا لم يتركوا سميرة أو أحدا غيرها في سلام. فالتردي في زمن

الانتكاس غالباً ما يقترن بالتبجح، والفشل غالباً ما يولد الحاجة إلى لوم الآخرين.

وما أكثر ما تحاورت مع خالد بشأن هؤلاء. كان هو يرى أنهم في كرنفال لا تتبدل فيه الأقنعة وحدها، بل تتبدل أيضاً الجلود حتى وهي مقرحة. وكان يحث سميرة على أن تنشغل بمن بقيت جلودهم سليمة بدل الانشغال في معالجة القروح التي لن ينفع فيها أي علاج. للماء العكر ديدانه وللأيام العكرة الديدان وما هو أقذر منها. وفي مذهب خالد أن صيانة الماء النقي أجدى من إضاعة الوقت في تنقية العكر. ورأت هي كيف سهل على خالد أن ينأى بنفسه عن العكر ما دام غير مكلّف بإعادة بناء التنظيم ومعالجة مشاكل الناس اليومية، أما هي فلم تستطع تجنب الأمواج صافياً كان ماؤها أم عكراً. كان التلون يدهشها والنذالة تسخطها. وكانت متحمسة لإصلاح العوج. انغمست في اللجة، وأحست بأنها قوية، فلماذا تتغاضى كما يريد خالد، لماذا تغفر، ولماذا يتوجب عليها أن تختبر ماء كل موجة قبل أن تقفز لإنقاذ أي غريق. الجدل المزمن بين المتمرس والمستجدة، وقد خاضته، متفقة مع خالد أو مختلفة عنه، وتعلمت منه. وفي هذا النحو، أيضاً، اشتد امتزاج الشخصي والعام في حياتهما.

وذات مساء، جاءها خالد بالنبأ الذي كانت تتوقعه، غداً سيرحل الفدائيون عن المدينة، تمت الاستعدادات واكتملت ترتيبات الرحيل. ومع هذا النبأ، باح خالد بما لم تكن قد توقعته، سيرحل هو الآخر قريباً، ليس إلى خارج البلاد كما هو شأن الراحلين في الغد، بل إلى التلال حيث سيتمركز الذين أبيح لهم البقاء. أوكلت إلى خالد من جديد مسؤولية قيادة مقاتلين. ولم يعرف هل سيؤذن له بالمجيء من هناك إلى المدينة، ولم

يشأ أن يناقش هذه النقطة مع ممثلي السلطة خشية أن يقولوا: لا، فيتعذر تبديلها أو خرقها.

وقفت سميرة مع خالد ليشهدا موكب رحيل الراحلين. كانت الهزيمة العسكرية قد حلت قبل ذلك، أما في يوم الرحيل فاكتمل الإحساس بها. ومضى الموكب ببطء كأنه جنازة. لماذا لا تسير الجنازات إلا ببطء، أليس لأن الراحل يؤثر البقاء. وهل كانت قليلة الأسباب التي جعلت الراحلين يومها يتمنون البقاء في المدينة لو منحوا حق الاختيار. وبعد أيام قليلة، ودعت سميرة خالد والمقاتلين المنتقلين إلى التلال.

خلت المدينة من الفدائيين ففقد ناسهم الباقون فيها جدار الحماية. وخلا الجوّ للسلطة فاشتدت قبضتها. وصار وضع سميرة صعباً. وازدادت صعوبة وضعها منذ عينت السلطة إدارة جديدة للمستشفى وأوكلت إليها كنس نفوذ الفدائيين عنه.

نصحت سميرة بأن ترحل هي الأخرى. قال الرفاق إنها لن تتمكن من العيش وحيدة في ذلك الجو وإن فرص نشاطها السري ضاقت. وحاولوا تليين رفضها فقالوا إن بإمكانهم تدبر الأمور بدونها. وأغروها بأنها ستجد ما يمكن أن تفعله لمنفعة القضية في أي بلد آخر من البلاد التي حل فيها الفدائيون. وحذروها من أن يد السلطة صارت أقدر على الفتك، وقد تفتك بها لأتفه الأسباب أو حتى بدون سبب، فلماذا المجازفة. ولكن سميرة تشبثت بالبقاء ووجدت لكل قول قولاً يدحضه. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تعيش فيها بمفردها. ولئن أمكن تدبر الأمور حقاً بدونها فإن هذا لا يعني أن ما تقوم به غير مفيد. أما إذا كانت الفرص متيسرة في بلاد أخرى، فلماذا لا يرحل ناصحوها أنفسهم إليها. قبضة

السـلطة؟ أين هي السلطة الرحيمة حين يتهدد وجود الفدائيين سطوتها. وخالد؟ لماذا يغفلون رغبتها في أن تظل قريبة منه.

طوى الرفاق نصائحهم ودبروا للباقية معهم عملاً يسوغ أمام أجهزة السلطة بقاءها؛ اختاروا لها العمل في مؤسسة رعاية أسر الشهداء. وقد انطـوى هـذا الاختـيار على حصافة، فيد السلطة، على شدتها، ظلت مغلولة إزاء مؤسسة ترعى أسر الذين استشهدوا، وعمل سميرة في هذه المؤسسة بالذات وفر أحكم غطاء لنشاطها السرّي. وتوزع وقت سميرة بيـن عملهـا المكتبي وبين الزيارات التي تقوم بها للأسر الموزعة في أرجاء المدينة كلها والاتصالات السرية التي تجريها أثناء هذه الزيارات. وصار العمل يستغرق نهارها كله. وكانت ترجع في المساء إلى المنزل الـذي لم يطالب أبو الملاحم به خلافاً لما توقعت، فتجلس وحيدة، تقرأ، وتفكـر، وتعدّ عمل نهارها التالي، وتستعيد الذكريات وتحلم، هكذا كل نهار وكل ليلة.

امـتد غـياب خـالد أسبوعين. غاب وغابت أخباره، ثم ظهر فجأة أمامهـا فـي مكتبها. قال إنه لا يملك غير ذلك النهار، وقد ضاعت من نهاره بضع ساعات حتى اهتدى إليها ولم يبق سوى ساعات قليلة. وفي المـنزل، فـيما هو يتلذذ بما قدمته له، أقر خالد بأنه لم يأكل في التلال سـوى المعلـبات؛ يقيمون في مكان منعزل، والأهالي لا يقتربون ولا يرحبون باقترابهم هم منهم. ربما تبدلت المشاعر إزاء الفدائيين وربما لم تتـبدل. أمـا الظـروف التي كان المواطن يجهر فيها بتأييده للفدائيين ويـتقرب منهم فقد انقلبت رأساً على عقب. والناس متهيبون، يتوقعون تجـدد الاشـتباكات بيـن السلطة وبين من بقي من الفدائيين ويحسبون حسـاب العواقـب. وكان في رأي خالد أن الناس لن يستاءوا إذا رحل

الفدائـــيون عن التلال. ومن الذي يستاء إن نزع من جواره لغم مزروع فيه!

وصـــف لهـــا وضـــعهم في التلال. ووصفت له وضع التنظيم في المدينة. وأسعدها أن كان لديها جديد تقوله حتى وان اشتمل جديدها على أشياء لا تسعد. وصارحته بالمشقات التي يكابدونها وهم يعملون لإعادة بـــناء التنظـــيم، وكان أشق ما واجهوه هو حمل الرفاق على التواؤم مع الوضع المستجد. ألفوا العمل العلني، في حماية الوجود المسلح وشعبيته التي كانت واسعة، وما أصعب حملهم على تبديل ما ألفوه! أرجو أن لا تيأسوا، بثّ خالد أمنيته فيما هو نفسه عاجز عن التفاؤل. كان يرى كيف تتابع السلطة اجتثاث جذور العمل الفدائي، مدنيِّه مثل عسكريِّه، ويخشى أن تفلح. والأمل؟ سألته، الأمل مرهون لما تفعلونه، أجاب، لقدرتكم على الاحتفاظ بالوقدة ولو تحت الرماد، ولن تبقى أي وقدة إلا إذا نجحتم في بناء تنظيم يصونها.

أصغت إليه بانتباه وأسيت لرنة الأسى التي تكسو حديثه. وأدرك هو أنه أفرط في الإثقال عليها فانعطف بالحديث في المنحى الشخصي، هل هـــي نادمة لأنها تركت أبا الملاحم؟ وكان هذا سؤالاً لم تتوقع صدوره عنه هو بالذات، لماذا الوسواس الذي لا لزوم له، قالت له هذا، فاستدرك هو، إنه يسأل عن شعورها بعد أن فقدت الجو المريح، ويخيّل إليه أحياناً أنـــه أفســـد حـــياتها أو ساهم في إفسادها، ويحسّ بالمسؤولية. وقطعت وسواســـه بقول باتر: لم تسعد في حياتها كما هي سعيدة معه. قالت هذا وقامـــت إلـــيه ووقفت خلفه لتحتضن رأسه كأنما لتحميه من الوساوس. ووجـــدت نفسها تسأله هل يريد أن يصير زوجاً وأباً. وتلقت إقراره بأنه ظـــل يفكر في الأمر منذ افترقا، وكلما خلا في التلال إلى نفسه حضر

هــذا الأمــر بالذات: متى سيتاح لهما أن يتزوجا ويستقرا ويخلفا بنات وبنين.

غياب خالد التالي امتد شهراً بطوله. وصارت هي تتصيد أخباره في التقارير الإعلامية التي تصف ما يجري في التلال، أو كان يجيء إليها أحياناً من يحمل تحية منه ورسالة وجيزة. ولم تكن الأخبار مما يطمئن. فقــد اســتأنف فدائيو التلال عمليات التسلل عبر الحدود لمداهمة مواقع إســرائيلية، فــتوترت العلاقــة مــع السلطة بأكثر مما هي متوترةً في الأســاس، واضــطرد توتــرها مــع اضطراد العمليات التي أوجعت الإسرائيليين. وفي زيارته التالية، الزيارة التي فاجأتها مثل سابقتها، كان أمــام خالد وسميرة يوم بكامله يقضيانه معاً، نهار وليلة، حتى لقد أحسّا بالارتواء وأقر كل واحد منهما بالفضل للآخر وكاد يشكره.

ورســم خــالد لسميرة صورة الوضع في التلال ومخاطره، الجيش الذي فرض على مواقعهم حصاراً غير معلن والاشتباكات التي وقعت، مــا وقع لأسباب طارئة وما وقع بنية التصعيد، والعراقيل التي تضعها السلطة أمام المتسللين إلى الأرض المحتلّة. وتحدث عن عمل الوسطاء الذين تدخلوا والتنازلات التي فرضت على الفدائيين في كل مرة. وأوجز الموقف: وضعنا لا فكاك منه.

وفي لحظة الوداع، هذه التي أجّلاها حتى لم يبق أي فسحة للتأجيل، جذبها إليه بقوة وشدّ جسدها بذراعيه ثم احتفظ به وهو ساكن، كأنه يأبى أن يفارقهــا. هــل خشي أن لا يلقاها ثانية؟ لقد هجست هي بشيء لكن الهاجس غاب وهي تستجيب لدفــء حضنه وتأبى أن يشغلها شيء عنه. وفي هذا الوضع، فيما جسداهما متحدان، قال هو بلهجة من يختم حديثاً

طال أمده: في زيارتي القادمة سنحتفل بزواجنا. ولم تفه هي بشيء، بل منحته موافقتها هزة رأس وابتسامة وبريق عينين وقبلة. وبعدها لم تره.

احتجز خالد في التلال. ولم تجيء الأنباء إلا بما يقلق. أتم الجيش حصاره وشدده، وراح يهاجم مواقع الفدائيين كلما توفرت الذريعة، ثم صار يهاجم بغير ذرائع. وانتهى الأمر بعد شهور إلى حصر فدائيي التلال كلهم في موقع واحد على تل واحد. وصار اسم خالد يتردد كثيراً في الأنباء بوصفه القائد الذي يتحصن هو ورجاله في الموقع ويأبى الاستسلام.

وكان وضعهم في المدينة يسوء أكثر كلما تفاقم الوضع في التلال. وكما داهم جيش السلطة مواقع الفدائيين واحداً تلو آخر، تولت شرطتها قمع أي تعبير عن التعاطف معهم، وطاردت مخابراتها التنظيم وفتكت بمعظم حلقاته، الواحدة تلو الأخرى، أيضاً.

وعندما سقط على سميرة نبأ سقوط الموقع الأخير في التلال، صار عليها أن تتوارى عن عيون السلطة بأعجل ما تستطيع. ولأنها كانت قد أعدت عدتها لمثل هذه الطارئة، فما أسهل ما انتقلت من منزلها إلى منزل باسم. وباسم هو عضو في التنظيم حصرت سميرة صلته التنظيمية بها وحدها لتمنع انكشاف أمره. وكان أبواه ذويّ خبرات عتيقة في العمل السري وغير ثرثارين، فصار منزل هذه الأسرة هو آمن ملجأ تأوي إليه. ولأن إذاعة الفدائيين جزمت أن خالد أسر وهو حيّ ولأنها تعرف خبراته، فقد حزرت أنه سيبذل ما بوسعه ليتصل بها. ومن هنا وافتها الفكرة: تكليف باسم التردد على جيران منزلها وتنسم الأخبار. وباسم هو الذي أحضر لها رسالة خالد التي نقلتها زكية، وهو الذي كلفته أن يتحرى سيرة الحارس وقريبته.

ومــنذ تلقــت الرسالة، وقبل أن يتحرى أيما أحد أي شيء، شرعت سميرة في كتابة إجابتها؛ افتقدت الحوارات الحيّة، وصارت تحاوره في خـيالها، فلمــاذا لا تحاوره على الورق حتى لو تعذر أن يبلغه الحوار. والواقع أنها كتبت ما عنّ لها، ثم راحت تعدل أو تضيف جديداً كل يوم، وأحــياناً كل بضع ساعات، أو حتى كل ساعة. وفي ليلتها تلك بالذات، بعــد أن عرفت أن رسالتها قد تأخذ طريقها إلى خالد غداً، أضافت آخر ما نقله باسم إليها مما يتهامس به الرفاق المشتتون. وقد شاع بين هؤلاء أن القــيادة الموجــودة خارج البلاد نظمت حملة ضغوط واسعة لحماية حياة خالد وإن أبا سمير يشرف على الحملة.

وفيما هي في حجرتها واصطخاب أفكارها يحرمها النوم، حاولت أن تقنع نفسها بأن خالد سينجو هذه المرة أيضاً كما نجا في كل مرة، ولكنها لم تستقر على يقين. كانت تستحضر الأسباب التي ترجح احتمال نجاته فتحضر الأسباب التي تنفيه. ولجأت مرة أخرى إلى المذياع لعله ينجيها هــي مــن صــخب رأســها فصرفها عنه انصراف محطاته إلى ما لا يجتذبها. وأمسكت كتاباً ثم نحتّه لأنها عجزت عن التركيز. وتاقت نفسها إلــى فــنجان قهوة، لكن أنّى لها أن تذهب إلى المطبخ وتبحث عن البنّ والأدوات دون أن تــزعج النائميــن! ترى هل يحصل خالد الذي يحب القهوة على قهوة في السجن؟

استحضــرت صورته، وأطبقت جفنيها عليها، وفكرت: سيتكرر ما وقــع كل ليلة ولن تنام قبل الفجر. وتشبثت بالصورة التي يطبق عليها جفــناها إلى أن غلبها توقها إلى تدخين سيجارة. ومع أول نفس، اهتدت إلى ما يمكن أن تفعله في بقية الليل: أن تكتب الصيغة النهائية للرسالة. وهذا هو ما شرعت فيه.

5

أتـــاه ســـعال أبي محمود الذي يؤذن بأنه منصرف فعرف خالد أنها الثانـــية بعد منتصف الليل. ولما لم يكن قد نام بعد، فقد حاول أن يغفو، غـــير أن هواجسه لم ترحمه، هل سيجيء شيء من سميرة، هل تسلمت رســـالته، مـــاذا جرى لها؟ الهواجس المتكررة. ومع الهواجس، قرصه الجوع، فعبثت أصابعه بصرة الطعام، ثم فطن إلى أنه أكل في ذلك اليوم مرتين وهو بحاجة إلى الإقتصاد.

فـــي الـــتلال، اضطرب وصول التموين حتى قبل أن يحكم الجيش حصـــاره. لكنهم كانوا يخزنون تموينا احتياطيا ويعوضون النقص. فلما تعـــذر وصول أي شيء إليهم مع إحكام الحصار، اضطر إلى الإقتصاد ورضي رجاله بالقليل. والواقع أن نفاد التموين لم يكن هو الخطر الذي تهددهـــم، فقـــد ظـــل بالإمكـــان تدبر ما يقيم الأود بما يقعون عليه في محـــيطهم. أما الخطر، كما هو الحال في أي مكان حوصر فيه، فتجسد في احتمال نفاد الذخيرة. ففي نفاد الذخيرة كانت تمثل النهاية.

عزلهم الحصار وقطّع صلاتهم، ولم يبق سبيل للاتصال بالخارج إلا اللاســـلكي. وكـــان لديهـــم جهاز واحد لا بديل له، ولو تعطل أو نفدت البطاريات لاستحكمت عزلتهم كما استحكم الحصار.

في هذا الوضع، صار الاحتفاظ بالمعنويات مهمة شاقة. بذل جهده، واتكأ على خبرته، لكنك لا تصنع النسيج بمجرد أنك تتقن غزل الخيوط. وكـــيف تظل أي معنويات على حالها إذا تضافر على الفتك بها الجوع

والعزلة وفقدان الإحساس بالأمان. كان الذين بقوا معه في الموقع الأخير من المقاتلين المتمرسين، ممن عركتهم اشتباكات الشهور السابقة وتوفرت لهم الخبرة والقدرة على احتمال المشاق. غير أن الوضع تجاوز كل ما تدربوا عليه أو خبروه. ولم يشأ أن يخادع الذين أنيطت به مسؤولية مصيرهم. ولماذا يخادع، وكيف تمكن مخادعة الذين يعرفون ما يعرف.

قيل له: لماذا لا نستسلم، فأجاب بما فكر فيه مراراً: الإستسلام لا يعني النجاة، خصوصاً إذا استسلمنا دون اتفاق تبرمه السلطة مع القيادة، والسلطة لا تعرض إلا أن نسلمها أنفسنا فرادى. وقيل أبقينا وحدنا فلماذا نبقى، أمن أجل أن يتاجر المزايدون برؤوسنا، وقيل، وقيل، وكان يجيب ويجيب، لكنه لم يملك مخرجاً، ما دام الذين يحاصرونهم لا يعرضون عليهم مخرجاً مأموناً والقيادة التي أمرتهم بالثبات لم تبدل ما أمرت به.

نبت التذمر كما ينبت الفطر السام دون أن يستنبته أحد، وترددت المعنويات. ولم يجد هو مما يوقف التردي سوى أن يجعل من نفسه قدوة في رباطة الجأش. ولئن اتفق هذا مع طبيعته وتأثر به من لهم الطبيعة ذاتها، فإنه لم يكفِ للتأثير على الآخرين وطيّ أسباب تذمرهم. وفي داخله، أقر خالد بأن من يتذمر من رجاله لا يلام، الإنسان ليس آلة بلا مشاعر، حتى الآلة يلحق بها العطب، أليس اليأس عطباً، وكيف لا يحل اليأس مع تفاقم الخطر وطول المعاناة وانسداد المخارج! ومع إقراره بهذا، ظل عليه أن يواجه استشراء روح اليأس ويلجم نوازع التذمر. وما كان أثقل ذلك الواجب: أن يصير الوفاء بما تلزمك مسؤوليتك به مخالفاً لقناعتك!

كانـــت تلك هي أشق أيام حياته، وكان أشقها على الإطلاق هو اليوم الأخـــير. فمـــع أول ضـــوء في فجر ذلك اليوم، أحدث الجيش شقاً في الحصـــار، ثغـــرة بمثابة بوابة ينحدر عابرها في الطريق المفضي إلى الحـــدود. وحيـــن أيقظـــوا خالد ليبلغوا إليه النبأ، لاحظ أن الآخرين قد اســـتيقظوا، وإذاً، فقـــد الـــتقط الجمـــيع المغزى. أن يدفعوا دفعاً ناحية إسرائيل، هذا هو ما توخاه فاتحو الثغرة، على أن يبدوا وكأنهم توجهوا إلـــيها بأنفســـهم لـــيقال إنهم أبوا أن يستسلموا لجيش بلد شقيق وآثروا الارتمـــاء في حضن العدو، وهذا هو ما رسم لهم: أن يدمغوا بما يلوث شرفهم.

طلـــب خـــالد مـــن عامل اللاسلكي أن يصله بالقيادة ووقف بجانبه. وأدرك عـــبد الفـــتاح عامل اللاسلكي الفطن أهمية الوقت، فحاول وثابر علـــى تكـــرار المحاولة ولم يرد أحد. نائمون، قالها عبد الفتاح وهو لا يخفـــي دهشته، كيف ينام الموكلون بالاتصالات في مقر القيادة! ويئس خـــالد، هجس بأن صمت الطرف الآخر ليس النوم هو سببه، لكنه كتم هاجسه وغادر مكمن عبد الفتاح دون أن يطلب منه الكفّ عن المحاولة. لقد تحوط ضد الزلل، فربما كان هاجسه صادقاً فعلاً لكنه ربما كان غير صادق.

توجـــه خالد إلى ركن في الموقع لا تطاله بنادق الذين يحاصرونه، ووافـــاه معظم رجاله، وتشكلت حلقة احتدم فيها الجدل. إلى الحدود، فلم لا؟ نقـــاتل حتى الاستشهاد، أليس هذا أشرف من انتظار الإبادة في هذا الموقـــع اللعيـــن؟ رفع رجل في الحلقة هذه الحجة وهو يتقدم نحو خالد ويقف إزاءه وجهاً لوجه. هذا كلام فارغ، الذين فتحوا الثغرة يعرفون أن جـــيش إســـرائيل في الانتظار، وما من أحد سيتيح لك شرف الاشتباك

معه. هكذا رد خالد. وأفرز الجدل جماعتين، التفت إحداهما حول خالد، وتجمعت الأخرى حول الرجل الذي كان أول من جادله.

لنرحل! هتف ذلك الرجل بجماعته، حتى لو ألقت إسرائيل القبض علينا فهذا أرحم من الشقيق الذي يتهيأ لذبحنا. وبهذا، ألقى رجل العازمين على الرحيل بيت قصيدهم. لن يمنحوك حتى شرف الأسر، سيعلنون أنك لجأت إليهم فاراً من قسوة اشقائك العرب عليك، وسيستثمرون الحكاية للإساءة إلى الجميع، لقد فعلوها من قبل، فهل نسيت، بهذا رد خالد، ثم قطع حبل الجدل: هذه هي أوامري، نثبت حيث نحن كما هي تعليمات القيادة إلى أن تجيء تعليمات جديدة.

قال خالد يومها هذا الذي قاله وهو يدرك كم هي ضعيفة حجته، فلو كان لهؤلاء ثقة بالقيادة لما تذمروا فما جدوى التعلل بأوامرها حين يحلّ اليأس. ولو لم يخشوا أن يفتك محاصروهم بهم إن استسلموا لهم لما اختاروا الطريق الآخر. لنطلق النار على الفارين، هتف شاب مهتاج، نحن في معركة والفار تطلق النار عليه. لم يكن قرص الشمس قد برز بعد إلا أن النور ملأ الجوّ وكشف تعابير الوجوه: يائس يعلل نفسه بالأماني، ويدعو إلى إطلاق النار على يائس نفد صبره، ويتكئ في دعوته على حجة قانونية، فأي تعابير كان يمكن أن ترى على الوجود الممرورة وأي قانون كان يجيز ارتكاب مجزرة. لن آذن بأن يفني بعضنا بعضا، هكذا أعلن خالد رفضه اقتراح الشاب المهتاج الذي لم يؤيده على كل حال أحد.

كان العازمون على الرحيل يائسين إلى حد شنيع، حل بهم اليأس لأسباب لا يجوز انكارها، ولم يكن لديه هو قائدهم ما يعالج يأسهم، فكيف يدينهم، ألم يكن هو نفسه يائساً حتى وهو يجاهد ضد السقوط في

القاع؟ لو نفد صبر رجل واحد، لو انطلقت رصاصة واحدة، لوقعت مجزرة. وصار على خالد أن يحكم السيطرة ليس على مشاعره هو وحده، بل على مشاعر الباقين معه. ولأنه لم يهتد إلى ما يلجم انفلات المشاعر، فقد أصدر أمرا حازما بالعودة إلى المكامن، ووقف هو في مكان يشرف على الجميع، أحاط القراصنة بالسفينة، فرمى بعض بحارتها أنفسهم في اللجّ، فليثبت هو مع الباقين حتى يواجه الخطر بكرامة.

مضى الراحلون دون أن يودعوا رفاقهم، وراقب خالد إنحدارهم بخطاهم الكليلة فلم يحتمل المتابعة، فاستدار ليجد نفسه في مواجهة قرص الشمس الذي برز للتو من وراء التلال. وفيما الصمت مطبق على الموقع كلّه تلألأت في عينيه حبات دمع.

وما أن عبر آخر الراحلين الثغرة حتى انتهكت مدفعية الجيش صمت المكان. وبعد المدفعية، داهم المحاصرون الموقع من كل جهة. وراح الرجال يدافعون عن موقعهم فيما هم يتساقطون الواحد تلو الآخر. ومن مكمنه رأى خالد رفيقه عبد الفتاح وقد بدا أن أحداً ما قد استجاب لجهازه. ولأن كثافة النار كانت تمنع التنقل فقد دار بين الاثنين حوار بالإشارات. وفهم عبد الفتاح أن عليه هو إبلاغ صورة الموقف إلى القيادة وطلب تعليماتها. وجاءت هذه التي طال انتظارها فكأنّ ما من شيء جاء: تترك القيادة لقائد الموقع حق تقدير الموقف وسلطة اتخاذ القرار. ولم يحتج خالد لغير هذا كي يدرك أنهم آثروا التنصل من المسؤولية. ولأن نذر نفاد الذخيرة توالت ولم يبق ممن لديهم ما يحشون به بنادقهم إلا قليلون، فقد أصدر خالد أمره إلى الجميع بالاستسلام، أصدره بصوت جهير.

لم يحص خالد عدد الذين استشهدوا أو جرحوا، لكنه أحصى الناجين وكانوا عشرة عصب الجنود عيونهم ودفعوهم إلى شاحنة قدمت لحملهم وحشدوهم في صندوقها. أما هو فحملته سيارة جيب فيها ضابط جالس بجانب سائقها ظل صامتاً فيما جنوده يحشرون أسيره في مقعد السيارة الخلفي ويحيط به اثنان منهم. وخيل لخالد أنه رأى وجه هذا الضابط من قبل، وحاول أن يتذكر من هو أو أين التقاه فلم تسعفه الذاكرة. ومن مجلسه في المقعد الأمامي، وجه الضابط الخطاب إلى خالد دون أن يلتفت إليه: ألم تتذكرني؟ ولما ظل خالد صامتاً، قال الضابط بحنق: من المفيد لك أن تتذكر، وذكره بنفسه. التقيا قبل ثلاث سنوات. وقتها، كان الأسير قائد قاعدة داهمتها قوة إسرائيلية برية فدافع فدائيوها عن أنفسهم وطال أمد الاشتباك، وكان الآسر قائد سرية للجيش مرابطة غير بعيد عن القاعدة، وقد ساندت السرية الفدائيين، وكانت تلك هي المعركة الوحيدة التي وقفت فيها وحدة من الجيش إلى جانب الفدائيين.

أصغى خالد وهو يفكر في دوافع هذا الضابط إلى استحضار تلك المعركة، بيضة الديك هذه، والمغالاة في وصف دور الجيش فيها، هل هو متبجح لاحت له فرصة الإدلال بشيء فعله ذات يوم أو هو موجوع ضمير يبحث عن ما يبرر ولوغه في دم الفدائيين؟ ولم يلبث أن أفصح الضابط عن دافعه بنفسه: ألا تسأل نفسك ما الذي جعلني أهاجمكم أنا الضابط الذي دافع في يوم من الأيام عنكم؟ ولم ير خالد أن يسأل نفسه أي سؤال، بل ظل صامتاً، وامتد صمته طيلة الرحلة التي نقلته هو ورفاقه العشرة إلى معسكر اللواء الذي حاصرتهم قواته. أما الضابط فتابع هذره غير آبه لصمت أسيره.

وفي المعسكر، حين أنزل خالد من الجيب، بحثت عيناه عن الشاحنة فوجد أنهم أوقفوها أمام مبنى غير الذي أوقفت عند الجيب، ورأى رفاقه والجنود يسوقونهم إلى داخل المبنى، وفكر: سوف يعدمونني في هذا المعسكر، وقد يعدمون البقية.

ولما صار داخل حجرة يتصدرها مكتب يجلس وراءه ضابط ذو رتبة عالية، استخلص خالد أنه إزاء قائد اللواء. وقد تلقاه هذا بزعيق فاجأت حدته حتى ضباطه أنفسهم: كل السلطة للفدائيين؟ ألم تهتفوا هكذا وأنتم تسرحون وتمرحون في مدننا دون حياء، ها؟ أين انتهيتم وأين هي شعاراتكم يا كفرة! نصفكم تفرق في بلاد الكفرة الآخرين ونصفكم وقع في أيدينا.

وكان في الحجرة ضابط آخر عالي الرتبة يجلس مسترخياً وقدماه ممدودتان أمامه. ويبدو أن صمت خالد أحنقه، أو أن ما أحنقه هو احتفاظ الأسير بكرامته. وفي لحظةٍ كفّ فيها قائد اللواء عن الزعيق، اغتنم الآخر الفرصة: أهذا هو بطلهم الذي استعصى في التلال، أليس هو الذي سلم نصفُ رجاله أنفسهم لإسرائيل واستسلم هو لنا مع البقية.

احتاج خالد إلى كل ما بقي من طاقته كي لا ينهار هو الذي أرغم على أن يظل واقفاً. وفيما الحاضرون يتبارون في قذفه بشتائمهم وسخريتهم، قدّر هو أن خير ما يفعله هو أن يظل صامتاً. كانت آلام روحه تعصره عصراً وحزمة سكاكين تتراقص في أحشائه، لكنه تشبث بأن لا يظهر عليه الإنكسار. تصور أنهم سيعدمونه، فحماه تصوره هذا من أن يمتهن نفسه، وعزم على أن لا يهن في لحظاته الأخيرة.

وجد نفسه ضحية سياسة لم يوافق عليها، وهو يعلم أن أصحاب هذه السياسة سيتاجرون بدمه كما تاجروا بشجاعته. تهاوت المواقع في

الـــتلال موقعاً إثر آخر، وسقط رجال وأسر آخرون، وحوصر هو ومن بقـــي معـــه فـــي الموقع الأخير ثلاثة أيام متتالية، ثلاثة أيام ظل ينتظر خلالهـــا تعلـــيمات جديدة من القيادة فلا تجيء. أما في اللحظة الأخيرة، لحظـــة أن لم يعد لأي تعليمات نفع، فقال أحدهم: ليتصرف قائد الموقع، أي: ليـــتحمل المحاصـــرون أنفســـهم المسؤولية! كان يعرف، وكان ما يعـــرفه يوجعـــه، المزايدات التي طالما اشتكى منها وما تفضي إليه. لو أصـــدرت قيادة تنظيمه أمراً بالإنسحاب عندما كان الإنسحاب ممكناً، لو تفاوضت مع السلطة على استنقاذ الرجال المعرضين للخطر ورضخت لشروطها، لاتهمتها التنظيمات المنافسة بأنها قيادة انهزامية. ولو جددت أوامـــرها بالثـــبات لقالـــت التنظيمات الأخرى إنها فرطت بالرجال في معركة ميئوس منها وضحت بهم دون ثمن.

ورن جـــرس ملحاح أعاد الأسير إلى ما يحيط به فسمع قائد اللواء وهـــو يـــتحدث في الهاتف وأدرك أن الحديث يدور عنه. وحين قال ذو الرتبة العالية: حياً وسليماً كما تأمرون، سنوصله إلى حيث أمرتم، أدرك خالد أنه لن يعدم في هذا المكان. وعندما اقتيد إلى السيارة التي ستمضي بـــه، وجه نظرة إلى المبنى الذي ضمّ رفاقه فوجد أن الصمت والسكون يلفانـــه. وتناوشته هواجس جديدة، ما الذي حل بهم، هل أعدموهم، هل ســـيعدمونهم، نجا هو من الموت الفوري الذي توقعه فداهمه قلقه على الآخرين، ألا يقلق الإنسان إذا تعرض مصير الشجعان إلى الخطر!

ومـــع استعصـــاء الـــنوم، داهمه القلق ذاته في الزنزانة، وحضرت الذكريات.

سعيد، الشاب الذي قدم من الضفة الغربية، فلاح حقيقي وابن فلاح، شهد معهم الحلوة والمرة كما ألف أن يقول، وعلى كثرة ما واجهوه من

مشـــاق ومخاطـــر لم يكن من الذين يشكون. لم يَشْكُ سعيد أبداً إلا مرة واحـــدة اشتكى فيها من الجوع، الجوع وحده أنطقه بشكوى. سأله خالد بعد أن شح الطعام عن حاله، فاعتذر بأن ليس لديه ما يقوله ثم استدرك، مـــا كـــانوا فيه هو أمر نذروا أنفسهم له وعليهم أن يتحملوا تبعاته وهو يـــتحمل ويحمـــد الله على كل حال، البرد؟ ألف سعيد في قريته ما هو أقسى منه، الخطر؟ لا يخشى الخطر إلا الجبان، الموت؟ لا يعاند القدر إلا عديم الإيمان. أما الجوع؟ الجوع مذل، لا يذل الإنسان إلا جوعه.

ســـمع ســـعيد بالفدائيين قبل الحرب فلم يأبه كثيراً لهم. أما بعد أن احتلـــت إسرائيل الضفة فقد اختلف كل شيء، فصار يبحث عنهم. وكان أبـــو سعيد قد توارى عن الأنظار منذ جاء المحتلون. بين العجوز وبين هـــؤلاء ثـــارات قديمـــة، هكـــذا يصف الأمر، ثارات تأسست منذ أيام الـــثورات، فخشـــي أن ينتقموا منه ولهذا توارى عن أنظارهم. وصار ســـعيد هو الموكل بتوفير حاجات المتواري ونقل الأنباء إليه. وقد ظل الأب يسأل ويكرر السؤال، ألم يأت الفدائيون إلى القرية، ألم يبعثوا أحداً لتجنـــيد الـــثوار؟ ما الذي جعلهم يستغنون عن ربعهم؟ ما لهم ثوار هذه الأيام؟ وفي آخر زيارات سعيد لأبيه، قال الأب: أنا تلفت ولم يبق فيّ ما يـــرجى ولـــو كنـــت شاباً لما انتظرت إلى أن يظهروا عندنا. وفي تلك الـــزيارة، ودع ســـعيد أبـــاه وفي الصباح التالي ترك أهله وقريته دون وداع، وجاء إلى حيث وجد الفدائيين، ثم لم يفارقهم بعد ذلك أبداً.

لمـــاذا انضم إلى الفدائيين؟ وجه خالد هذا السؤال إلى سعيد فاندهش الشاب لمجرد أن يُسأل: قلت لك إني وجدتهم. وبعد أن عدل خالد صيغة ســـؤاله، زادت الدهشـــة بدل أن تنقص. الدوافع؟ لماذا يشغل المتعلمون أنفســـهم بمـــا لا ينشغل به أحد سواهم، إنه يحمد الله أحياناً لأن أباه لم

يـــرغمه علـــى متابعة تعليمه كما أرغم إخوته الصغار، فما الذي يجنيه المـــتعلم ســـوى الأسئلة التي لا لزوم لها. الدوافع؟ الاحتلال، مثله مثل الظلم، مثل الوباء، مثل كل شيء يؤذي الإنسان، فكيف لا يكون الإنسان ضده، من الذي لا يكره الظلم.

وفـــي يـــوم سقوط الموقع، ظل سعيد يطلق نار بندقيته حتى نفدت ذخـــيرته، فغاظه نفادها وأخرجه غيظه عن طوره. وقد رآه خالد وهو يشتم البندقية ويخبط بها الأرض قبل أن يبلغوه ويعصبوا عينيه.

عـــبد الفتاح واحد آخر من العشرة، شاب مثل سعيد إلا أنه مختلف عنه، لجأت أسرته إلى بغداد وفيها ولد هو. وعندما وقعت حرب 1967 ، كـــان في ختام سنته الجامعية الأولى، فترك الجامعة وجاء إلى حيث جـــاء غـــيره مـــن أمثاله. حيوية متدفقة على الدوام وفضول يبدو معه مهذاراً لا يكف عن الاستفسار والتقصي، وذكاء، وسعة حيلة، وشجاعة، كـــل ما يلزم لكي يستحق أن يُركن إليه في أداء أعقد المهام وأخطرها. تعرف عليه خالد في التلال واكتشف مزاياه فأبقاه قريباً منه. وذات يوم، أودى القصـــف بحـــياة عـــامل اللاسلكي المحترف في الموقع وعطب الجهـــاز فوقعوا في ورطة بدا كأن لا مخرج منها. وفيما خالد يفكر في الورطة، آتاه صوت عبد الفتاح المرح: هل تحبّ يا رفيق أن تبلغ شيئاً إلـــى القـــيادة، إنهـــم على الخط. ومنذ ذلك الوقت، ظل يشغل الجهاز ويصـــلحه إذا عطـــب. وقـــد داهمه مهاجموه والسماعة في يده وركلوا الجهاز حتى أتلفوه وعصبوا عيني الشاب.

أبـــو حســـان رجل بلغ الخمسين وشاب فوداه، ولولا شيبه لتصور الـــناظر إلـــيه أنـــه في عزّ الشباب. وجه لم تخترقه أي تجاعيد، وبنية متماســـكة، وحـــيوية لا تخذله في أي جهد. أما السمة التي طالما وشت

بحقـــيقة عمـــر أبـــي حسان فهي حكمته. كان قليل الكلام فإذا تكلم ففي اللـــباب. وكـــان مـــن الذين يأبون الخوض في أشيائهم أو أشياء الناس الخاصة حتى لو لم يتعلق الأمر بالأسرار. وكل ما عرفه رفاقه عنه أنه كـــان عامل نسيج في دمشق وإنه متزوج وربما كان له أولاد. وقد ألف خـــالد أن يستشـــير أبـــا حسان في الأمور الصعبة وحدها فيقدم الرجل نصـــائح تـــدل علـــى سعة خبرته. وفي المساء الذي سبق يوم أسرهم، استشـــار خالد أبا حسان في ما ينبغي عمله إزاء صمت القيادة، فجاءت النصـــيحة: مـــا لم تصلْ تعليمات جديدة فلا مناص من إتباع التعليمات الســـابقة. وتبع النصيحة تعقيب وجيز: مصيرنا تقرر ولن يبدله صمت القـــيادة أو حكيها. وقبل أن يعصب المهاجمون عيني الرجل الذي نفدت ذخيرته، تلقى خالد من هاتين العينين النظرة التي قالت له: ها قد انتهت الجولة.

محمود واحد آخر من الذين نجوا. كان هذا جندياً محترفاً في جيش الســـلطة فـــترك الجيش، والتحق بالفدائيين، وحرص على أن يظل في المواقـــع البعيدة عن المناطق المأهولة حتى لا تقع عليه عيون السلطة، هـــو المعدود فارّاً من الجيش. وها هو محمود قد وقع في القبضة وهو يقاتلهم في الموقع الأخير. ومن المحترفين كان معهم ثلاثة جنود تركوا الجـــيش أثـــناء حصار المدينة وانتهى بهم المطاف إلى التلال. أما بقية العشـــرة فـــثلاثة شـــبان جاؤوا من قطاع غزة. جاء الثلاثة معاً، ثم لم يفـــترقوا، وأســـروا معاً، وكانت لكل منهم حكاية حضرت إلى الزنزانة حيث طاف السؤال المتكرر: ماذا حلّ بهؤلاء الرفاق؟

ومع اقتراب الليل من نهايته، حين لم يعد حتى للقلق أن يصد سلطان الـــنوم، أغفى خالد وهو يفكر بأن يسأل سميرة عن مصير رفاقه ما أن

يــتحقق الاتصال بها. وفي نومه، رأى نفسه يقف إلى جانب سميرة في مطبخ المنزل ويمدّ ذراعيه ليحتضنها فتستجيب له فتظهر وجوه الرجال العشـــرة فتنفلـــت هي من ذراعيه. ثم تغير المشهد فرآها تقف في زي الممرضات وأمامها صف رجال تعرف فيهم على رفاقه ورأى نفسه في نهايـــة الصف وهو يتلهف على الوصول إليها وحين يحلّ دوره تتلاشى هـــي. ثـــم تـــبدل المشهد فرآها منتصبة فوق قمة مدببة وأمامها رفاقه ومحاجـــرهم خاويـــة انتزعـــت منها العيون وبطونهم مفتوحة ليس فيها أحشـــاء ورأى نفسه بينهم مشوهاً مثلهم ورأى سميرة وقد انتبهت فجأة إلى ما حلّ بهم فاتسعت حدقتاها وراحت تصرخ.

صـــحا خـــالد والصـــراخ ما زال يخترق أذنيه، فتصور أنها آثار الكابوس. غير أن الصراخ لم يتوقف حتى بعد أن استعاد يقظته كاملة، فأصـــغى بأمل أن يتبين المصدر. وحين حلّ الصمت فجأة بقي مشدود الأعصاب بانتظار أن يخترقه الصراخ مرة أخرى. وطال الصمت حتى لقـــد شـــك في أن يكون ما سمعه صراخاً حقاً. أما بعد أن غلبه سلطان النوم من جديد، فقد تجدد الصراخ وجاء أوضح وأشد صخباً، فتميز فيه صراخ إمرأة تتعرض لتعذيب شديد. ولم يوافه النوم بعد ذلك، حتى بعد أن انقطع الصراخ. فجلس وقد تكوم على نفسه وظهره إلى الحائط وفي داخلـــه ذلـــك الأســـى الذي يكابده الإنسان حين يعجز عن إغاثة إنسان مظلوم. وتصور أن السجناء جميعهم صحوا مثله وجلس كل واحد منهم كمـــا يجلـــس هـــو وأســـي للمعذبة كما يأسى، يعذّبون امرأة مع الفجر ويرغمون السجناء على سماع توجّعها، فكيف يقدرون على ممارسة هذا الأذى كلـــه؟ وأســـلمته فكـــرة ممضة إلى أخرى مثلها، واشتد إحساسه بالـــتأذي حتى سيطر عليه. ومع هذا الإحساس، استشعر الحاجة إلى أن

يـــرى مخلوقـــاً بشرياً، أن يحاور إنساناً، أن يؤكد إنسانيته. ووجد نفسه ينهض فجأة ويخبط باب الزنزانة بأشد ما في قبضتيه من قوة ويواصل الخبط.

- هل سمعت الصراخ؟

صـــبّ اســـتنكاره على الوجه الشاحب الذي أطلّ من الطاقة وعينيه اللتين تلومان السجين المزعج.

- لماذا لا تطلب من الله الستر.

- لن تقول لي إن ما يحصل يرضيك.

- ما دخلي أنا.

لم يكن ينقصه إلا هذه الإجابة المتملصة حتى يشتد هياجه ويشتط في تحميل الحارس آثام السجن كله.

- كم يدفعون لك كي تسكت، كأنك لا ترى ولا تسمع!

ولم يدرك سخف ثورته على حارس إلا بعد أن جاءه رد الرجل وهو يغلق الطاقة.

- هدىء نفسك ولا تزعق في وجوه الخلق!

وقـــد هدأ خالد لكن للحظات فقط، ثم عاوده إحساسه الشديد بالتأذي، فعـــاود الخبط على الباب وإن بصخب أقل هذه المرة. وانفتحت الطاقة بحركة تشي بنفاد الصبر.

- ها أنا ذا، فماذا تريد؟

- أن أتكلم مع أي إنسان، مع إنسان، هل تفهم؟

- أنت مكروب، لكنها الأوامر، تكلم، لكن لا ترفع صوتك!

- رفعت صوتي عليك، لم يكن لي حق، فهل...

- هذه نفوّتها، فما الذي تريد أن نتكلم فيه؟

ما الذي جعل الحارس يستجيب، هل كان محقوناً مثل خالد، أو أن اعتذار السجين المكروب له فعل فعله، أو أن هناك سبباً آخر؟ أصغى خالد إلى الذي فاض مخزونه فيما هذه الأسئلة تناوشه.

كان جندياً قبل أن يتحول إلى سجّان. تطوع للجيش وهو بعد فتى، وترقى إلى أن صار شاويشاً، رقيباً أول بلغة هذه الأيام. وفي مواجهة اضطرابات سياسية عصفت بالبلد، تلقت وحدته أوامر بتفريق متظاهرين مناوئين للسلطة، وما أن شرعت في القيام بما أمرت به حتى تكاثر عليها المتظاهرون وأحاطوا بأفرادها وكادوا يشلّون حركتهم. عندها، صدرت الأوامر بإطلاق النار. وأطلق جنود رصاص بنادقهم أما هو فلم يفعل. لماذا؟ لأنه استصعب أن يؤذي أبناء بلده. فلما شدد آمر وحدته الأوامر، أطلق هو رصاص بندقيته في الهواء. ولاحظ الآمر هذا الذي فعله هو وكثيرون غيره فأمر بأن يطلقوا النار على الناس. كان الآمر مضطرباً وخائفاً ولم يتوقف ليشهد التنفيذ. وفي التحقيق حول أسباب تقصير وحدتهم في أداء ما أوكل إليها، ذكر المعرض للاتهام الشنيع مسألة رفض تنفيذ أوامره وأعطى أسماء من تذكرهم. واتسع التحقيق. ولأنهم وجدوا أن العدد كبير، فقد جاءت العقوبات على العموم أخفّ من المتوقع. ولأن ما من أحد شهد ضده هو شهادة قاطعة الدلالة، فقد جاءت عقوبته أخفّ العقوبات جميعها. وكان أن جرد من رتبته وأحيل من الجيش إلى الشرطة، فصار سجاناً بغير رتبة.

أشعلت الحكاية في ذهن خالد المشحون بالهواجس هذا السؤال الذي بدا له منطقياً تماماً: كيف وثقوا بجندي متهم بمخالفة الأوامر فأوكلوا إليه حراسة السجناء؟ وصاغت الخبرة العتيقة والشكوك المزمنة إجابة بدت له هي الأخرى منطقية: أذلّوا الرجل بمخالفته وجعلوه مخبراً.

وحين ختم غير المنتبه إلى شكوك السجين حكايته وقال إنهم ينقلونه منذ ذلك الوقت من سجن إلى غيره، وجد خالد ما يقوّي ظنه وعزم على أن يختبر الرجل.

- هل تعرف هذه التي يعذبونها؟

- لمثلي لا يوجه مثل هذا السؤال.

وفي الإجابة المراوغة، وجد خالد تأكيداً جديداً لظنه بالرجل. وعزم على الاستفادة منه. وللاستفادة من مخبر وسيلة مجربّة: حمله على نقل معلومات زائفة إلى مرؤوسيه بعد إيهامه بأنها صحيحة.

- هل تعرف من أنا، أقصد: هل تعرف...

- لماذا لا تقول أنت لي.

فقال للحارس من هو وما هي مكانته، ثم أبلغ إليه أنه بحاجة إلى من يثق به، وإذا ظفر أحد بثقته وأدى خدمة سيطلبها منه فستكافئه القيادة في الخارج بما يستحق وأكثر.

- تستطيع أن تثق بي. لكن، لا تحطّني في محل شبهة. أنا على أبواب التقاعد ولا أريد أن أخسر تقاعدي!

- لم أطلب منك شيئاً بعد، وإذا كنت خوّافاً فلن...

- لا أبخل بخدمة أقدر عليها، لكن لا تكلفني ما يؤذيني!

- رفضت أن تقول من هي التي تتعذب، فهل ألححت عليك؟ أنت ترى أني لا أطلب أن تعمل ما ترفضه.

نفع هذا الطعم؛ تفقد الحارس الممر بسرعة، ثم تحدث هامساً.

- لم يعذّب أحدّ. كان تسجيلاً ما سمعته.

ولكي لا ينكشف الفخ للعصفور الذي ربما كان حذراً، أظهر خالد شكّه في الإجابة.

- تخدعني وتريد أن أثق بك، كيف أصدق أن التعذيب...

- سـأقول لك سراً حتى تثق بي، الرائد صبري البشاشنة هو الذي أمـر بإيصال الصوت إليك مع الفجر، وأنا أمرت بأن أرصد رد فعلك، لولا هذا لما جئت إليك عندما خبطت الباب.

مـا أفضـى بـه حارس وقع في فخّ كلام أهدى لخالد بارقة فرح صـغيرة، فقـد أبهجـه أن يصدق ظنه بالرجل وأن يعرف أن المحقق الجديـد لا يختلف عن سواه وليس عليه، إذاً، أن يخشاه أكثر مما خشي غيره.

- أنت لم تقل لي ما اسمك.

- حسيب، اسمي حسيب عبد الخالق وكنيتي أبو مصلح.

- حسيب، وعبد الخالق، وأبو مصلح، أسماء على مسمى كما أرجو. فاسـمع يا طيّب! سأحتاج في وقت محدد إلى من ينقل رسالة منّي إلى عنوان أذكره له، فهل تنقلها من أجلي.

- سـيخرب بيتـي، لو كنتَ سجيناً عادياً لربما هانت، أنت سجين لحساب المخابرات، والرائد يده قاسية، وقلبه...

- تستطيع أن تفكر، ففكر، وأخبرني بالنتيجة!

سيصل إلى الرائد ما دار بينه وبين أبي مصلح هذا، وسيأمر الرائد الحـارس بالموافقـة كي تقع الرسالة في يده، وسيماطل هو حتى يبقى الرائد في الانتظار ويصرف الانتباه عن أبي محمود. هذا هو ما رسمه خالد.

كان بحاجة إلى النوم إلا أن النوم استعصى عليه. وكان جائعاً وعنده ما يأكله. وما أن تأكد من أن موزعي الإفطار تخطّو زنزانته حتى فتح الصـرّة. ومع اللقم التي راح يلوكها ببطء، انداحت مدارات الخواطر؛

حلّ يومه السادس في السجن وما من شيء واضح؛ أمامه نهار طويل، نهار آخر لا مفاصل له، وليل قد يصير شاقاً إذ نفد صبر الرائد، ولابد من أن الرائد يتحرق على تقديم خائن جديد يخدم سيده وقد يبدأ لعبته هذا المساء.

والواقـــع أن حـــرقة الرائد تجلت بأسرع مما قدر خالد، فلم ينتظر حلول المساء بل استدعى سجينه في الصباح.

– عساك نمت جيداً هذه الليلة.

– الحرمان من الوجبات، وصوت المرأة التي تتعذب، فكيف أنام.

– هـــل نكمل حديثنا من حيث انتهينا؟ أو إن علينا أن نبدأ من جديد كل مرة!

– ذهنـــي مشـــتت، قلّة النوم و.... أنت تعرف. ظننت البارحة أنك ستلغي أوامر سلفك، كأني سمعتك تتعهد شيئاً كهذا.

– خرجـــت مســـرعاً، نسيت أن أبدل الأوامر، كان هناك من ينتظر نتائج حوارنا فأسرعت إليه.

– طريف أن تسمي ما بيننا حواراً، هذا الذي تسبب نتيجة أن تستمر أوامـــر العزل والتجويع والتعذيب النفسي. آمل في أنك نقلت إلى الباشا صورة صحيحة.

– حزرت إذاً، كان هو دولة الباشا فعلاً، وقد قلت لدولته إني لم أفقد الأمل في تعاونك.

– هـــل قلت إنك من أجل أن يحصل التعاون حرمتني من الوجبات التـــي هـــي حـــق لكل سجين وأقلقت نوم السجناء كلهم بصوت إمرأة تـــتعذب، لا لشيء إلا لتقلق نومي أنا، وربما لتتيح لي وقتاً أطول حتى أتخيل فوائد التعاون.

هـــذه الســـخرية الســـافرة بلبلت الرائد ونحت الابتسامة عن وجهه وأطالت بحثه عما ينبغي أن يقوله حتى يبقى الحديث على المسار الذي يريده هو.

- التعذيب لا علم لي به.

أدرك خالد أنه على ضعفه كان يسجل لنفسه نقاطاً محسومة من نقاط الـــرائد. ألـــم يُضـــطر المعتد بنفسه إلى أن يكذب مرتين وهما بعد في البداية. وأنعش هذا قواه.

- إذاً، لأوضـــح ما أراه. لهذا الذي بيننا اسم آخر غير الحوار، بل هي أسماء، إنه، في أحسن أسمائه، مساومة. تعدّ نفسك المنتصر وتعدّني المهـــزوم وتعـــرض ما تعرضه وتتصور بالطبع أنك قادر على إملاء شـــروطك. أما أنا فلا أراني مهزوماً. خسرنا معركة، بل معارك، لكننا لســـنا مكســـورين. وجودنا وتأثيرنا ودورنا لم ينتهوا لأنّ مقاتلينا أبعدوا عن البلد أو حوتهم سجونه أو... أنت تعرف ماذا فعلتم. وحتى لو سلمت بمنطقكم فأنتم تحتاجونني سليماً ومعافى لأتمكن من خدمتكم. فلدي نقطة قـــوة لا أفـــرط بها. ولكي أقبل المساومة أريد الأوراق مكشوفة، أوراقاً مكشوفة.

- أصـــغيت إليك لتعرف أني أريد الحوار فعلاً. تتحدث عن إملاء الشـــروط وتســـتكثر أن أعرض مطالبنا، أليس من المدهش بعد هذا أن تملي أنت شروطاً.

- أحاول أن أجعل الموقف واضحاً، ما الذي يراد مني بالضبط، وما هو المعروض علي مقابله.

شاء أن يحرج الرائد، أن يضيّق عليه فرص المناورة، أن يفهمه أنه، هـــو المتمرس، لا يجيز المراوغة. لكن صبر الرائد لم يكن قد نفد حتى

يرمـــي أوراقـــه على المنضدة، ولم يكن في موقف الضعيف حتى ينفد صبره بهذه السرعة.

- لـــك أسلوب في الحديث غير ودي. الراغب في اتفاق لا يستخدم أسلوبك.

- أنـــت تعرض صفقة، تعرضها وعنقي في يدك فبإمكانك أن تبين طلباتك دون أن تخشى شيئاً.

- مـــا أعـــرفه هو أن لدولة الباشا أملاً كبيراً فيك. أنا لا أعرف ما يـــريده كله، لكني أعلم أنه سيتولى رئاسة الحكومة، سيرجع إليها قريباً، وهـــو يهيـــئ لصفحة جديدة بعد... بعد الأحداث الدامية، ويريد منك أن تتحدث في الإذاعة والتلفزيون، تعرض خبرتك مع القيادة التي لم تسمع نصـــائحك وتوجـــه إخوانك إلى طريق الصواب. هذا الحديث، كما قال دولته، هو فاتحة الطريق نحو التعاون الذي لا يأباه عاقل مثلك، التعاون مع العقلاء. فهل عرفت ما أريد؟

وشدد الرائد كلمات السؤال.

- ما الذي أحصل عليه؟

صـــمت الرائد كأنما ليصبّر نفسه ويتجنب أن يستفزّ. ولم يلح خالد. غير أن الصمت لم يطل.

- عوملـــت معاملة استثنائية وظفرت بفرصة، أنت تعرف، العاصي الـــذي يحمل السلاح ضد الدولة عقوبته الإعدام. أنت لم تعدم. كانوا في قـــيادة اللواء يعدّون العدة لإعدامك والذي نجاك هو دولة الباشا. ودولته هو الذي ندبني للحوار معك. وإذا انقطع حوارنا فستزول حمايته عنك.

- أفهـــم أنـــك تطلب أن أهاجم قيادة العمل الفدائي مقابل نجاتي من التعذيب وربما من القتل.

- أنت تعقد الأمور، فما الذي تريده أنت؟

- هل أحصل على مهلة للتفكير، هل هذا ممكن؟

- أمهلك حتى المساء.

- لن تخرب الدنيا إذا أمهلتني يوماً كاملاً، نهاراً آكل فيه وليلة أنام فيها حتى أتمكن من التفكير.

- إذاً، إلـــى مســـاء غد، يوم كامل وزيادة، لكنها المهلة الأخيرة، لا مهلة بعدها.

شـــدد الرائد الكلمات الأخيرة، شددها بصوته وعزز المغزى بنظرة قالت للسجين إنه إذا لم يستفد من هذه المهلة فلن يرأف به أحد.

وفـــي الزنزانة، حاول خالد أن ينام؛ كسب وقتاً فلينل بعض الراحة. ولكي يطاوعه النوم، غطى رأسه بطرف البطانية، آثر أن تزكم العطونة أنفـــه على أن يحرمه ضوء المصباح النوم. وأغفى، أغفى ساعة وربما أطـــول، ثـــم أيقظـــه صوت انفتاح الطاقة، فرأى الوجه البارد للحارس النهاري.

- النقود؟ هل جاءتك نقود؟

لـــم يـــتذكر الذي قوطع نومه قبل أن يستوفي حاجته منه وعده لهذا الحارس، لكنه وهو الخبير، لم يتورط في الإنكار.

- من أين تجيء النقود، أنا لا يزورني أحد.

- أتظـــن أني طفل. اسمع! إذا لم أحصل على ما وعدتني به حتى الغد فلن يحصل لك خير. وتذكر: أريد أم الخمسة!

ومـــع هـــذا الإنـــذار الـــذي لم يحسب حسابه، امتنع النوم، وأفلتت الهواجـــس مـــن محابســـها. ولم يبق أمام خالد إلا أن ينتظر قدوم أبي محمود. السادسة مساء صارت موعداً للأنباء.

- زكيّة تقدر على عمل العجائب.

قدم صاحب الوجه الطيب البشارة وهو يمد يده بلفافة. وتناول خالد اللفافة غير مصدق أن الاتصال قد تحقق حتى وهو يرى نتيجته بأم عينه. وأنساه التأثر أن يشكر الرجل الذي جازف كل تلك المجازفة، ولم يفطن إلى تقصيره إلا حين سمع انغلاق الطاقة فيما هو منصرف إلى القراءة.

لم تكن تلك بكاملها رسالة حب، إلا أن شذى حبهما عبق من كل حرف فيها. ولم يسترح خالد إلى طول الرسالة، الرسالة الطويلة لا تلائم أمن الاتصالات، لكنه تمنى مع ذلك لو أن الرسالة أطول، إذاً، لربما أمكن أن يرتوي!

قصت سميرة ما وقع لها منذ افترقا. وأبلغت إليه ما فعلته القيادة لحماية حياته. وحكت على التنظيم والرفاق الباقين فيه وتطلعاتهم وما تكرس أو تبدل أو استجد من وجهات نظرهم. طمأنته، لكنها لم تبثّ أوهاماً. ليس الوضع أقل سوء مما يتوقع إلا أن التنظيم قائم، الرفاق مهددون والفرص شحيحة إلا أنهم لم ينكسروا، ولأنهم هدّأوا نشاطهم إلى أن تهدأ العاصفة الكاسحة فقد قرروا أن يستثمروا الوقت لمراجعة التجربة والتهيؤ لما هو قادم، والروح السائدة إيجابية، وصوت العقل الذي طالما اشتكى خالد من تغييبه يعاد إليه الاعتبار. وكان لدى سميرة ما يشغل بالها وقد بثت همومها في الرسالة كما ألفت أن تبثها مباشرة كلما اختليا، مصاعب عيشها منفردة وهو محاصر في التلال، ثم اختفاؤها وما يوجبه من عزلة، والأسئلة التي تصطخب في رأسها، هل كان محتماً أن يقع ما وقع؟ ألم يكن في المستطاع تجنب المذابح؟ لو تكاتف الذين أدركوا أخطار المزايدة والفرقة والاستسهال، لو تحدّوا

السائد بأشدّ مما فعلوا، أما كان للأحداث أن تتجه في منحى آخر. وما كان يمضّ سميرة ليس هو تواتر الأسئلة بل العجز عن التوصل إلى يقين. معه كان الأمر أسهل حتى إزاء أشق الأسئلة. وهي تدرك أن هذا ليس هو وقت الشكوى وتحزر ما الذي قد ينصحها به، لكنها لا تشكو، إنها تبثه خلجات نفسها، وقد قالت ما قالته في رسالتها وهي تخاطبه كأنه جالس معها وهما وحدهما في خلوة، أليست كتابة الرسالة خلوة.

وأرسلت سميرة نقوداً وطمأنته على أن في المتناول إرسال المزيد كلما احتاج إلى نقود، وأوصته بأن يثق بحامل الرسالة فأمانته ليست موضع شك، إلا أن عليه ألا يركن إلى فطنته فهذا رجل من الأفضل أن تشرح بالتفصيل ما تريده منه وأن تكون صبوراً في الشرح.

ست صفحات كبيرة التهمتها عيناه التهاماً في دقائق. وكانت تلك هي المرة الأولى التي وجد فيها فائدة للضوء الهابط من السقف وغبط نفسه لأنهم لم يضعوه في زنزانة معتمة. وقد أعاد قراءة الرسالة وتمعن في كل عبارة، وكلمة، وحرف، وعلامة تنقيط، وتشمم عبقها. اخترق الأبواب، والجدران، وصفوف الحراس، والأسوار، والتقى سميرة، راجعا الماضي، تفحصا الحاضر وتواصيا بالصبر، واستشرفا المستقبل، وكان حوارهما كالعادة مناجاة. هي سالمة، وهي تعرف كيف تتدبر أمورها، وها هي ذي تتولى تدبير أمره هو الآخر. والرفاق يتابعون المشوار، هي وغيرها، فأي أنباء أخرى يحتاجها لكي ينتعش مزاجه!

- أتحبها إلى هذا الحدّ؟

كانت الطاقة قد انفتحت فلم ينتزعه صوت فتحها من هيامه. وحين اجتذبه السؤال المتعاطف، رأى خالد على وجه أبي محمود ابتسامة

كست الملامح المتصلبة ليونة وحلاوة تشيان بطيبة الرجل الذي أسعده أن يسعد السجين.

- أحبها وأحبّ كل ما له صلة بها.

- قالت زكيّة إن جماعتكم لا يذكرونها إلا بالخير.

- إنها تستحق كل خير. قل هذا لزوجة أخيك وأشكرها على المساعدة!

- آه، كدت أنسى ما أرجعني إليك. طلبت زكية أن أنبهك، من الضروري إتلاف الرسالة دون تأخير.

وبمزاجه المنتعش، شاء خالد أن يمازح صاحب الوجه الذي استعاد تصلب ملامحه.

- لماذا أتلفها، أليس من حقي أن أتلقى رسالة من خطيبتي؟

ولما لم ينته أبو محمود إلى المزاح فقد أربكه الجواب الذي لم يحسب حسابه.

- ماذا لو وقعت في أيديهم؟

- هل قرأت الرسالة.

- استلمتها من زكية ملفوفة ولم أفتحها، لماذا أقرؤها؟

- خسارة، رسالة رائعة.

حمل أبو محمود أقوال خالد كلها على محمل الجدّ فاشتد ارتباكه. ولم ينتبه خالد إلى ما فعله مزاحه بالرجل الطيب، بل رماه بواحدة جديدة.

- ما رأيك لو أخذت الرسالة إلى الرائد ليعرف أن أحوالنا ليست بالسوء الذي يتمناه؟

- للرائد؟ أنت لن تفعلها بعمك أبي محمود، سيخرب بيتي.

عندها، فقط، أدرك خالد أنه اشتط كثيراً في مزاحه.

- أفـدي سـلامتك بروحي يا أبا محمود. كنت أمزح فلا تؤاخذني! افـتح الباب، أريد أن أذهب إلى حجرة المراحيض وهناك أتخلص من الرسالة.

وكـان لـدى خالد ما زوده به المحقق الأول ولم يسترده أحد: القلم والـورق، فكتـب رسالة لسميرة، نصحها بأن تجعل رسائلها قصيرة، وطلب أن تتقصى أنباء رفاقه العشرة، وأوجز وصف وضعه في السجن ومـع المحقـق، وختم رسالته بكلمة أحبك، وطواها حتى صارت بحجم برشـامة يسـتطيع حاملها أن يبلعها إن اقتضى الأمر، وأبقاها في جيبه عازماً على تسليمها لأبي محمود.

وبمزاجه الذي راق، أقام خالد في الزنزانة احتفالاً هو فيه المضيف والمدعو الوحيد معاً، وأباح لنفسه أن يأكل الحصة التي خصصها لعشائه وجـزءاً من الحصة الأخرى، ففي الاحتفال يجوز دائماً الإسراف. وبعد أن أكل، استرخى على البرش، فأحسّ بأن الأرض أقلّ قساوة والضوء أقـلّ إيذاء والهواء أنقى. وداهمه النعاس مبكراً، فنام. وفي نومه، رأى نفسه على سرير منصوب فوق حافة هوة سحيقة وهو لا يشعر بالخوف. ورأى سـميرة واقفـة علـى الحافة المقابلة وهي تشير إلى قاع الهوة وتطلـب أن ينظر إلى ما تشير إليه. ثم رأى نفسه يطل على هذا القاع فـإذا بـه يمتلـيء بماء يتدفق بسرعة هائلة ولدفقه هدير يصمّ الآذان. وصـحا خالد فوجد أن الحارس أبا مصلح قد فتح الطاقة ويبدو أنه ناداه فلما لم يستيقظ راح يخبط الباب ليرغمه على الاستيقاظ. وأدرك خالد أن نومـه امـتد إلـى ما بعد انصراف أبي محمود. وأسف لأنه لم يسلمه الرسالة، وما أشدّ ما اغتمّ!

- قلت لنفسي أحييك وأسأل إن كنت بحاجة إلى خدمة.

- لست بحاجة إلى شيء.

- والرسالة، الرسالة التي أردت أن أنقلها؟

ذكّـــره الســـؤال باللعـــبة التي بدأها مع الحارس، وأعاد إليه يقظته فأعادته اليقظة إلى حذره.

- لم يحن الأوان، سأخبرك عندما يحين الوقت، ولن تفوتك المكافأة.

- أنا في خدمة الطيبين في كل وقت.

خـــتم الحـــوار مع الحارس ثم سرعان ما أغفى. وفي الصباح، كان رائق المزاج، فتحدث ثانية مع الحارس الذي ينتظر الرسالة وأفهمه أنه علـــى وشـــك أن يكتبها. وعندما جاء الحارس ذو الوجه البارد، أعطاه خـــالد أمّ الخمسة ومنّاه بمزيد من النقود إن جاءه بنتيجة البحث الجاري عن سميرة. وفي نهاره ذاك، أكل خالد مرتين، وجهد في أن يستريح ما أمكنه ويشحذ إرادته، لقد هيأ نفسه لما يتوقعه.

وفـــي المساء، استقبله الرائد بوجه جهم ورد تحيته بإهمال ولم يدعه إلى الجلوس، وإذاً، فهو عنوان المكتوب الذي يدل على ما فيه.

- طالـــت هـــذه القضية أكثر من أي لزوم. أنت تبالغ في استثمار صبرنا وتسامحنا ورغبتنا في التفاهم، فهل انتهيت إلى قرار؟

- قـــبل القـــرار، بودي أن أسألك عن الجمائل التي تحملني إياها، الزنـــزانة، ومنع الطعام، والتلويح بالتعذيب وحتى بالقتل، أنت لا تحب طريقتـــي حيـــن أصـــف كل شيء بما يستحق، لكن ألم نتفق على أنها صفقة.

- صفقة أو أي صفة أخرى، إلى أين وصلت؟

- هل أجلس، أنا لا...

- أجلس، لكن لا تخرج عن الموضوع!

- ســـألتك البارحة عما تعرضه عليّ مقابل ما تطلبه، عقد صفقة له أصول، فهل سألت الباشا؟

- إنـــنا نقدم لك حياتك، ألا تكفيك، وهذا دفعة أولى. لو أحلتك الآن إلـــى المحكمـــة فهل تشك في نوع الحكم الذي ستصدره؟ حياتك مقابل حديـــث، ولكل خطوة بعد ذلك ثمنها. لو حكمت بإنصاف لشكرتنا! وأي حديث؟ عن قناعاتك، عن معاناتك، عن قيادة باعتكم وهربت.

- لـــو أني لم أعرفكم لربما تصورت أنكم حرصتم على بقاء قيادة الفدائيين في البلد، كأن جيشاً غير جيشكم هو...

- لا تبالغ في استثمار تسامحي، ابق في الموضوع!

حـــنق الرائد. ورأى خالد كيف يكاد حنق الرجل يخرجه عن طوره وكـــيف يصـــبر نفسه، وأدرك أن صبره سينفد وشيكاً، ولم يسوؤه هذا، ولماذا يسوؤه؟

- ســـألتك عـــن عروضكم فحدثتني عن حياتي، فلماذا تتصور أني حريص عليها إلى حد الخيانة؟

- لن أجادلك مرة أخرى في الأوصاف. هو قرار أنتظر أن أسمعه منك ولن أنتظر أكثر مما انتظرت، عليك أن تختار فوراً...

- حياتي أو الخيانة؟ قلت إنك تعرف كل شيء عني، ملفاتكم طافحة بالمعلومـــات، فهـــل تعلم كم مرة عرضت حياتي للخطر باختياري في سبيل أن...

لـــم يفقـــد الـــرائد عادة تشديد الكلمات. وخلال هذا التبادل للقصف بالكلمـــات ظل يشدد عبارة أو أخرى، ولما لم يعد بامكانه التستر على نفاد صبره، شدد القصف وراح يشدد كل كلمة.

– لم أطلب خطاباً، طلبت قراراً.

– هذه صفقة وفي الصفقات مساومة، أليس كذلك؟

– أنت تضيع الوقت. دولة الباشا لا مني لأني مددت لك المهلة، فما الذي تطلبه؟

– قدمت عرضاً لم يقنعني فهل عندك غيره؟

– أسألك لآخر مرة: ما الذي تريده؟

– أنا هنا ضدّ إرادتي، ولو جاز لي أن أطلب شيئاً لطلبت حريتي.

– ابق في الموضوع!

– أيمكن أن أقابل الباشا شخصياً؟

– بماذا ستفيدك مقابلته؟

– لا أتطلع إلى أي فائدة لي. أريد أن أخاطب رأس الحصان مباشرة وأفيده هو، أوفر عليه الحاجة إلى خيانة أمثالي. فهل تأذن بأن أشرح لك كيف...

كـــان خالد يحزّ أعصاب الرائد حزّاً ويعلم أنه يوجعه. كان قد اتخذ قـــراره في واقع الأمر، القرار الذي يتخذه منذ الأزل كل مظلوم لا يذلّ نفسه. وكان يعرف أن جهره بقراره سيليه التعذيب وما هو أسوأ. وشاء أن يستثمر حاجة الرائد إليه من أجل أن يجعل موقفه تام الوضوح.

– أنا مصبغ.

كلمتان مشددتان قاطع الرائد بهما خالد فعنتا في الواقع أن قائلهما لا يحب أن يسمع أكثر مما سمع.

– هل تتصورون حقاً أن كلام الخونة يؤثر على الرأي العام أو أن ســـلوكهم طريق الخيانة يخدعه. هل تظنون أن ساقطاً من هنا، ومنهاراً مـــن هناك، جباناً من تنظيم وطماعاً من آخر، سيضعون تحت إشرافكم

قـيادة يرضـي بها شعبها وينفضّ عن القيادة التي رضي بها فعلاً. كم خائناً جلبتم حتى الآن إلى الإذاعة والتلفزيون، فهل...

- باختصار، أنت ترفض.

- لم أقل هذا، فاصبر حتى أتم كلامي! سافترض أنكم أقنعتم الرأي العـام بأن الفدائيين يستحقون ما فعلتموه بهم وزيادة، فهل سيجعله هذا يـتعلق بالسـلطة، هل سيكف الناس عن بغض الباشا، هل ستتحقق له الشعبية التي يحلم بها وهو راجع إلى رئاسة الحكومة.

- أنت تبتعد عن الموضوع كثيراً وتفقدني صبري.

- حلمـك! سـأرجع إلى الموضوع، بل إنني فيه. أليس لدى الرأي العام مئة سبب كي...

- تتفلسف وتمطّ الحديث. وأنا أريدها كلمة واحدة، نعم أم لا.

- أمطّ أو لا أمطّ، ألست في صلب الموضوع. بماذا ستفيدكم خيانتي ما دامت لن تلغي ما يشكو منه الناس، ناسكم قبل ناسنا؟

- وآخر الكلام؟

- مثل أوله، أنا لا أستحق العروض السخيّة التي عرضتها عليّ.

طـار الغطاء وانفلت المحبوس. وهبّ الرائد من مقعده، وأدار ويده ترتعش قرص هاتف من اثنين موضوعين على المكتب، وأجرى حديثاً حزر خالد أنه مع الباشا، وأصغى إلى ما بدا أنه أمر أملي عليه. ثم أدار الرائد قرص الجهاز الآخر وأصدر أمره هو: سجين الزنزانة 23، خالد فتحي عزيز، ينقل إلى مقرنا، ستكون عندهم تعليمات، فورا.

6

تأمل خالد زنزانته في سجن المخابرات فأدرك أنهم اختاروا له أحط نـــوع، أقـــل طـــولاً مـــن السابقة وأقل عرضاً وسقفها أخفض وضوء مصباحها اللعين أشدّ فتكاً. وفي الزنزانة هذا السطل ذو الرائحة النتنة، ثم عراء كامل، لا برش، ولا غطاء، ولا أي شيء، فهي، إذاً، كما لاحظ مـــنذ حـــل فـــي الزنزانة، عزلة محكمة، حتى المراحيض لن يؤذن له بالذهاب إليها.

غير أن ما انشغل به ذهن خالد لم يكن هو هذا التبدل، بل هو مصير الاتصـــال الذي حققه وخسره في اليوم الذي تحقق فيه، ومصائر الذين اتصـــل بهم. لن يفطن أبو محمود إلى أنهم نقلوه، وأنّى له أن يفطن هو الذي رأى خالد وهم يأخذونه إلى التحقيق، ولن يعمد بالتالي إلى إزالة ما خلّفـــه تحت البرش. وصار خالد على يقين من أنهم سيكتشفون الطعام والـــنقود وسيقودهم التحقيق إلى أبي محمود وسميرة والآخرين. لقد بنى في سجن المدينة وضعاً ساعده على التماسك، فهل في مقدوره أن يبني في سجن المخابرات أي وضع؟

هـــذا السؤال الذي طرق ذهنه فور حلوله في الزنزانة الجديدة حثّه علـــى أن يختـــبر ما يحيط به. ولئن تردد لبعض الوقت فإن دافعه إلى الحـــركة كان أقوى من تردده. ولم يلبث أن خبط الباب الحديدي، خبط بشدّة، ونادى: يا حارس! وكرر الخبط كما كرر النداء، فلم يرد أحد. ثم

كـــرر المحاولـــة مرة أخرى وأحدث صخباً أشد فكأنه كان يصخب في قبر.

وعندما هدّأه يأسه من أن يظفر برد وراح ينصت إلى الصمت لعله يقـــع على أي نأمة ذات دلالة، بلغه صوت صادر من قرار عميق: أنت الـــذي تخبط وتنادي، من أنت؟ فذكر اسمه وكرره بصوت أعلى وأوجز الأوصــــاف التي تعرف به. وكان ما يزال يتكلم حين طغت على صوته جلبه أقدام تجري في الممر، فصمت وأرهف السمع وتابع مسار الجلبة التي راحت تخفت إلى أن بلغه صوت فتح باب. ثم إغلاقه، وسمع بعدها جلبة الأقدام وهي راجعة، ولم يلبث أن ساد الصمت.

مـــن زنزانة إلى أخرى أسوأ، من عزلة أمكن اختراقها إلى عزلة لا تـــتوفر فـــيها الفرص، ومن حراس استجابوا للغوه ولما هو أكثر، إلى حـــراس لا يســـمع غـــير وقع أقدامهم، عري الزنزانة، ونتانة جوّها، وبرودتها، ووحشة الانفراد، ويا أيها المتروك وحده إياك أن تنهار!

تكـــوم علـــى نفسه ليقلل مساحة ما تلسعه برودة أرض الزنزانة من جسده، فتصلبت عضلاته في البرودة المستوطنة في الزنزانة وأوجعته. ففـــرد جسده فاشتد اللسع. وجرّب وضعاً وسطاً، اسند ظهره إلى الحائط المواجـــه للباب، الحائط الذي توسم أنه الأقل برودة، وثنى ركبتيه أمامه وأراح ساعديه عليهما.

كـــم إنســـان كان في الوقت ذاته يتعرض لمثل ذلك البلاء، هنا في البلد، في الجوار، في العالم. كم سجين كان يقبع مثله في زنزانة معزولة وهو مهموم بما هو فيه. كم بلد تحبس سلطاتها من يناوئونها. هل يعرف كل بلدان العالم، عددها، عدد ما استقل وما لم يستقل منها، أسماءها، كم عدد أعضاء الأمم المتحدة، شحذ ذاكرته فاكتشف أن الرقم غائب، حتى

هـذا الرقم. وانشغل باله، أهو الجهل وقد انتبه إليه لتوه، أم إن ذاكرته منهكة. وشاء أن ينشط ذاكرته، ربما ليستبعد تهمة الجهل، فاستحضر في خياله مصورات القارات، قارة إثر قارة، وحاول الإهتداء إلى أسماء البلدان أو حصر أعدادها، فلم تفض محاولته إلى يقين. ونبهه فشله إلى التناقض الذي وقع فيه، أن يعمر خياله بمصورات قارات الأرض فيما هو محشور في مساحة تكاد لا تزيد عن حاصل ضرب متر في مترين.

وحضرت سميرة، حضرت كما تحضر دوماً مع أي شيء يفكر فيه. كانت تتهمه بأنه يفرط في الاهتمام بالوضع العالمي، المجتمع الدولي وصراعات كتله، الهيئات الدولية وتأثيراتها، القانون الدولي وشرعيته، الرأي العام العالمي وضغوطه. وكان كثيرون غير سميرة يأخذون عليه هذا الاهتمام. الافتتان بالذات والاستهانة بما عداها، الذات وما فيها مما يفتن أو يسوء، العالم ومعضلاته، الرفاق الذين طالما جلدوه بمآخذهم عليه، وتأذي حبيس الزنزانة المسكونة بالعطونة والرائحة النتنة التي يبثها السطل اللعين، والأفكار السوداء، والهواجس، اختلط كل شيء بكل شيء وفقد قدرته على التمييز، وأحس بأنه على وشك أن يغمى عليه، فانتزع نفسه من قعدته وهرع إلى الباب ويا حارس! يا حارس! يا حارس! نداء تكرر، وخَبَطَّ على الباب رافق النداء، ودوار عصف عصفاً بالرأس الذي اسنده على الباب بعد أن تيقن من أنهم لن يردوا عليه.

- مرحباً بك يا رفيق خالد.

لم يكن يحلم. ولم يكن هذا وهماً. الصوت وهو أوضح هذه المرة.

- من؟

- أنـــا عـــبد الفـــتاح، كنت مع الرفاق في معسكر الأسرى واتهمت بتنظيم محاولة هرب، وأنا...

لم تتم الجملة، فجلبة الأقدام اقتحمت زنزانة عبد الفتاح. هو إذ حيّ، وهـــم أحـــياء رفاقه الذين أسروا معه، وها هو ذا عبد الفتاح صار في جـــواره. في زنزانة؟ ليكن، هو قريب منه وهذا يؤنسه. وتجددت جلبة الأقـــدام فـــي الممر، جلبة خطى منتظمة هذه المرة. وحدس خالد بأنهم قـــادمون إليه، فابتعد عن الباب واستعاد قعدته بجوار الحائط. كانا اثنين وقفـــا إزاء الباب، أشار أحدهما إليه ليتقدم نحوهما، وأحاط الثاني يديه بقـــيد حديـــدي. وفـــي الحجرة التي أخذ إليها، كان في الإنتظار الرائد صبري البشاشنة كما توقع.

كانـــت تلك حجرة صغيرة لكنها مفرطة في الأناقة. والرائد الجالس فـــي زيّـــه العسكري وراء المكتب كان هو الآخر بادي الأناقة. وحين أوقف الحارسان السجين في وسط الحجرة إزاء المكتب، تلقيا إشارةً ففكا قـــيد يديـــه، ثـــم تراجعا ليقف كل واحد منهما في زاوية من الزاويتين المواجهتين للجالس وراء المكتب. ولم يبد الرائد أي مجاملة، بل بدا كأنه لـــم يلتق خالد من قبل. وعندما هم خالد بالجلوس، انتهره صوت قاسي النبرة.

- إبق مكانك!

سقط، إذاً، البرقع. إلا أن هذا لم يفاجئ خالد.

- كنّا نتعامل بأسلوب مختلف ولم يتبدل من ناحيتي شيء، فلماذا...

- هنا لا يحق لك أن تسأل، وليس لك إلا أن تجيب على الأسئلة.

قـــال الـــرائد هذا بلهجة حازمة وبقي منصرفاً إلى تقليب أوراق في إضـــبارة موضـــوعة أمامـــه دون أن ينظر ناحية الواقف إزاءه، ولعله

انتظر أن يقول سجينه المشاكس شيئاً، فلما طال الصمت قطعه هو وهو يوجه إلى خالد نظرة حارقة.

- أعطيتك فرصة فلم تستفد منها. تعهدت أمام رؤسائي أن أصل إلى إتفاق معك بالتفاهم وطلبت منك أن تساعدني، فماذا فعلت؟ غلبك طبعك العنيد ورحت تلعب بذيلك. الآن، سيان عندي أن تقتنع أو لا تقتنع. ستفعل ما نريد إن أعجبك وإن لم يعجبك. وأتصور أن عندك فكرة كافية عن وسائلنا.

- أي وسائلكم؟ الترغيب أم الترهيب؟

- لم أطلب منك أن تتكلم. ستتكلم إذا طلبت منك، وستفعل ما أطلبه، فانس فلسفاتك! أعطيتك حق المناقشة فحاولت أن تستغلني، طلبت منك شيئاً تفعله بإرادتك فعاندت، الآن، بمختصر العبارة، ستلبي الطلب بإرادتي.

هيأة الذئب التي كانت مموهة بهيأة المحاور المزيفة، وأنيابه، هكذا فكر خالد.

- تريد بالتهديد ما أردته بالتفاهم.

- سدّ فمك! ضيعت وقتاً طويلاً في الإصغاء لفلسفاتك، لم أطول بالي قبلك على أحد، ربما غرك هذا فتصورت أني عاجز عن تكسير عنادك.

مرة أخرى، بدا أن الذي شدد العبارة الأخيرة قد تصور أن سجينه سيشاكس، ومرة أخرى تشاغل بأوراق الإضبارة. أما وقد بقي خالد صامتاً فقد وجه الرائد إليه نظرة فاض لؤمه منها فيضاً.

- إذا لـــم تفهم فسأشك في تقديري لذكائك. ولأن من طبعي إعطاء الفـــرص حتى لمن لا يستحقها فسأعطيك الفرصة كي تفهم بنفسك: لقد راقبنا صديقك الحارس وأنت تتبادل الهمس معه، فهل فهمت؟

شـــدد الـــرائد كلمتي السؤال. وأحس خالد بأن العينين المحيطتين به تترصـــدان رد فعله بانتباه شديد، فجهد كي لا يظهر عليه أي اضطراب أو تعكس صفحة وجهه أيّ تعبير. وحنق الرائد، فقام عن كرسيّه، وكرر سؤاله وهو واقف.

- ألم تفهم معنى كلامي؟

- فهمـــت بالطـــبع. كنت تراقب حارساً ما تكلمت أنا معه. ولك أن تعرف أني تكلمت مع كثيرين، فما الذي تريد أن أفهمه؟

- تقـــول حارساً ما؟ راقبنا الذي أحضر لك الطعام والنقود ورسالة سميرة حبيبة القلب، ألا يعني هذا شيئاً بالنسبة لعنادك، ألم تفهم ما الذي يمكن أن يعنيه؟

كان خالد قد فهم منذ أول كلمة، حدث ما توقعه فعثروا على ما خلّفه تحـــت البرش وحققوا مع الحراس وانتزعوا من أبي محمود إقراره بما قام به، وكان قد هجس بأنهم وصلوا إلى سميرة أو على وشك أن يصلوا إليها، فبماذا يفيده أن يفيدهم بأنه فهم.

- ليس في الرسالة ما يؤذي أحداً، لا بدّ من أنك قرأتها.

- ها أنت ذا تستخدم ذكاءك أخيراً، لكن على من؟ الرسالة لا تهمنا كما تصورت أنت حين تخلصت منها في المرحاض. ولماذا نهتم برسالة نستطيع أن نصل إلى صاحبتها.

وبالتشـــديد علـــى الجملـــة الأخيرة، وصلت رسالة الرائد إلى خالد بتمامها. لكن المسقط في يده واصل التظاهر بعدم الاهتمام. ولأن المعتد

بقدرتــه لم يتوقع أن يتجلد سجينه إلى هذا الحد، فقد انفجر حنقه صفعةً انصبت على وجه خالد ودوّى وقعها في الحجرة.

– مستحيل أن لا تفهم أن سميرتك وقعت في أيدينا!

الصــفعة وهــذا النــبأ في لحظة واحدة، صاعقة برقت لها عيناه. وبالرغم منها ظل صامتاً. أما الرائد فبدأ أنه صفع سجينه في لحظة فقد فــيها سيطرته على نفسه، فراح يدور في الحجرة وهو يفرك اليد التي صــفعت بالــيد الأخرى، كأنه يحاول أن يبرّد حنقه كي لا ينهال على سجينه بالضرب انهيالاً. وبعد عدة دورات، توقف الرائد فجأة، وهتف: هاتوها! فما أسرع ما أحضرت!

أدخلــت ســميرة وهي في ثوب نومها، فمها مكمم، ويداها مقيدتان وراء ظهــرها، وحولهــا حارســان يمسك كل واحد منهما بواحد من ذراعــيها ويشــده لكأنــه يخشى أن تفلت منه، فيلصق الشدّ ثوب النوم بجســدها ويــبرز ما لا تبرزه المرأة أمام الغرباء. واحتوى نظر خالد المشــهد وتمــلاّه حــتى قبل أن تنتبه سميرة إلى وجوده. أما هي فوقع نظــرها أول ما وقع على صاحب الوجه المتجهم الواقف وراء المكتب. ولأن الرائد وجه نظره ناحية خالد، ولأنها تبعت نظرة الرائد، فقد وقعت علــى رجلها الذي كانت هيأته تبثّ شتى التعابير. ولولا أن عيني خالد هما اللتان استحوذتا على اهتمامها لتعذر ألا يصعقها التبدل المريع الذي حــل به، الهيأة التي انحدرت إلى حد الزراية، وشعر الرأس، واللحية، والشــحوب، وكل شيء. أما وقد تواصلت العيون، فقد غفل الإثنان عن كــل مــا حولهما، وتناجيا، وتحاورا، وقالت العيون كل ما ينبغي قوله، وكــل هــذا فــي لحظة واحدة. وكما يحدث إذا تحاورا بالكلام، امتزج الشخصي والعام في حوار العيون، وما أسهل ما تفاهما!

لم يدرك الرائد ما تبثه العيون، لكنه أحس بأن كلاً من سجينيه يشجع الآخر. ولئن أحنقه عجزه عن الفهم، فقد أحنقه أكثر أن اللقاء الذي دبّره ليصعق خالد أفضى إلى عكس ما توخاه. ولكي يوقف البثّ غير المؤاتي، تعجل الرائد إخراج سميرة من الحجرة. وفيما الحارسان يسحبان الراغبة في البقاء سحباً، اكتسى صوت الرائد نبرة سطوة لم تظهر فيه من قبل، الذئب، وأنيابه، ومن ثم العواء لبثّ الرعب.

- الآن، نريد حديثاً نكتبه نحن وتقرأه أنت. ستقول إنك اكتشفت أن قيادة العمل الفدائي خائنة تعمل بأوامر جهة أجنبية، وستشتم الشيوعية والشيوعيين وتقول إن الإتحاد السوفياتي يتآمر على القضية الفلسطينية. ستعلن أنك اقتنعت بأن بلدنا هو الحارس الأمين على هذه القضية وهو لم يعاقب من عاقبهم من الفلسطينيين إلا لأنهم أساؤوا إليها أو خانوها، وستقول إن دولة الباشا، وهو من عاد اليوم بالذات إلى رئاسة الحكومة، هو صاحب السياسة التي ستعيد إلى أبناء فلسطين حقوقهم، وإنك فخور بالتعاون معه، وستحث كل فلسطيني عاقل على أن يتعاون معه.

أصغى خالد نصف منتبه لأن ذهنه ظل مشغولاً بسميرة وما يمكن أن يقع لها. وظن الرائد أن سجينه يستهين بما يمليه عليه، فانتهره.

- هل تصغي لما أقول؟

- ترى أني واقف أمامك وأنا مرغم على الإصغاء.

- ليس على الإصغاء وحده. سترى! العناد الذي ينشف رأسك سننزعه من هذا الرأس.

وبإشارة من الرائد، تقدم أحد الحارسين ناحية مدخل جانبي لم يلحظ خالد من قبل وجوده وفتح بابه ووقف ممسكاً به. وولج الرائد المدخل، ثم دفع الحارس الثاني السجين وراءه. ووجد خالد نفسه في قاعة فسيحة

رأى ما يشبهها لكنه لم ير أبداً ما يماثلها، وكانت تلك هي قاعة التعذيب فــي سجن المخابرات التي طالما فاخروا بأنهم جددوا محتوياتها، القاعة ذات الشهرة.

طاف نظر خالد على محتويات القاعة، فوقع فيها على ما يعرف وما لا يعــرف. ففــي صدر القاعة في مواجهة المدخل الذي ولجوه استقر مكتــب له هــيأة منصــة وعلى جانبيه فراغ. وفي موقع يتوسط القاعة انتصبت آلتان متجاورتان، الآلة التي تَشدُّ أطراف من يربطون إليها في اتجاهات متباعدة، والأخرى ذات المحور القائم الذي يحمل دولاباً قطره بطــول قامــة الإنسان، وهو الدولاب الذي يدور بالمربوط به بالسرعة التــي يحددها من يتولى التعذيب. أما بقية أرجاء القاعة فتوزعتها آلات أخــرى أصغر حجماً، وأحواض، ودواليب مفردة، ومناضد عليها أنواع شتى من الأدوات، وما إلى ذلك. وفيما عينا خالد تجوسان القاعة، ظلت عينا الرائد تراقبانه وترصدان ردود فعله. وقد مضى بعض الوقت قبل أن ينتــبه خــالد إلى العينين اللتين تلاحقان عينيه، وكان هذا وقتاً كفاه ليرســم رد فعلــه، فوجــه إلى الرائد نظرة تعمد أن تبدو عادية وأطال النظرة دون أن يتكلم، ثم تابع مشوار عينيه في القاعة. أما الذي تكلم في نهاية المطاف فكان الرائد.

- تفكر بقدرتك على الاحتمال، هل حزرتُ؟ تحسب، تجمع وتطرح وتقــدر أنــك ستحتمل. أعرف أن لك تجارب، وأنت تُعوّل عليها. لكني واثــق بأنك لم تجرب ما نهيئه لك وبأنك لن تحتمل. ولأن طبعي غلاب فإني أعطيك مهلة للتفكير. وقبل أن تقول نعم أو لا، قبل أن تتصور أني مغفــل أو متردد، اسمع: لست أنت الذي سيقدم العرض في هذه القاعة،

أنـــت ستكون متفرجاً، ستشهد عذاب شخصٍ آخر، ستختبر قدرتك على احتمال عذاب الأحبة.

هـــل هجس خالد بأن شيئاً من هذا قد يقع. يقيناً أن ذهنه لم يخل أبداً مـــن تصور أخطار تحيط بسميرة. لكن تصوراته، حتى أشدّها قتاماً، لم تبلغ هذا الحدّ الرهيب: أن تعذب هي من أجل الضغط عليه. لعله هجس بشيء عندما أنبأه الرائد أن سميرة صارت في قبضتهم، لكنه لم يتصور هـــذا الذي اهتدى إليه الرائد ليذله هو. هل غالط نفسه، هل تصور حقاً أنهـــم لاحقوا سميرة لمجرد أن يلقوا القبض عليها ويتكلفوا نفقات إقامتها عـــندهم. من الذي يحيط بما يمكن أن يفعله الإنسان بوعي وبغير وعي لينحّي عن باله الهواجس الموجعة. أما بعد الإعلان الصريح فلا مناص من تجرع الكأس المسموم، والسم يمزق الأحشاء.

– أنت لن تفعلها!

صـــرخة احتجاج لم تفعل شيئاً سوى أنها كشفت مقدار استفظاعه ما يعتزم الرائد فعله فقويت بها عزيمة الرائد.

– أعطيتك مهلة للتفكير. لكن لا تطمع، فلن تكون مهلة طويلة! قرر بسرعة فقد استدعيك في أي لحظة، وستكون هي هنا. أنتَّ أعقل من أن تترك حبيبة تتعذب بسببك، إمرأة وحبيبه، هل جربت وجع الروح؟

وجع الروح بدأ خالد يكابده منذ خلا إلى نفسه.

حضـــرت صـــورة سميرة التي رآها للحظات، سميرة الفارسة ذات الجمـــال الأخاذ. ما كان أفتن ما بثته عيناها وما كان أمجده. بثت الحبّ وقالـــت له: اثبـــت! الحبّ أخاذ لوحده فإذا اقترن به التحدّي فإنه يصير أيضاً مفخرة. لقد بدت فخورة به مثلما هو فخور بها. وها هو ذا الرائد قد خيّره بين إطفاء ألق الافتخار أو إطفاء ألق الحياة، ويا له من تخيير!

هـل سيحتمل أن يراها تتعذب؟ سأل نفسه ثم أمعن في السؤال، هل من حقه أن يتسبب في تعذيبها تحت أي ذريعة؟ إلا أن حاجته إلى تهدئة وجع روحه قلبت السؤال، فهل سيرضيها أن يتخاذل هو من أجل أن يحميها، أو أن تخاذله سيخيب أملها ويوجعها أكثر مما يوجعها عذاب الجسد؟ ألم تقل له عيناها إنها عازمة على تحدّيهم فبأي حق يخيبّ أملها وبأي إدعاء. لكن، بأي حق يأذن بأن تتعرض للتجربة هي التي لم تكابد التعذيب أبداً. تبثّ العينان ما نعزم عليه، أما التجربة، لماذا يدخلها في الاختبار، إنه متأكد من أن الرائد سيبلغ في قسوته حدّ النهاية، فماذا لو لم تحتمل سميرة، ماذا لو خذلها جسدها. هل هو حريص حقاً على مصلحة عامة أو إنها كبرياؤه. ومن المسؤول عن اتخاذ القرار إذا كان يمسها بمقدار ما يمسه، هل يحق له أن يقرر وحده فتدفع هي الثمن، تدفعه وجع جسد إن صمدت أو وجع ضمير إن لم تحتمل. لا يستطيع أن يزعم أنها مسؤولية مشتركة حتى لو أمكن أن يتشاورا بشأن القرار. فليس من العدل أن يطلب منها أن تحتمل وهو يعلم مسبقاً أنها لن تخذله. كما أنه ليس من العدل أبداً أن يطلب موافقتها على أن يتخاذل هو، إنه هو المسؤول وحده. هو الذي يأذن بأن تتعذب وهو الذي يتيح لها النجاة.

لو تعلق الأمر بتعذيبه هو لما كان ثمت مشكلة. لكن من ستصلب على الخشبة هي سميرة، وستصلب في سبيله. احتمل الفادي آلام الصليب ولم ينثن وظفر بمجد أبدي وأغلب الظن أن تضحيته أبهجته، فما الذي كان سيفعله لو خيّره جلادوه بين أن يكفّ عن بثّ رسالته وبين أن تصلب التي أحبته، هل كان سيحتمل رؤيتها مصلوبة في سبيله وهل كان الظفر بأي مجد سيخفف وجع روحه.

قالت عينا سميرة إنها ستثبت، قالت الحبيبة هذا وهي تتصور أنه هو المستهدف لتحثه على الثبات، فهل يتبدل موقفها لو عرفت ما هيء لها هي، لو شاهدت حجرة التعذيب. إنه يثق بقوة عزيمتها، يثق بنيتها الثبات، يعلم أنها ليست جبانة، وهذا يعني أن عذابها سيطول، فالرائد برم، وإحساسه بالفشل يجعله أشدّ قسوة...

- هل عذبوك يا رفيق خالد؟

اخترق صوت عبد الفتاح عذابات روحه. وكان أمامهما ثوان فقط قبل أن يسكتوه فليس في إمكان خالد شرح التعقيدات، ولماذا يشرحها لمن سيزيد شرحها عذابه.

- أبداً، كلام بكلام.

- في أي الموضوعات تكلمتم؟

اكتسى السؤال تلك السخرية التي أظهرت أن عبد الفتاح حزر أن في الجوّ شيئاً، هذا الشاب لا يخذله ذكاؤه أبداً، فجاراه في سخريته واثقاً بأنه سيفهم.

- ثقافة عامة يا عبد الفتاح، ثقافة الأسياد الذين يرون الآخرين عبيداً.

- الرفيق سعيد اعترف لي ونحن في معسكر الأسرى بأنه نادم على قلّة تعليمه، قال إنه لو تعلم لفهم لماذا تعاملنا السلطة هذه المعاملة بالرغم من أننا...

طغت جلبة الأقدام التي تكتم، لماذا يسكتون عبد الفتاح ولا يسكتونه هو؟ لم يجد للسؤال جواباً، لعلها تعليمات الرائد، يعذبون غيره، يسكتون غيره، ويبقونه هو لوجع روحه. عبد الفتاح في زنزانة قريبة، فأين

سميرة؟ كم كان غريبا بعد فراق شهور أن يلتقيا في السجن، في حجرة المحقق، وهي في ثوب النوم.

وتدفقت الذكريات والهواجس، المعاد منها والمستجد.

- قل لي وريّح بالي، هل عذبوك؟

- إلى أي حد تخاف التعذيب يا عبد الفتاح؟ أنت لا تسأل إلا عنه.

- من الذي يحبّ التعذيب، ألا تخافه أنت؟

وقبل أن يرد، امتلأ الممر بجلبة أقدام فاقت ما توقعه. ثم سمع حديثا يدور وراء باب زنزانته، وميّز صوت الرائد وهو يسأل عمن يكون السجين الآخر وما هي صلته بخالد. وسمع من أجاب بأنهما صديقان. ثم انفتح الباب وانتصبت أمامه قامة الرائد وفي يده أوراق.

- ستعدها ضعفاً فيّ، لكنّ الطبع غلاب. عدلت الشروط لصالحك، أمدد المهلة وأعطيك حق كتابة ما تقوله وانتقاء العبارات التي تلائمك، فهل تأخذ الورق.

- الورق آخذه، لكن ليس لكتابة ما تطلبه، في الزنزانة مع وجود هذا السطل يلزم ورق كثير.

ما الذي أفلت لسانه بالإجابة المستفزة، لماذا استعدى الرائد بأكثر مما هو مستعدى عليه، ألم يوضح موقفه بما فيه الكفاية فَلِم لم يكتف بتأكيده بأوجز عبارة، ما أكثر ما انتقد الذين يمارسون الاستفزاز المجاني وها هو ذا قد وقع فيه. وبحث عن عبارة تكون بمثابة مراجعة لما أفلت منه إلا أن الوقت لم يسعفه، فقد انفتل الرائد محنقاً وسمعه خالد وهو يصيح: هاتوا هذا الكلب الذي يعض كل يد تمتد إليه، هاتوه!

أخذوه إلى حيث توقع. وهناك، كان الرائد واقفاً وراء المكتب الذي يشبه المنصة وقد وقف إزاءه رجل ضئيل القامة وقفه انتباه. وقدر خالد

الـــذي وقـــف به حارساه عند الباب أن ضئيل القامة هو المشرف على القاعـــة وأنه يتلقى تعليمات رئيسه الحانق. وقد وشت استجابات ضئيل القامـــة هذا بأنه لا يفهم جيداً ما يقال له مما أوجب على الرائد أن يعيد ويكرر وزاد برمه. وحين فهم الرجل ما هو مطلوب منه كما بدا الأمر لخـــالد، أرسل ناحية خالد نظرة لم يلبث أن استردها قبل أن تفصح عن شـــيء وتـــابع الإصغاء. وبعد أن فرغ الرائد من ضئيل القامة، أصدر إشـــارة إلى حارسيّ خالد فاقتاداه إلى زاوية في الفراغ الذي على يمين المكتـــب يرى منها معظم القاعة ووقفا بجانبه. وجيء بسميرة، لم تكن مقـــيّدة اليدين هذه المرة ولم يكن فمها مكمماً. وما أن وقع نظرها على خالد حتى همت بالتوجه إليه غير أن أحد حارسيها صد حركتها قبل أن تخطـــو أي خطـــوة، فهمّت بقول شيء، فسدّ كفّ الحارس الثاني فمها. وتلقى أحد حراس القاعة إشارة فتناول كمامة من على منضدة وكمم فم الســـجينة. واستخلص خالد الذي يحيط به حارسان دلالة ما جرى، فلم يتحرك ولم يفتح فمه.

طاف في القاعة صمت حط ثقله على الموجودين فيها جميعهم وبدا كأنه هو الذي جمّد الأشياء. حتى الرائد الذي صارت له هيأة من يرتب عملية كبيرة صمت وسكن. أما المشهد كلّه كما احتوته عينا خالد فصار أقـــرب مـــا يكون إلى خشبة المسرح وقد احتل اللاعبون عليها أماكنهم وهم ينتظرون إشارة البدء.

وكمـــا لـــو أنها بداية عرض مسرحي حقاً، أصدر الرائد بنظرة من عينـــيه أمـــراً إلـــى الرجل الضئيل، فتوجه هذا إلى حيث تقف سميرة واقتادها إلى أن صارت بجانب المحور الذي يحمل الدولاب، ثم استدعى بإشارة من عينيه حارسين، وتعاون الثلاثة فشدوا جسد السجينة إليه.

جـــرى هذا كله دون أن يتبدد الصمت أو يُخترق ودون أن يبدو أن الحـــركة المحسوبة التي أدّاها ضئيل القامة والحارسان قد بددت سكون القاعـــة أو حتى اخترقته. وكان أول ما لاحظه خالد الذي تابعت عيناه أدق التفاصيل دون أن تلتقيا عيني سميرة أن بنية ضئيل القامة أمتن مما تـــنم عنه ضآلتها، وهذا هو ما شغل خالد نفسه به ليفرّ مما يوجعه، كما فرّت عيناه من عيني سميرة لحظة أن أوشكت العيون على التلاقي.

- أنت الذي يقرر، هل نتوقف أو نتابع، فأسمعنا قرارك كي تسمعه هي، هذه التي تقول أنت إنها غالية عليك!

لـــم يجب خالد فقد وجد أن الصمت أبلغ، بدن كل من وجد القاعة لم يكـــن هـــو يهـــتم إلا بســـميرة، وكان على يقين من أنها تفهم. غير أن إحساســـاً معقـــداً بالمســـؤولية تجاه المشدودة إلى دولاب التعذيب جعله يخفض رأسه. فلما دار الدولاب، لم يعد بمقدور شيء أن يبعد نظره عن المعذّبـــة. وحيـــن توقـــف الدولاب وصدمته إمارات الألم الشديد على وجهها، خفض رأسه ثانية.

- هل نكتفي أو نتابع، ألا تجرؤ على إعلان قرارك؟

جـــأر الـــرائد بتحدّيه. أما خالد فآثر فضيلة الصمت. ودار الدولاب تنفـــيذاً لأمـــر أصدره الرائد بصوت هادر، طالباً أن يسرّعوا الدوران. وقـــاوم خالد رغبته في أن ينظر إلى المعذبة، فظل مطرقاً إلى أن سمع صرخة مكتومة فرفع رأسه.

أغمـــي علـــى سميرة بأعجل مما قدر أيما أحد. ويبدو أن خالد كان الوحيد الذي فطن للسبب، إذا كان ما فطن له هو حقاً ذلك السبب، وهو الكمامـــة التـــي أبقوها على الفم. وهداه عذاب روحه إلى الاعتقاد بأن إغماءها السريع يقصر أمد عذابها، فكتم ما فطن له. ولكن عذاب روحه

لم يهدأ. فهل سيجازف الرائد بجولة أخرى؟ وإلى أي مدى سيصل؟ هل سيفطنون للكمامة؟ وإذا فطنوا، هل سيأذن الرائد برفع الكمامة هو الذي يخشى أن تخاطب سميرة خالد وتحثه على الثبات؟

أطفـــيء محـــرك الآلة. وتولى ضئيل القامة وحارساه فك الأربطة، وأنـــزل الجســـد الهـــامد عن الدولاب ومدد على الأرض، وتقدم الذي استدعي لإسعاف المغمى عليها، ففك الكمامة وباشر عمله.

- تعرف البقية، فهل نتابع؟

- تسألني كأنني أنا الذي يعذّب البريئة.

- البريـــئة؟ هـــل فـــيكم أحد بريء؟ بدل أن تتفلسف افعل شيئاً من أجلها، بريئتك هذه!

- صَعْبٌ عليك أن تفهم أن ما أفعله هو من أجلها.

راحا يتبادلان العبارات كأنهما يتبادلان قذائف، الرائد الذي رأى أن معنويات سجينه لم تتزعزع، وخالد الذي رأى أن الرائد انحدر إلى أحطّ درجـــات النذالة واللؤم. كان مرجل كل منهما يغلي، وما كان لأحد أن يحـــزر مـــا الـــذي ستفضي إليه الملاسنة بين الحانقين لو لم يفاجئهما، كلـــيهما، صـــوت سميرة الواهن وهي تردد: خالد، ساحتمل. وقد ترقب خـــالد أن يسمع المزيد، لكن كفّ أحد الحراس سدّت فم سميرة، وأصدر الـــرائد أمـــره إلـــى المسعف فكمم الفم من جديد، وأعيدت سميرة إلى الدولاب.

وفـــيما هم بانتظار الأمر بتشغيل الآلة، اخترق رنين الهاتف صمت القاعـــة، والرائد هو الذي التقط السماعة كأنه كان في انتظار المكالمة. وفهم الجميع أن أحداً ما يستعجل قدوم رئيسهم وسمعوا هذا الرئيس وهو يعـــتذر عن التأخير. وبدأ أن المكالمة أنقذت المعتد بنفسه مما كان فيه،

وقـــد صــــدر أمره إلى الرجل القصير بلهجة متعجلة: فكوها! أنا ملزم بالذهاب، ستأتيكم تعليمات جديدة.

- هل أدرتم حديثاً مفيداً؟

كـــان توقف التعذيب قبل أن تنهار هي أو ينهار هو قد بثّ في روح خالد ذلك الشيء الذي ينعش روح الإنسان إذا جاء الأذى أقل مما توقع. وبـــروحه المنتعشة في هذا النحو، أمكن لخالد أن يجاري مرح الذي لا يفارقه المرح في أي ظرف.

- أجل! جعلوني أؤمن بأن ليس في حياتنا ما هو أعظم من الحبّ.

- بـــودي لو يسمعك سعيد، فربما قرر أن يتعلم ليكتب الشعر. كنتم، إذاً، تتحدثون في الحبّ، فهل كان عذرياً الحبُّ الذي انشغلتم به؟

- بالك مشغول بالتعذيب دوماً، فهل...

فطن إلى هذه الحقيقة وأراد أن يسأل رفيقه عما إذا كانوا قد عذبوه. غير أن جلبة الأقدام قطمت سؤاله، وأعادته إلى نفسه.

كـــان خـــالد مشـــتت المشـــاعر، أراحه أنهما، هو وسميرة، اجتازا الامتحان الأول وكسبا جولة، وباح لنفسه بما كتمه حتى عنها، هو الذي خشـــى أن تعـــوزه القـــدرة علـــى احتمال عذابها أو أن تعجز هي عن الاحـــتمال. ولكـــن إحساسه بالمسؤولية ظل يوجع ضميره ويحزّ روحه حـــزاً. والهواجس لم تبرحه، فما زال أمامهما جولات، وهو يهجس بأن كـــل جولة ستجيء أقسى من سابقتها، فهل سيثبت إلى ما لا نهاية، هل ستثبت سميرة، وكيف ستكون العاقبة.

وقـــبل أن ينقضي وقت طويل منذ عودته إلى الزنزانة، جاؤوا إليه ثانية. وفي الممر، لحقه صوت عبد الفتاح الذي لا يخذله ذكاؤه.

- يبدو أن لديهم قصيدة حبّ جديدة طلبوك ليسمعوك إياها.

ومن جديد، انبسط أمامه المشهد السابق: الأشياء بتمامها، والرجال بمعظمهم، وسميرة مصلوبة على آلة شدّ الأطراف بدل الدولاب. لم يغب سوى الرائد وقد حلّ محلّه وراء المكتب رجل بدا لخالد أنه نائبه. وكان الرجل بادي النعاس مما وشى بأنهم أيقظوه لتوّه من النوم.

- أنا لا أعرف تفاصيل هذه القضية، إلا أن لدي أوامر محددة، وسيتوقف شغلنا إذا قبلت أنت ما طلبه حضرة الرائد منك.

تكلم الرجل بلهجة مهنية ليس فيها تحامل كما أنه ليس فيها تهاون. ومنى خالد نفسه بأن يكون النائب أقل قسوة من رئيسه. وعندما بدأ الشدّ، لم يخش خالد هذه المرة أن ينظر إلى سميرة. كانت تبذل مجهوداً هائلاً كي لا تتوجع بصوت مسموع بالرغم من أنها لم تكن مكممة. وأدرك خالد أنها تفكر فيه وتخشى أن يضعفه توجعها، فهتف بتأثير دافع لم يقو على صده: اصرخي! الصراخ يفيدك. وفيما الآلة تشدّ، راحت هي تصرخ، شدّة وصرخة، وسكون وصمت، ثم شدة وصرخة من جديد. فلما زادوا تواتر الشدّ، اتصل الصراخ، غير أن هذا لم يدم طويلاً فقد أطلقت المشدودة صرخة قصيرة كأنها شهقة، ثم صمتت، ولم تعد تحس بشيء.

لم يجتح ضئيل القامة إلى أوامر النائب الذي راح يغالب النعاس وهو واقف، ولم يحتج المسعف إلى إيضاح. وهكذا، أنزلت المصلوبة ومددت على الأرض كما في كل مرة، وانصبت على الوجه دفقات الماء، وتوالت محاولات الإنعاش بالمواد والأدوات التي كانت حاضرة، اتبع الطقس كله. وطال أمد الإغماء مع أن الطقس استكمل، وطال بالتالي أمد القلق، قلق خالد وقلق الآخرين الذين خشوا على ما بدا لخالد أن يسجل عليهم الرائد أنهم أخطأوا أو فشلوا. فلمّا رمشت جفون المغمى

عليها، استنفرت حواس الجميع وراحوا يراقبون عودتها إلى الوعي؛ لقد اطمأنوا، فَشُغلُهم في غياب الرئيس كما في حضوره لم يخرج عن الأصول. أما خالد الواقف بعيداً فقد التقط البارقة من رد فعل المحيطين بسميرة، فانطفأ بعض قلقه؛ لم يكن الأذى أقل مما توقع، لكنه لم يكن أكثر.

وحين فتحت العائدة إلى وعيها عينيها، انفض عنها المتحلقون حولها وبقي المسعف وحده وتسنى لخالد أن يراها. كانت تبحث عنه بنظراتها إلى أن وقعت عيناها عليه فبثتا رسالة فصيحة التعبير، إنها تقدر معاناته. ولئن أمكن لخالد أن يهديء مواجعه منذ توقف الشدّ فإن تلك النظرة هيجت المواجع من جديد واستأنفت سكاكين الألم رقصها في أحشائه: أن تقدر هي معاناته وتكاد تشكره على ثباته، هذا أوجع من أن تبقى المواجع معه هادئة!

رجعوا إلى شغلهم. وصار الجوّ أثقل والصمت. ولم يعد يسمع إلا صراخ التي تشد الآلة أطرافها. والتقطت عينا خالد امارات برم على وجه النائب، نفاد صبره والنعاس الذي يكاد يسقطه على الأرض وضيقه بهما معاً. لكن خالد لم يجد الفرصة للتمعن في حال الرجل. فتوجع سميرة الذي لم يعد يسمع إلا بصعوبة استحوذ على مشاعره. وأحس خالد بأنه يشف ويشف كل شيء حوله، جسده ليس جسداً والمكان الذي هو فيه ليس مكاناً، والناس، والأشياء، شفّ كل ما في القاعة وفقد حضوره ولم يبق إلا الألم، ألمها وألمه وقد امتزجا. اختفى الوجود وصار الألم هو الوجود. ما الذي كان يتقطع، أطرافه أم أطرافها، أي أحشاء رقصت فيها السكاكين، أحشاؤها أم أحشاؤه. لم يعد يميز. وحلّت اللحظة التي أدرك خالد فيها أنه لن يحتمل المزيد. وكاد يصرخ أن قفوا.

بل إن الصرخة تشكلت في أعماقه، لكن صوته الذي يخنقه الألم لم يسعفه لإخراجها. ولأن الآلة توقفت في تلك اللحظة فإن توقفها هو الذي أنقذه من الاستسلام.

طال أمد انغلاق الأجفان. ولم يبد الجسد أي همة. وقلق المسعف فأعاد جسّ النبض وتحقق من أن الأنفاس تتردد، ثم نظر إلى الرجل الناعس نظرة وشت بأن المغمى عليها قد نجت لكنها لن تحتمل مزيداً من الشد. وهز الرجل رأسه هزّة المحتار وغامت نظرته، فغالب نعاسه، وأدار قرص الهاتف، وقال شيئاً بصوت منخفض، وأصغى. وما أن فرغ الرجل من المكالمة حتى تعجل الإنصراف ناسياً أن يصدر التعليمات اللازمة. لكن الآخرين فهموا أن شغل أمسيتهم تلك قد أوقف.

وفيما هم يراقبون سميرة ويتطلعون إلى أن تصحو ليتمكنوا من الإنصراف، اقترب خالد من الجسد الممدد فلم يعترضوا، وقعد بجانبه وراح يمسّد الوجه الذي اشتدّ شحوبه فلم يصدّوه. وفتح خالد الأجفان فأفزعه أن العينين لا تطرفان، فتطوع المسعف بطمأنته إذ أمسك يده ووضعها ناحية القلب لتحس نبضه. لم تمت، قالت نظرة المسعف لخالد. وبحركة عفوية، انحنى موجوع الروح ليقبل العينين المغلقتين، إلا أن صوت ضئيل القامة لجم حركته: كل ما تفعله ممنوع. وكان الصوت آمراً لكنه خلا من الضغينة. وبإشارة من هذا الرجل، تقدم حارسا خالد منه، وأنهضاه فاستجاب لهما، ثم اقتاداه إلى خارج القاعة. وعندما احتواهم هواء الباحة، عقّب أحد الحارسين: لماذا تجرّون على أنفسكم البلايا. ولم يكن في صوت الحارس هو الآخر أي ضغينة. وعقب الثاني بصوت مشفق: الله المنجي، وتوقف خالد في الباحة مستثمراً عطف

الحارسين فليّن عضلاته وعبّ ما أمكنه من الهواء الطلق فلم يستعجلاه ولم يتحركا إلا بعد أن تحرك هو.

- هل عذبوك يا رفيق؟
- أنا الذي عذبت نفسي.
- أيسمحون بهذا؟

وبالــرغم من أن جلبة الأقدام تأخر وصولها، فإن عبد الفتاح لم يبد راغــباً فــي الــثرثرة ولم يمعن في المزاح. أما خالد فإن العبارة التي صــدرت عــنه بعفوية نبهته إلى شيء حقيقي، تعذيب النفس صار أداء لواجب. وحضرت مشاهد أمسيته القاسية دواراً عصف برأسه، وصارت الزنــزانة أســطوانة تدور به وداهمته الحاجة إلى التقيؤ، فلم يخرج من جوفــه إلا ما ملأ فمه بالطعم المرّ البغيض، فاشتدت الحاجة إلى التقيؤ واشــتدّ دوران الأسطوانة. وحين استعاد خالد وعيه، حضرت المشاهد مــن جديــد، فخشي أن يغمى عليه ثانية، فاستنجد بهواجسه لتعينه على الــيقظة، وحضرت سميرة التي أبعدوه عنها قبل أن تفيق من إغمائها، فحضرت معها الشكوك التي تعذبه بشأن موقفه وطول عذابها.

- يا رفيق خالد! يا رفيق خالد!
- أنا هنا، لا لزوم للصراخ.
- ناديتك مرات كثيرة فلم ترد.
- ربما كنت نائماً.
- خفت أن تكون أحاديثهم أثقلت عليك، فلم...
- اطمئن!
- كــيف أطمئــن؟ ما يجري لك، وأنا، اليوم لم يقدموا لي وجبات الأكل، ولا أعرف متى سيبدأون أحاديثهم معي.

ولـــم تـــبلغه بقية العبارة، لقد أسكتوا رفيقه. وجلبة الأقدام الجارية تبعـــتها بعد قليل جلبة أقدام منتظمة. وكانوا قادمين إليه. وقد أخذوه إلى الحجرة الصغيرة.

- اجلس!

بعد المعاملة القاسية، حيرته الدعوة إلى الجلوس. وفكر في أن يقول شيئاً يختبر به النوايا، غير أن الرائد سبقه إلى الكلام.

- وعدتك بأن لا تتعذب ما دمت موكلاً بقضيتك، هل تتذكر؟

- وأتذكر الإنذارات أيضاً، وما فعلته...

- لمـــاذا تـــرفض أن تقرّ لي بأي فضيلة، ألم أف بوعدي لك، هل مسّك أحد؟

- وفيت به بطريقة أشهد على أنها كانت فذّة!

بـــثّ خالد سخريته وذهنه منشغل باستقصاء النوايا. غير أن الرائد المنشـــغل بما جاء به إلى مكتبه في هذا الوقت المتأخر تجاهل سخرية سجينه.

- إذاعتكم وإذاعات الذين أعطوكم إذاعتكم تقول إنك تتعرض عندنا للتعذيب وتزعم أن حياتك مهددة، تقول إنك مشرف على الموت. وأنت تعلم أن هذا كله كذب في كذب.

- ماذا قالت الإذاعات عن سميرة؟

بسؤاله هذا، شاء خالد أن يذكّر الرائد بأن سميرة تتعذب حقاً وحياتها مهددة فعلاً. غير أن الرائد لم يفطن إلى المناورة، بل أمعن في ما شرع فيه.

- يثـــيرون ضـــجة حولهـــا هي الأخرى. نسوا أنها حرّضت علينا وقاتلت ضدنا.

وهكـذا، أهـدى الـرائد إلى خالد المعلومة التي كان يتحرق على معرفتها. وإذاً، فقد توصل الرفاق إلى الاستنتاج الصائب وتصرفوا كما ينبغـي. وإذا أقر الرائد بضغوط الإعلام فهذا يعني أن السلطة تتعرض لضغوط شتى لن يقر بها.

- خلـق لـك تعذيبها مشكلة، أنت الذي تصورت أنك تعذبها لتحل مشكلة.

- أنـت مسـؤول عن تعذيبها، مسؤول بمقدار ما أنا مسؤول على الأقـل. وبينـنا فارق ليس لصالحك. فأنا أؤدي واجباً أتولى مسؤوليته وأدافـع به عن مصلحة البلد. أما أنت فعمن تدافع، أنت تكابر ولا تدافع إلا عن عنادك.

- لماذا هي إذاً، لماذا ليس أنا...

- اخـترت أسلوبي وليس لك أن تحاسبني، لكل شيخ طريقته، ربما فضـل غـيري أسـلوباً مختلفاً، أما أنا فهذا ما أفضله، وسأتابع إلا إذا تخليت عن عنادك.

ولما لم يشدد الرائد أي عبارة خلال جدل الحجج هذا، فقد استخلص خالد أن الذي استدعاه على غير توقع لم يطرق بعد الموضوع الذي جاء من أجله.

- ليس العناد هو ما تطالبني بالتخلّي عنه.

تـبرّم الـرائد واتخذ سمتاً أكثر رسمية وجهامة، ونبر: أحضروها! وأظهر أنه غير راغب في مواصلة الحديث، لكنه لم يصمت طويلاً.

- وددت لـو وجدتك مستعداً للتفاهم. كنت سأطلب طلباً صغيراً، إن قبلته فستخفّ أوجاع السيدة. غير أني وجدتك كما أنت: ناشف الرأس.

ورقة جديدة، إذاً، فلماذا تردد الرائد في كشفها، ولماذا لا يحثه خالد.

– طلب صغير؟ أنت تسمي كل ما تطلبه طلباً صغيراً.

– طلـــب بسيط، كلمة بصوتك تقول فيها الحقيقة عن وضعك عندنا، كلمة قصيرة أعطيك مقابلها كلمتي بأن تخفّ أوجاع السيدة.

– تـــريد أن أرد علـــى مـــا يذاع في الخارج، أليس هذا هو الطلب الصغير؟

– الطلـــب البسيط. قل الحقيقة فقط! لا أحد يجبرك على الكذب. قل إنك لا تتعرض للتعذيب!

– هـــل علـــي أن أقول إن سميرة لا تتعذب هي الأخرى وإننا، هي وأنا، في أتم صحة، هل أقول إنكم تقدمون لنا ثلاث وجبات كل يوم فيها أطايب الطعام وإن كلاً منا ينام على...

أدرك الرائد أن سجينه يرفض فلم يأذن له بالاسترسال في السخرية، واحنقه فشله حتى في هذه المسألة الصغيرة، فانزاح الغطاء عن بخاره.

– ســـوف أحطم هذا الرأس العنيد، وهذا من أجل الذين يشككون في فعالية وسائلنا.

وبعـــد أن هدر الرائد بوعيده، وصلت سميرة وأوقفها حارساها عند الـــباب بانتظار التعليمات، غير أن الرائد لم ينتبه إليهم، بل استغرق في التفكير. حيّر الوضع سميرة، الرائد الغارق في التفكير وخالد المسترخي علـــى كرسيّ. وبثت عينا المحتارة سؤالها، فردّ خالد بصوت مسموع: غمرني الرائد بلطفه. ونبه الصوت الرائد فهتف: لتجلس السيدة! ووشت هيأة الخارج من استغراقه لتوه بأنه توصل إلى قرار ما وبأن ما توصل إلـــيه قد برّد حنقه وروّق مزاجه. ورأى السجينان الرجل وهو يقوم عن كرســـيّه وينتقل إلى الناحية التي يجلسان فيها ثم يقف بينهما وقد اكتسى وجهـــه ابتسامة إن لم تطمئنهما فهي على كل حال ابتسامة. وفي وقفته

تلك، أخرج الرائد علبة سجائره، وقدّم سيجارة للسيدة وأشعلها بنفسه، ثم قدّم واحدة لخالد وناوله القداحة وانتظر إلى أن أشعل السجين سيجارته، فاستعاد القداحة وأشعل واحدة لنفسه.

– حبيبك يستهين بعذابك، أقول هذا لك وهو يسمع. أما أنا فسآمر بأن تعرضي على طبيب وتقيمي في حجرة مهواة ومشمسة وتحصلي على أحلى معاملة. السيدة التي يهملها حبيبها نهتم نحن بها.

لم يش صوت الرائد بأنه يسخر إلا إذا عدّ اللؤم البارد سخرية. وقد أفزع هذا اللؤم خالد. أما سميرة فبدت محتارة، استشعرت شيئاً غريباً لم تتبين كنهه فاحتارت. واستخلص كل منهما أن ظاهر الكلام يخفي ما لا يريح.

هذه المرة، لم يمكن الرائد سجينيه من التفاهم بلغة العيون، بل تعجل إخراج سميرة من الحجرة، وما أن مضى حارساها بها حتى اكتسى وجهه مسحة لؤم لا يجتهد في إخفائه.

– مفتون بإظهار بسالتك؟ سأختبرك لأعرف كم أنت باسل حقاً. ولن أستحق الرتبة التي أحملها إن لم أليّن رأسك.

7

أخــذت ســميرة إلـــى حجرة المعاينة. وأجرى طبيب السجن كشفاً شـــاملاً؛ قـــاس ضـــغط الدم، وعدّ النبضات، وجس البطن فاطمأن إلى ســـلامة الأحشـــاء، وتأكد من سلامة الرئتين، واختبر مرونة المفاصل، وفحـــص العينيـــن والأذنين والأنف والبلعوم؛ فعل كل ما يفعله الطبيب لمريضة أوصي بها، ثم جزم: البنية قوية والحالة أقل سوءاً مما قيل لي، وأعطى سميرة أقراصاً وشراباً، وكان هذا هو كل ما تحتاج إليه لتصير أقوى من فرس، كما قال.

ومـــن حجـــرة المعاينة، أخذت سميرة إلى الحجرة التي وعد الرائد بـــنقلها إليها فوجدت أنهم أحضروا زكية إلى هذه الحجرة، وكانت زكية قد قاسمتها الزنزانة السابقة. ولم تكن الحجرة إلا زنزانة أوسع، غير أن لهـــا نـــافذة تجلب النور والهواء، وفيها سريران مما يستخدمه الجنود، وعلـــى كـــل سرير فرشة ووسادة وبطانية. وكانت زكية منصرفة إلى ترتيـــب الســـريرين بهمـــة من ترتب حجرة نومها، فخفت سميرة إلى المســـاعدة وهـــي سعيدة لأنهم لم يفرقوا بينها وبين المرأة التي جعلت الزنزانة علاقتها بها حميمة.

– ألم يشدّوك؟ لا يظهر عليك أنهم شدّوك هذه المرة.

– أخذوني إلى الطبيب.

تصـــورت ســـميرة أن صـــاحبتها تمزح. فلما أرتها هذه الأقراص والشـــراب ونبهـــتها إلـــى حقيقة وجودهما في الزنزانة الجديدة، اتجه تفكيرها في منحى آخر.

- لن تقولي لي إنه وافق على ما طلبوه منه!

- عيناه قالتا لي إنه ثابت.

- عيناه! عيناه قالتا، عيناه فعلتا، تجعلينني أتصور أنه يدخلك بعينيه وليس بـــ...، أنت تفهمين.

المـــرأة العملية لم تجار المرأة المحبّة في ثقتها بما تبثه عينا الحبيب الذي لا تعرفه هي. لكن سميرة رجتها أن تكفّ عن بثّ الشكوك، فقالت زكـــية: رجلـــك أنـــت أعرف به. وكانت المرأتان قد فرغتا من ترتيب السريرين فاستلقتا عليهما وفي ذهن كل منهما الخاطر ذاته: مهما حصل فهـــنا أفضـــل من تلك الزنزانة اللعينة. والواقع أن شكوك زكية أثارت بعـــض القلق في نفس سميرة، وما أن استرخت حتى باحت بهذا القلق. ولأن ســـميرة رأت صاحبتها مهمومة، فقد طلبت منها أن تقصّ تفاصيل ما جرى. فروت سميرة أدق التفاصيل، ما رأت وما سمعت وما أحست بـــه وما تلقته من عيون الحبيب. وتفحصت زكية الوقائع بإمعان فتنحت شكوكها. لكن الإحساس بأن في الجوّ هذا الشيء الغريب الذي لا يتبين أحد كنهه لم يتنح.

- لن ينفعك القلق، خذي الدواء وتعافي وليكن بعد ذلك ما يكون!

- لكني لاحظت، ربما تستهزئين بي، عيناه قالتا لي إن قلقه شديد.

وفـــيما سميرة تعيد بثّ ما التقطته مما بثته عينا خالد، انفتح الباب، ودخـــل حـــارس يحمـــل صينية ويبحث بعينيه عن مكان يضعها فيه. فتناولـــت زكـــية الصينية ووضعتها على الأرض بين السريرين. وفيما

الـباب ينغلق، انفتحت عيون المرأتين من الدهشة: خبز وفير، وطبق فول مجلل بالزيت، وزيتون، وجبنة، وإبريق شاي.

- إنه ينفذ وعوده، إذاً، رائد المخابرات الذي يحبسنا.

هكذا هتفت زكية. أما سميرة فعاودتها الهواجس.

- لست مطمئنة. أتذكر قلق خالد.

- تتذكرين عينيه؟ بقلق وبدونه الطعام حضر ونحن بحاجة إليه، كلي خبز السلطان وادعي على يديه بالكسر!

وأقبلتا على الطعام، زكيّة بشهيتها التي لا يوهنها أي قلق، وسميرة بحاجتها إلى استعادة قواها. وبعدها، طاب للمرأتين الاسترخاء.

ما أشدّ ما أعجبت سميرة بزكيّة حتى لقد غبطت نفسها لأنها حظيت بصحبتها في هذا المكان. رأت فيها السيدة المقتدرة التي طالما تمنت أن تكونها، العملية، التي لا يعيقها شيء ولا يثقل عليها شيء مهما ثقل، التي عركتها الحياة فصارت تأخذ الأمور كما هي ولا تتطلب، التي تعطي دون أن تمنّن وتأخذ دون حرج. وما أسهل ما تقاربت المرأتان منذ يومهما الأول معاً! وفي المساء الذي رجعت فيه سميرة مهدودة بعد جولة التعذيب الأولى، تلقتها زكية بمشاعر أخت كبيرة تنتظر أوبة أختها الصغيرة التي أطالت السهر خارج المنزل. وما كان أحنّ زكية وأقدرها وهي تعالج أوجاع الصغيرة وتواسيها! دورتا دولاب أو ثلاث وتسمين هذا تعذيباً، فاسمعي إذاً! أرادت أن تهون على الموجوعة فروت ما خبرته هي؛ ولقد كان لزكية حتى في هذا المجال خبرة يُعتدُّ بها. فحين كانت هي في السن الذي لسميرة، كان في منزل أسرتها مطبعة سرية تطبع المنشورات التي تفضح السلطة. ويوم داهموا المنزل، تمكن أبوها من الإفلات، ولم يجدوا أحداً من إخوتها، فأخذوها هي وطلبوا منها

أسـماء مـن كانوا يجبئون من أجل المطبعة والأماكن التي يتردد أبوها عليها. ولما أنكرت معرفتها بأيّ شيء وتظاهرت بالبلاهة لم يصدقوها، بـل أخضعوها للتعذيب واستمر التعذيب أياماً وليالي. أتدرين كيف كان التعذيـب وقـتها؟ لـم تكـن عندهم الآلات الكهربائية التي لها أزرار وعـدادات. كانت أحقادهم هي الأزرار ونزواتهم هي العدادات. وكانوا يسـتخدمون الكرابيج المجدولة من أسلاك الحديد والتي ما حطّت على جسـد إلا شقت الجلد وهرأت اللحم. وكان عندهم الكماشات التي تنتزع الأظافر، والبنسات التي تهرس حيث تُمسِك، والأسياخ المحماة في النار، والسـجائر التـي يطفئونها في مواضع الجسد الحساسة، والقناني التي يولجونها في الأقفية. بالرغم من هذا، لم يأخذوا منها في التحقيق لا حقاً ولا باطلاً، وها هي لم تعد تتذكر مما جرى لها إلا كيف تحدت قسوتهم وسخرت من وسائلهم.

وفـي الزنـزانة الجديدة، بعد الوجبة السخية، فيما هما مسترخيتان، روت زكـيّة حكايـة حـياتها، روت لتسلي صاحبتها المهمومة وتبث كعادتهـا العـبر. فقد رأت زكية النور في بلدة صغيرة في هذه البلاد. وكـان أبوها الذي لم يرث مالاً أو عقاراً يتعيش مما يتيسر من أعمال. وفـي عـام شحّت فيه فرص العمل، انتقل أبوها إلى حيفا، جذبته إلى المدينة الفلسطينية سمعة مينائها الشهير والفرص المتوفرة فيه. وهناك، تعرف الشيوعيون على من صار عاملاً في الميناء وجذبوه إلى حزبهم. واسـتكملت هـي نشأتها وتفتح وعيها في هذا الجوّ. وفي وسط هؤلاء الشـيوعيين، تعـرف عليها شاب من أعضاء حزبهم فتحابّا. كانت هي آنذاك ابنة خمسة عشر ربيعاً وكان هو أول شاب في حياتها، وما أسرع مـا تـزوجا. لكنها لم تهنأ بزوجها طويلاً، إذ إن الأوضاع التهبت في

حــيفا كما في فلسطين كلّها، وانضم هو إلى الثوار الذين قاتلوا الإنجليز المستعمرين واليهود الصهيونيين، واستشهد قبل أن تكمل سنة زواجهما الأولـــى. ثـــم أخرجـــت هي من حيفا في عام النكبة كما أخرج سواها ورجعت مع أبيها وبقية الأسرة إلى بلدتهم الصغيرة. ولما لم يظفر الذي ســـرعان مـــا نضبت مدخراته القليلة بعمل في بلدته فقد نزح إلى هذه المديـــنة وتبعته الأسرة. وهنا، صار الأب يعمل أو يتعطل حسب تقلّب الأحـــوال، واستعاد صلته بالشيوعيين فتوزع وقته بين الحبس والحرية، حســـب تقلب الأحوال أيضاً، ووجدت زكية نفسها مدفوعة إلى الإسهام في نفقات الأسرة، فتعلمت الخياطة.

وفـــي المرة التي دوهم المنزل بسبب المطبعة، ظلوا يلاحقون أباها إلى أن عثروا عليه فأطلقوا سراحها هي. وقد قضى أبوها تلك المرة في الســـجن سبع سنوات متصلة خرج منه في ختامها جثة في نعش. مات أبـــو زكـــيّة قبـــيل الحرب التي أكلت إسرائيل بها بقية فلسطين وسيناء والجولان. وزاد العبء على زكيّة، ولكنها كانت على قدّه، فصارت تلك الخياطة التي يقصدها ناس حيّها وغيرهم. وفيما هي غارقة في العمل، عـــرفها شـــاب هـــو ابن واحدة من زبوناتها وتعلق بها بالرغم من أنه أصـــغر منها. وحين طلب هذا الشاب أن يتزوجها، تمنعت، فارق السن والخبرة وما إلى ذلك، إلا أنه تشبث بطلبه، وظل يحلف أنه يحبّها، ولم ينفك عنها حتى بعد أن تكرر صدها له. عندها، قالت لنفسها ولأمّ الشاب التـــي رجـــتها أن تســـتجيب له: لم لا؟ إن كان أصغر منها سناً فهي لا تنقصـــها الخـــبرة اللازمة لتبقيه سعيداً معها، وسيجد فيها الراعية إلى جانـــب الزوجة، وإذا صدق حبّه فسيجد الحبيبة أيضاً. وقد صارت هي هـــذا كلـــه لـــزوجها وأكثر، وهو لم يندم أبداً. وعندما ظهر الفدائيون

وتسابق الشباب في الانضمام إليهم وشاء هو أن يصير فدائياً، شجعته، وهي نفسها انضمت إلى الإتحاد النسائي الذي يؤيد الفدائيين ونظمت فيه دورات لتعليم الخياطة.

أولاد؟ لم تنجب زكية أولاداً. زواجها الأول لم يطل أمده ولم تنجب ولم يتسن لها الوقت لإجراء الفحوص ومعرفة السبب. أما بعد الزواج الثاني وبعد أن تأخر الحمل، فقد فحصها أطباء كثيرون وجزم كل واحد منهم أن حالتها ميؤوس منها. ولكنها لم تصدق أياً منهم ولم تيأس. وقد قالت لزوجها بفصيح العبارة: إن كنت مستعجلاً فسأختار لك بنفسي زوجة جديدة، أما إن صبرت فلا بدّ من أحمل ذات يوم، وتعهدت أن يكون أول خلفتها غلاماً.

- تستهينين بتعهدي؟ فأعلمي، إذاً، أني حامل الآن في شهري الثالث! وتسألين كيف حملت ما دام زوجي خارج البلد، فأعلمي، إذاً، أني لم أحمل من غيره، بل منه هو، ذهبت إليه وحملت وسوف أخلّف غلاماً، ومن يعش ير. وإذا طالت حكايتنا هنا وولدته في السجن فما المشكلة؟ أليس من الخير أن يختبر ابني السجن من أول عمره بدل أن ينهي عمره فيه كما حصل لأبي.

وفكرت سميرة، مع زكية يبدو كل شيء ميسّراً، تماماً كما هو مع خالد، كل منهما عركته الحياة وراكم خبرة وتعود على احتمال المشاق. وهي نفسها لم تعد كما كانت. ولو قيل لها وهي في الكويت أو الإسكندرية أو القاهرة إنها ستنتهي إلى زنزانة في سجن خاص في بلد يتقاتل تنظيم تنتمي هي إليه مع سلطته وأنها ستحتمل السجن والتعذيب، فهل كانت ستصدق. وهل سيصدق أمها وأبوها وأخواها كم تبدلت خلال أقل من سنتين.

- أنت شاردة، فأين وصلت؟

- أهلي، أفكر في أهلي الذين لم أرهم منذ تعرفت على خالد.

- لم أتوقع أن تشردي بعيدة عنه، فكيف هو خالدك هذا؟

- طويل، أسمر، شعره...

- لا أسألك عن شكله، أسأل عن الذكر، أنت فاهمة.

- مثل هذا السؤال ونحن في ما نحن فيه!

- ماذا يهمّ؟ لو سألتني عن زوجي فسأحكي لك.

لم تسأل أي منهما الأخرى؛ فقد فتح الباب فجأة، وظهر الرائد أمامها وفي يده رزمة ملابس، وبدا أنه فوجئ بوجود زكية، ولما عرف من هي عقّب ساخراً.

- آه، موزعة البريد! زوجك يسلم عليك ويطلب أن لا تنتظري رجعته فهو باق عندنا.

- تقصد أبا محمود، هو أخو زوجي، عمل سجاناً وهو الآن مسجون، فما الفرق.

ولم يظهر الرائد أنه مهتم بما تقوله زكيّة أو حتى مصغ إليه، بل توجه إلى التي جاء من أجلها.

- هل تحسنت يا سميرة؟

- أنا كما تراني.

- بعد الغداء ستكونين في أحسن حال، ستقومين بجولة مع الحبيب في الهواء الطلق، جولة طويلة من أجلها أحضرنا لك من ثيابك هذه الثياب، وأم باسم تسلم عليك، ألا يرضيك هذا؟

وجّه إليها سؤاله وهو يبتسم، الابتسامة التي يسممها اللؤم، ولم ينتظر الإجابة.

- الطعام، الطبيب، وملابس الخروج التي جلبها لك نظيفة ومكوية، وهذه الجولة. لا أدري. يلعب في عبّي مائة فأر، ولكني لا أدري.

- هل تظنين أني أنا التي تدري؟

وبعد وجبة أخرى أغنى من السابقة، أخذوا سميرة وهي في ملابس الخروج إلى الحجرة الصغيرة، فيا للمشهد الذي وقعت عليه عيناها: العدوّ والحبيب معاً، وهما في انتظارها ليبدأوا الجولة! كان الرائد في بذلة مدينية كاملة في أتم الأناقة. وكان خالد قد استعاد هيأته المألوفة، مهندماً وممشط الشعر ومحلوق اللحية، ولولا هزاله لبدا أفضل مما كان قبل أن يسجنوه. وفيما عينا خالد تبتسمان وهما تتلقيان سميرة التي تبدلت هيأتها هي الأخرى، احتفظ الرائد بسمت الجدّ الذي يسربله.

- سنزور مكاناً خارج المدينة، وستعاملان معاملة الزوار، إلا إذا خالفتما تعليماتي.

وعدّد الرائد تعليماته، أن لا يتبادل خالد وسميرة أي حوار، وأن لا يتحدثا مع أحد إلا إذا أذن لهما، وأن يطيعاه ولا يسببا له أي حرج. ثمّ أخرجتهم سيّارة أنيقة من المبنى المنغلق على ما فيه إلى فضاء المدينة، هي في المقعد الأمامي والرائد وراء المقود وبينهما حارس، وهو في المقعد الخلفي بين حارسين. وعبرت السيارة شوارع المدينة دون أن تتوقف عند نقاط التفتيش المبثوثة فيها، ثم سلكت الطريق الممتد في الخلاء وزادت سرعتها. وعند نقطة في منتصف المسافة بين المدينة والبلدة التي تليها، انعطفت السيارة في طريق غير معبد فانخفضت السرعة. وما أن قطعوا بضع كيلومترات على الطريق الوعر حتى لاح أمامهم معسكر قائم وسط الخلاء الذي لا يحيط النظر به. وقدّر خالد أن

هــذا هو المعسكر الذي يحتجزون فيه من أسروهم من الفدائيين، وتذكر رفاقه وما حكاه عبد الفتاح عن وجودهم فيه، فراوده الأمل بأن يراهم.

عندما أنشيء هذا المعسكر قبل عام، قضت طبيعة مهمته بأن يكون مؤقــتاً ثــم ظــل مؤقتاً، فلم يقم فيه بناء، ولم تزرع شجرة، ولم يمهد طريق، ولم يكن فيه إلا خيام يحشدون فيها الأسرى منثورة على أرضه الوعــرة وبضــع بــراكات خشبية خصصت للإدارة ونوم الحراس، والســياج، وأبراج الحراسة. وفيما السيارة تقترب، راح المشهد يفصح عــن تفصــيلاته، وصــار بالمستطاع تمييز جماعات الرجال المنثورة بجـوار الخيام وناسها الذين أخذوا يتنبهون لقدوم الزوار. ولكي تعرف سميرة ما يعرفه، هتف خالد: رفاقنا الأسرى. وكان الرائد يراقب سجينه فــي المرآة، فالتفت إلى الوراء لحظة، ثم عاد إلى المرآة وعقب بلهجة من يجيب على سؤال: نعم، هم في رعايتنا بعد أن أنقذناهم من استغلال قيادتهم لهم.

ومــا أن ولجــت السيارة بوابة المعسكر حتى نشطت حركة الخطى المــتجهة لملاقاتهــا واكتنفتها النظرات المتفحصة. وعندما أوغلت في فضــاء المعســكر وهي تتهزهز فوق أرضه الوعرة وتقترب ببطء من بــراكة الإدارة، كانــت جماعات الرجال قد تقاربت وتشكل حشد أحاط بالقادميــن وواكب سيّارتهم. وطافت عيون السجينين على الرجال الذين لــم يحظــوا بأي عناية منذ أزمان، الهيئات الزريّة، والأجساد الهزيلة، والوجوه الشاحبة، والبؤس واليأس والكلال. وبحثت عينا خالد عن رفاقه الذيــن أســروا معه فلم تقعا على أي منهم، إلا أنهما وقعتا على وجوه مألوفــة لــم يتذكر أسماء أصحابها، وقد بشّ بعض هذه الوجوه بوجهه وازورّ بعضها. وحين لم يبق بين السيارة والبراكات سوى ثلاثين متراً

أو أربعين، كان الحشد قد أحاط بها إحاطة تعذر معها أن تتقدم، فأوقفها الرائد وهو برم، ونزل، وتبعه الآخرون. وتشكل رتل صغير، الرائد في مقدمـته ووراءه حـارس، ثم خالد ووراءه حارس، ثم سميرة ووراءها الحارس الثالث. وانفتح في الحشد شقّ عبره الرتل. وأمام البراكة، عند الحـدّ الـذي مُنع الحشد من تجاوزه، وقف قائد المعسكر، وهو ضابط يحمـل رتـبة عقيد، وضباطه وقفة تهيؤ وكل منهم في زيه العسكري الكـامل. واستقبل الرائد بتلك الحفاوة التي يجعلها الإفراط في المجاملة مصطنعة، حفاوة ضباط الإدارات العسكرية بضابط المخابرات وتزلفهم له.

كـان العقـيد أكثر المستقبلين حفاوة بالرائد وأشدهم تزلفاً. وقد همّ العقـيد بالسـلام علـى خـالد وامتدت يده نحوه لكنه تراجع وبدا عليه الارتـباك. والتقط خالد دلالة هذه الحركة: لقد أخطرت إدارة المعسكر مسبقاً بقدومه مع الرائد.

ولم يلبث أن تقابل جمعان: الأسرى وقد احتشدوا في مواجهة البراكة يفصلهم عنها سياج من الجنود المسلحين، وضباط المعسكر والزوار وقد وقفوا على مصطبة خشبية متصلة بالبراكة.

- جئناكم بواحد من قادتكم فقولوا له ماذا تريدون.

بهذه العبارة خاطب العقيد حشد الأسرى. فاختلطت الردود، فصارت ضجيجاً لا يتبيّن سامعه ما يقال فيه. وارتبك العقيد، وطال ارتباكه دون أن يهـتدي إلى أسلوب مناسب لإتمام ما بدا أنه كلف به تكليفاً. فتدخل الرائد، وهو الذي تكلم.

- قـــائدكم لـــن يسمعكم بهذه الطريقة، فلننظم الكلام! نريد أن يسمع رأيكـــم بوضـــوح تـــام. سأسألكم أسئلة وأنتم تجيبون. قولوا نعم أو لا، ليعرف رأيكم!

وانتظر الرائد إلى أن هدأ ضجيج الحشد تحت وقع نظراته ولم يبق غير الصمت والترقب.

- هل تريدون البقاء هنا؟

- لا!

- لو أطلقنا سراحكم فهل تحملون السلاح ضدنا مرة أخرى؟

- لا!

- هل تثقون بقيادتكم التي تخلّت عنكم؟

- لا!

هـــدرت اللاءان الأولى والثانية بوضوح لم تشبه شائبة. أما الأخيرة فجاءت أقل صخباً وامتزج بصخبها إجابات أخرى. واكتفى الرائد بهذه الأســـئلة فطلـــب مـــن الحشد الإنصراف، ثم تقدم هو الجميع إلى داخل الـــبراكة، وتوجه إلى مكتب العقيد وجلس إليه، ودعا خالد وسميرة إلى الجلوس قبالته فيما بقي العقيد واقفاً بين يديه. واستل الرائد إضبارة من كومة أضابير موضوعة على المكتب، وراحت أصابعه تعبث بأوراقها.

- تعيشان أوهام البطولة، فعن أي شيء تدافعان وفي سبيل ماذا؟ إن لـــم تكتفـــيا بما سمعته آذانكما فانظرا وأقرآ! هذه طلبات استرحام كتبها فدائـــيوكم، دققـــا في التواريخ، إنها طلبات يوم واحد فقط، وفي كل يوم يكتـــب فدائـــيوكم طلبات ويسترحمون. فَقدتُم كل شيء، القيادة هربت، والمقاتلون خنعوا.

وفيما هو ماض في الكلام، راح الرائد ينتزع من الإضبارة ورقة إثر ورقة ويضع ما ينتزعه أمام خالد وسميرة بالتتابع. ولما لم تمتدّ يد أي منهما إلى أي ورقة ولم يبد أن كلامه أحدث التأثير الذي توخاه، توقف الرائد عن انتزاع الأوراق وصمت. والذي تكلم هو خالد وقد وجد الفرصة ليحاجج ضابط المخابرات أمام المحتفين به.

- حظرت علينا أن نتكلم إلا بإذن منك، فهل تأذن الآن؟ إن كنت تخشى شيئاً فلن ألح.

- أسأت فهم ما قلته لكما. يهمني بالطبع أن أسمع رأيكما.

- هل جئت بنا لتجبرنا على الاستماع للأسرى الذين لم تتح لهم إلا أن يرددوا كلمة لا وتطلب أن نقرأ استرحامات كتبها أسرى يائسون؟

- اشرح لي، إذاً، كيف أقنعك وأقنع هذه المفتونة بك بأنكم خسرتم كل شيء، كيف أهديك إلى التعاون معنا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه؟

- لن أشرح أي شيء، ما بيننا لا تسوّيه الشروح. لكني أسألك: ما الذي تكسبونه إذا ذل الفدائيون. تقول إنهم خنعوا، لنفترض أن هذا صحيح فما الذي جعلهم يخنعون. أسرتموهم في المعارك، لم يكونوا خانعين، فما الذي فعلتموه بهم. تعزلون الناس في هذا الوعر، وتمنعون عنهم أي اتصال، وتحرمونهم من معرفة ما يجري حولهم، وتجوّعونهم، وتصبّون عليهم...

منذ راح خالد يتكلم، انشدّ إليه الحاضرون في البراكة كلهم، حتى العقيد المرتبك همد اضطرابه وصار يصغي. وهذا هو ما انتبه إليه الرائد الذي أحسّ بالحرج فأحنقه حرجه وصار عليه أن يجاهد كي لا ينفجر. ولعله فكر في وسيلة يسكت بها من أذن له هو نفسه بالكلام دون أن يبدو أنه نادم على الإذن، فلم يهتد إلا إلى أن يتجاهله ويتخطاه،

وهكذا، توجه الرائد إلى العقيد وتحدث بصوت تعمد أن يطغي على صوت خالد.

- هل تواجهكم أيّ مشاكل؟

ولم يفطن العقيد إلى مناورة الرائد، سحبه السؤال فجأة من انشداده إلى ما يقوله القائد الفدائي السجين فأخذه على محمل الجدّ، وأجاب بلهجة مفاخرة.

- الآن، لا. الذي نظم محاولة الهرب أرسلناه إليكم وجماعته الذين كلمتمونا أمس عنهم هيأناهم للترحيل بانتظار أوامركم. وكل شيء هنا تحت السيطرة، كما تحبّون وزيادة.

ولم يجد الرائد، بعد أن نجح في صرف الانتباه عن خالد، بداً من مجاراة العقيد.

- أرسلهم إلينا اليوم، تأكد من الحراسة!

غاب عن بال الرائد أن خالد تبادل الحديث مع عبد الفتاح، ولعله لم يعرف أصلاً أن الذي نظم محاولة الهرب حكى لخالد عليها. وبهذا السهو، وبحوار الصدفة بين الرائد وعقيده المفتقر إلى النباهة، عرف خالد أن رفاقه الذين بحث عنهم سوف يجاورونه في السجن منذ يومه ذاك. أما الرائد الذي لم يبد أن الزيارة أسعدته فقد قام من مقعده وفحّ آخر تهديداته.

- عنيد، لا فائدة، لكنك سترى آخرتها قريباً.

وفيما هم راجعون إلى السيارة، وقع نظر خالد على الذين يفكر فيهم، فاحتذب نظر سميرة إلى حيث يقفون، وأبطأ الاثنان سيرهما، ولم ينتبه إليهما الرائد الذي بلغ السيارة وراح يتبادل حديثاً هامساً مع العقيد. وفجأة، هدر صوت سعيد: قالوا لنا إنك خنتنا وبعتنا من أجل إمرأة، وأنا

لا أصدق، ولا أحد منا يصدق. وقبل أن يحيط بهما الحراس ويدفعونهما دفعــاً إلـــى السيارة، تمكن خالد من الجهر بعبارة واحدة: ما زلت كما تعرفونـــي لـــم أتبدل، واطمأن إلى ردّ فعل رفاقه حين رآهم يصفقون ويحتضن واحدهم الآخر.

عكـــرت هـــذه الواقعة مزاج الرائد زيادة على ما هو معكر، فغادر المعســـكر دون أن يودع الذين استقبلوه، وخلّف العقيد مرعوباً هو الذي تلقى منه نظرة حارقة، ولم يرد تحية حراس البوابة. وقاد الرائد السيارة حـــتى علـــى الطـــريق الوعر بسرعة وبغير تركيز. وفي المبنى الذي رجعـــوا إليه، صدرت عن الرائد كلمة واحدة إلى الحراس: خذوهما! ثم غادر السيارة بنزق وتوجه نحو مكتبه.

- كيف كانت الجولة مع الحبيب، ماذا قالت عيناه هذه المرة؟

- لا تمزحي يا زكية، الأمر جدّ، أنا خائفة!

- شدّوك شدتين فصرت تخافين، فكيف لو شدّوا أكثر!

- خائفة عليه. لو رأيت ما رأيته في عينيه، لن أقول أكثر مما قلت، أنا خائفة عليه.

- خير لنا أن ننام. وإذا سمعت شخيري فاعدلي رأسي ونامي!

أغفـــت ســـميرة قـــبل أن تسمع أي شخير، وكان نومها عميقاً، ألا يقولـــون إن المقهـــور ينام بعمق، وهي إن كانت قلقة فقد كانت مقهورة أيضـــاً. ولـــم تستيقظ على وقع أقدامهم حين أقبلوا. أما على جلبة فتح الـــباب فقـــد هبت من نومها وهي ما تزال نصف غافية. ورأت بعينيها نصف المفتوحتين زكية جالسة على حافة سريرها وسمعتها تنهرهم: ما الـــذي جاء بكم في هذا الوقت. وسمعت أحدهم يذكر اسمها ويقول إنهم جـــاؤوا لأخذها. فاستوت جالسة على حافة السرير، وقالت وهي تفرك

عينــيها لتطرد بقايا النعاس إنها ستبدل ثيابها، وطلبت أن ينتظروها في الممر. غير أن الذي تكلم أول مرة قال بلهجة لا تأذن بالمناقشة: ستأتين كما أنت. في المرات السابقة، ذهبت سميرة معهم وهي في ثوب نومها ولــم تأبه لغرابة الوضع لأنه لم يكن في حوزتها غير هذا الثوب الذي اعــتقلوها وهي فيه، أما وقد صار في حوزتها ملابس خروج فقد صار الوضــع محرجاً، لكن الحراس لا ينصاعون إلا لأوامر الرؤساء.وزكية نفســها هوّنت الأمر: بهذا الثوب أو بغيره، أنت لست ذاهبة إلى حفلة، فما الفرق؟

لــم يكــن فــي حجرة الرائد أحد. إلا أن شميم الخطر كان يملؤها، الشــميم الذي لا تدركه الحواس، بل يلتقطه الشعور وحده. وعندما دخل الــرائد والحــراس يدفعــون خالد وراءه، اشتد شعور سميرة بالرائحة المنذرة.

- طالت هذه القضية، طالت أكثر من أي لزوم.

كان الرائد حانقاً ووجه ملاحظته هذه إلى خالد بلهجة متوعدة. وكان خالد هو الآخر حانقاً.

- أنت الذي بدأ الحكاية، فلماذا لا تنهيها؟

- لن تكون هناك حكاية لو تخليت عن عنادك. منذ البداية، قلت لك إنــنا سنحصــل على ما نريد وليس أمامك إلا أن تفعل ما نطلبه، لكنك تعــاند وتدفعني دفعاً كي أصير قاسياً. أسوأ ما فيكم أنكم تجبروننا على أن نصير قساة.

- كأنك لم تكن قاسياً أبداً!

لا تجيز الحصافة السخرية من حانق، خصوصاً إن كان ذا سطوة.

- تحاسبني؟ لم يبق إلا أن يحاسبني مهزوم مثلك. يظل الواحد منكم علـى غـروره حتى ورقبته تحت الحذاء. سأجعلك تندم ندماً لم تحسّ بمثله، أقسم أنك ستندم كما لم تندم من قبل.

قـذف الرائد عباراته قذفاً وهو مهتاج. وشدد العبارة الأخيرة فجعلها التشـديد فحـيحاً يقطـر منه السم. وبقي الذي بدا لخالد أن حنقه يلسعه مهـتاجاً حتى بعد أن صمت. ودار في الحجرة الصغيرة بخطى نزقة ثم وقـف لحظة قذف خالد وسميرة خلالها بنظرة لاهبة، وبعدها فتح الباب المفضـي إلـى قاعة التعذيب وصرخ: تعال انظر! وتعالي معه! وسبق خـالد سـميرة إلى الباب لكنه تجمد قبل أن يلجه. وتبعته سميرة، فوقع نظـرها على جثة شابّ ممددة في الموقع الذي يمددونها فيه كلما أغمي علـيها، وسـمعت تفجع خالد: كنت أتساءل أين أخذوك يا عبد الفتاح! وأراد خالد أن يلج الباب إلا أن الرائد صدّه وأشار إلى الحراس فأعادوه إلى وسط الحجرة وأقفلوا الباب.

لـم تعرف سميرة من هو صاحب الجثة المسجاة في القاعة، إلا أنها أدركـت كم هو عزيز على خالد. وراقبت الذي صعقه المشهد، فبدا لها أن هموم الدنيا كلها حطت أثقالها على كاهليه؛ شحب وجه خالد شحوباً يذكر بشحوب وجه الجثّة، وتجلى هزال جسده فكشف كم صار ضعيفاً. أما أشد ما أثار قلق سميرة فكان البريق الذي راحت عيناه تبثانه، بريق الصعقة التي أحست هي بأنها تحرقه.

- بطلك الصغير لم يكن سوى خرقة وما أسرع ما تهاوى!

- أنتم الذين قتلتموه.

- تهـرب من الواقع، بطلك مات بسببك، أبى أن يخونك، هكذا قال هـو. عـندكم: رؤية الواقع خيانة والعمى هو البطولة. أردت أن تكون

بطلاً، والصغير اقتدى بك فمات بسببك. وعندك: ليمت من يموت، المهم أن تظل بطلاً.

صار كلام الرائد فحيحاً متصلاً كأنه خارج من مخزن طافح بالسم. ولم يجد خالد ما يقوله، لم يجد القدرة على قول شيء، خنقه أساه، وثقل عليه الإحساس بالمسؤولية، قتلوا عبد الفتاح، فمن الذي قد يصير التالي.

– طلبنا من بطلك طلباً أبسط من الذي طلبناه منك فرفض. قال إنه لا يخون قائده، كلمة الخيانة مطبوعة طبعاً على ألسنتكم، الخيانة والبطولة، الخيانة أو البطولة، الوهم الذي لا وجود له والوهم الذي لا لزوم له، لا تستطيعون العيش على أرض الناس كما يعيش الناس، العناد، العناد الغبيّ، هذا هو ما يميزكم.

ولما استمر صمت خالد، عنف هياج الرائد وظل يفح سمّه وصار يخلط العبارات أو يكررها أو يلفظها ناقصة. وتناثرت من فم المهتاج نتف أظهرت ما جرى. فقد عرضوا على عبد الفتاح أن يضعوه مع خالد في زنزانة واحدة فيستدرجه إلى أحاديث يرسمون هم خطتها ليسجلوها، ومنّوا الشاب بالإفراج عنه إذا أدى المهمة.

– كل منكم يريد أن يصير بطلاً، وأنت، أنت بالذات، تحبّ أن تصنع بطولتك على حساب آلام الآخرين.

تشديد الجملة الأخيرة نبه خالد إلى أنه كاد ينسى وجود سميرة في الحجرة فوجه إليها نظرة مديدة. وتبع الرائد نظرة خالد فوجه سمّه إلى التي كاد هو الآخر ينسى وجودها.

– تأملي فيه! تأملي ودققي! هذا هو بطلك الذي يلذّ له أن تتألمي في سبيله ويرفض أن ينهي الحكاية.

لم تكن سميرة مصغية إلا إلى ما تبثه هيأة خالد وعيناه، ولم تفكر إلا فـيه، وقد أدركت كم صار الموقف شاقاً عليه، تعذيبها هي، وقتل عبد الفـتاح، وما لا يدري أحد مما قد يأتي؛ إن الرائحة التي أشعرتها بدنو الخطر ما زالت تسكن الجوّ وتبث نذرها.

– تصـمتان؟ حكيت ما جرى لصديقكما الذي رفض فرصة الحرية كي تبصرا الواقع، ذكرت سبب موته كي تفهما، من يعاندني يدفع الثمن لا محالة، لا أطيق الباحثين عن البطولة، البحث عنها هنا عبث وتضييع وقت.

ظـل الـرائد يرمي سجينيه بحنقه إلى أن أوقفه الإعياء أو، ربما، اقتناعه بأن لا فائدة من الزعيق. واحتفظ خالد وسميرة كلاهما بالصمت إزاء الـرائد دون أن يكفّا عن التحاور أحدهما مع الآخر بلغة المحبين. وانـتهى الأمر بأن منح الرائد السجينين فرصة قال، كما قال كل مرة، إنهـا الأخيرة وحذرهما من أن ندمهما سيكون حارقاً إذا لم يستثمراها. والحقيقة أن طبيعة الفرصة الممنوحة وشت بأنها قد تكون حقاً الأخيرة. وقـد استخلصا كلاهما أن الرائد الذي يحرقه حنقه وتعجله لم يمنحهما هـذه الفرصـة لـو لـم يبيت النية على أمر خطير. لقد منحهما خلوة يتناقشـان فيها بحرية كما قال، وغادر هو وحراسه الحجرة وبقي خالد وسميرة وحدهما.

– ضعي في حسابك أنهم يسمعون حديثنا حتى لو تهامسنا!

– كيف نناقش، إذاً، بحرية؟

فـي سجن المخابرات لا تتوفر أي حرية ولا ينجو أحد من الرقابة حتى لو كان في المرحاض. بالرغم من هذا، استثمر خالد الفرصة حتى يشـرح لسميرة ما لم تشرحه لغة العيون، وتكلم بعجلة، هو الذي حدس

بـــأنهم قد يقطعون الخلوة في أي لحظة. فعلوا ما فعلوه وفي جعبتهم ما هـــو أســـوأ دون شـــك، هكذا بدأ خالد حديثه، ألم يأمر الرائد بإحضار رفاقهم إلى السجن. والهدف واحد، وهو هدف مزدوج: إشعار الآخرين بـــأنهم يُـــؤذون بســـبب قائدهم لتحريضهم ضدّه، وإشعار القائد بأنه هو المســـؤول عما يلحق بناسه وإثارة ضميره عليه، اللعبة التي يتصورون أن تنتهي بتركيع القائد وتيئيس الآخرين. لعبة قذرة، قالت سميرة ليدرك خالد أنها فهمت. وأكمل خالد. قذرة؟ نعم إلا أن أيّ قذارة لن تمنعهم من الذهاب فيها حتى النهاية، وهو لن يسمح لهم بأن يركعوه، وقدرته على الثـــبات مرهونة لقرارها هي، لقدرتها على الاحتمال. وصاغت سميرة موقفها في كلمة واحدة: فاهمة. وكان الفهم موافقة والتزاماً، والتقط خالد مغزى الكلمة الواحدة بتمامه فلم يطلب المزيد.

حـــتى ذلك الوقت، كان يراهن على تفاهم ضمني مع سميرة، تفاهم عقدتـــه العيون المترامقة. أما وقد أعطته كلمتها سافرة فقد أحس نحوها بامتنان شديد، امتنان غمر كيانه، وهمّ بأن يحتضنها. إلا أن باب الحجرة انفتح قبل أن يحتويها ذراعاه. وظهر حارسان معهما نقالة اتجها بها إلى القاعة ثم رجعا وعليها الجثة.

كـــم تاقت نفس سميرة إلى الاختلاء بخالد منذ فارقها آخر مرة قبل شـــهور، وكـــم تطلعت إلى مناجاته وهيأت ما ستقوله له. ويا للمفارقة الموجعـــة! توفـــرت الفرصة، فأي خلوة وأي مناجاة، شميم الأخطار، وهواجس التعذيب والموت!

- هل لاحظتِ النظرة المتجمدة في عينيه؟
- كيف لا ألاحظها.

- مـــات بقربـــي كثـــيرون، وأقفلت عيون بعضهم بيدي، ماتوا في التدريـــب، أو أثناء التسلل إلى مواقع العدوّ، أو بسبب الغارات، أو في القتال، وكان من السهل قراءة ما تجمدت عليه نظراتهم. أما عبد الفتاح الذي قتله التعذيب، عندما رأيته في التلال أول مرة ظننته...

لم تكتمل الجملة، فقد غصّ حلق خالد بما ظل يغالبه منذ رأى الجسد المسجى. وودت سميرة أن تقول شيئاً، أن تواسي رجلها، أن تقوي يقينه بصواب القرار الذي اتخذاه بالرغم من كل النذر، فلم تهتد إلا إلى الكلمة المكررة: فاهمة. وفي اللحظة التي استحوذت عليها الرغبة في احتضانه ومـــدت ذراعـــيها نحـــوه، في هذه اللحظة بالذات، داهم الرائد الحجرة مداهمة وراح يهدر.

- تركـــتك معـــه لتقنعيه بالكفّ عن تعذيبك لا لتسمعي محاضراته، تحلميـــن بالـــبطولة، خولة بنت الأزور، وربما جان دارك. تحلمين مثل بطـــلات الأفـــلام وتريدين أن تكوني البطلة التي يفتخر حبيبها بها. هنا ليســـت ســـينما وأنت لست انجيلا ديفيز، أنت غبية مثله، كنت مع رأس ناشـــف واحـــد والآن همـــا اثنان، ولن أكون ابن أمي وأبي إن لم أليّن الرأسين.

وبإشـــارة من الرائد، أحاط حارسان بسميرة وآخران بخالد. ووقف الجميع في انتظار تعليمات توجسوا أنها ستكون خطيرة. وطال الانتظار وثقـــل خصوصـــاً علـــى السجينين اللذين توقعا الأسوأ. وتشاغل الرائد بتقليـــب أوراق أمامه دون أن يركز على أي ورقة، ثم صدرت كلمته: خذوهما!

- ها هم لم يشدّوك هذه المرة.

- حصل ما هو أخطر...

- هل اعتدى الرائد عليك، أعني: هل...، أنت تفهمين؟
- كيف جاءتك مثل هذه الفكرة؟
- لأني أتوقع منهم كل شيء.
كان أخذهم سميرة في وقت متأخر قد أقلق زكية فعلاً وحرمها النوم. فلمـا رجعـت رفيقتها سليمة، هدأت واعتدل مزاجها وسمعت ما حكته سـميرة دون أن تقاطعهـا. أمـا سميرة فظلت خائفة، على خالد، على نفسـها، على الذين أحضروا من المعسكر. وما الذي كان من شأنه أن يهدىء خوفها هي التي لم تر إلا ما يخيف.
- بماذا تنصحين؟
- إجلسي واهدئي!
فجلسـت سـميرة، لـيس أخذاً بالنصيحة، ولا لأنها هدأت، بل لأن المساحة التي كانت تتخبط فيها أضيق من أن تتسع لحركتها.
- أنت لا تشعرين بالخطر الذي يتهددهم كما أشعر أنا به.
- هـم معـتادون علـى الخطـر فلا تنشغلي بهم، فكري بنفسك، والأفضل أن تنامي، والصباح رباح.
لم تستجب سميرة. فشدت زكية البطانية على جسدها وغطت رأسها بطـرفها، تصـبحين على خير، ثم لم يلبث أن ارتفع الشخير. وهم لم يتأخروا. التقطت المسهدة وقع أقدامهم في الممر وهجست بأنهم قادمون إلـيها. وعـندما فتحوا الباب، كانت هي قد نهضت واقفة. ولما أمروها بالمجـيء معهـم، كما هي في ثوب نومها، فكرت في إيقاظ زكية، ثم عدلت عن الفكرة واكتفت بطبع قبلة على رأس النائمة المغطى بالبطانية التي كفت لحظتها عن الشخير. وحين أفضى الممر إلى ممر أفسح منه تُـرى المديـنة وسـماؤها من نوافذه، وقفت إزاء نافذة مشرفة، ومدّت

نظـــرها في الظلام المنقط بأضواء كليلة، وعبّت أنفاساً عميقة، ثم تبعت حارسيها اللذين تركاها تنعش نفسها.

لـــم يـتوقفوا فـــي الحجرة الصغيرة، بل ولجوا باب القاعة وأوقفها الحارســـان عـــنده. وكان في القاعة كل من رأتهم فيها من قبل ما عدا الـــرائد، وقد أضيف إليهم الرجال الذين أحضروا من المعسكر ورفيقها باســـم وأبـــوه وعدد وفير من الحراس. ووزع الموجودون على أنحاء القاعـــة وفـــق نظام بدا لها أنه أعد مسبقاً. أوقف خالد في الزاوية التي يوقـــف فيها كل مرة، ووقف إزاءه هذه المرة حارس في يده بندقية. أما القـــادمون من معسكر الأسرى وباسم وأبوه فصفّوا إلى الحائط القريب مـــن زاوية خالد، ووقف إزاءهم صف حراس في أيديهم بنادق وصلت حرابها بها. وفي وسط القاعة، وقف الرجل ضئيل القامة ووراءه أربعة حراس بغير بنادق وأمامه منضدة طويلة وعريضة حلت محل آلة الشدّ التي نحيت جانباً. ومع استحكام الصمت والسكون، أحست سميرة بأنها تســـمع هســـيس الخواطـــر التـــي تدور في الرؤوس وما تبثه العيون المـــترامقة، ولـــم تشعر أبداً بأنها غريبة. لقد تولاها شعور المقبل على جماعة يعرف أنها تنتظره وأنه لن يلبث أن يصير واحداً منها.

- من أنتم؟

اخـــتارت الســـؤال الـــذي تعرف بعض جوابه ليكون فاتحة ميسرة لحديث ظنت أن بإمكانها تبادله مع رجال خالد. وكان سعيد هو أول من قـــدم نفسه، فجهر باسمه واسم القرية التي جاء منها، ووجه إلى السائلة نظـــرة صافية، وشاء أن يتابع الكلام، لو لم يصل الرائد إلى القاعة في تلك اللحظة فيلجم وصوله صوت سعيد.

اقــتحم الــرائد القاعة وهو بادي النزق، ووقف بنزقة إزاء سميرة الموقوفــة عند الباب، وصرخ: أما زلت تشجعينه؟ قذف الرائد سجينته بســؤاله المســتنكر، ودفعت يده رأسها وهو يقول إنه رأس ناشف، فبدا كأنــه يلكمها. وكادت سميرة تفقد توازنها لو لم تنتبه إلى نفسها بسرعة. واضــطرب صف الرجال، فلاحظت سميرة وقتها فقط أن أيديهم مقيدة خلــف ظهورهم. وخطا سعيد إلى أمام، فرفع الحراس بنادقهم. وأرسل خــالد نظــرة إلى سعيد، فتردد هذا لحظة واحدة ثم أطاع نظرة قائده، ورجع إلى الصف.

- بنادق الحراس ملقمة، والأوامر صريحة.

بهذه العبارة التي شدد كلماتها كلها، أظهر الرائد يقظته وأكد سطوته وأعلــن عزمه على أن لا يتسامح مع أي بادرة تذمر. وبإشارة منه، هو الــذي وقف وراء المكتب بهيأة ربّان سفينة واقف وراء عجلة التوجيه، خطــا ضــئيل القامة نحو سميرة وأمسك بمعصمها وقادها إلى المنضدة وطلــب منها أن تصعد إليها. وقد صعدت سميرة وهي خالية الذهن مما ينــتظرها علــى منضــدة خالية. ولما لم تتلق التي انتصبت واقفة على المنضــدة أمــراً جديــداً، فقد راحت تنقل نظرها بين خالد وبين الرائد وتبحــث عن إيضاح. وبإشارة أخرى من الرائد، تقدم الحراس الأربعة غير المسلحين ووقفوا إلى جانبيّ المنضدة، اثنان إلى كل جانب. وانتظر الــرائد إلــى أن تمت حركة حراسه، ثم توجه بنظره إلى صف الرجال المقيدين.

- قــائدكم الــذي أســلمكم في التلال إلى الأسر يريد هنا أن يصير بطلاً. طلبنا منه طلباً صغيراً فتدلل. حاولنا أن نقنعه فعاند، ضغطنا عليه فتظاهر بالشجاعة. الآن، سنختبره أمامكم.

حتى تلك اللحظة، لم يكن خالد قد اهتدى إلى دلالات المشهد الذي أعدّه الرائد كما تعدّ المشاهد على مسرح. أما بعد تشديد العبارة الأخيرة، وبعد أن رأى وقده الشرّ في عينيّ الرائد، فقد فطن خالد إلى دلالة ما يجري واتسعت حدقتاه.

– لا أظن أنك ستجرؤ!

كان هذا من خالد توجع طريدة فاجأتها رمية صياد. أما الرائد فبدا غير متأكد مما إذا كان سجينه يستفهم أم يتحدى.

– أنت المسؤول، المسؤول هو أنت، وأنت تجبرني. كلمة واحدة منك توقف كل شيء.

وبهذا القول، تأكد لخالد أنه لم يخطيء الفهم، فوجد نفسه يزأر.

– تمتهن كرامات الناس، وتقتلهم، وتحملهم هم المسؤولية. تراوغ كثعلب وتظن أنك ماهر. إنك لا تملك الجرأة.

– انتظر وسترى بعينيك!

بلغ اهتياج الرائد ذروته فلم يعد لأي استفزاز أن يزيده، اندفع وما عاد قادراً على لجم اندفاعته. ولعله أحس بالحاجة إلى أن يبدو متماسكاً، فلجأ إلى السخرية، إلا أن نزعة الانتقام المسيطرة عليه طمست السخرية وأبرزت اللؤم وحده.

– هيا! سترينا الآن كيف تخلع السيدة العاقلة ثوبها!

باشرت السكاكين رقصها في أحشاء خالد. وصدرت عن صف الرجال المقيدين لا، مديدة وصاخبة. واشتدت قبضات الحراس على بنادقهم فيما تصلبت أجسادهم وقست سحنهم. ولطم كفا سميرة عينيها وغطياهما. وصارت للرائد هيأة قرصان.

– السيدة جميلة، ورجالي أقوياء، وسيكون المنظر ممتعاً.

طأطــأ الحراس الأربعة المعنيون بإشارة الرائد إلى رجاله الأقوياء رؤوسهم. وتجمدت حركة ضئيل القامة، حتى حركة مقلتيه. وبدا للحظة أن الرائد يحاول السيطرة على نفسه غير أن انفعالاته صارت أقوى من حاجــته إلـــى أن يـــبدو طبيعياً ومتماسكاً، فراح يتكلم وهو يترنح كأنه قرصان وقد سكر.

– ســتخلعين ثوبك، ليس هذا فقط، سينالك رجالي الأربعة، وينالك بعدهم كل من يشتهيك في هذه القاعة، هذا إذا لم يختم خالدك الحكاية!

حتى في هذا الموقف لم يفت الرائد أن يشدد الجملة الأخيرة. وجالت الســكاكين جولـــة أخـــرى في أحشاء خالد. وتواترت في القاعة لاءات متـــتابعة، جمعية وفردية. وبقي رجال الرائد الأربعة جامدين. أما هو، هو الذي استحوذ عليه لؤمه وحده، فلم يحجم.

– إذاً لـــم تعـــرّ الســـيدة نفسها فسيعريها الحراس، أعطيها فرصة الاختـــيار. أنـــا أعطي لمن أتعامل معهم الفرصة دائماً، أليس كذلك يا خالد!

قال الرائد ما قاله دون أن ينظر إلى سميرة. ونطق عبارته الأخيرة وشـــددها وظهـــره إلـــى المنتصبة على المنضدة وهو يتراجع ناحيتها ووجهه متجه نحو صف الرجال المقيدين.

– أعطيته فرصة كبيرة، قائدكم هذا، فضيّعها، يريد أن يكون بطلاً، ومتى؟ أيها البطل الذي جاء في غير زمانه، احترامي!

وتبع الكلام دفقُ ضحكة انطلقت من فمه وراح هو يدور في القاعة علـــى وقعهـــا. وحين دنا من صف الرجال، سكن وكشر في وجوههم، القرصان وقد غلبه سكره.

- وأنـــتم؟ تريدون البطولة؟ لن أحرمكم هذا الشرف، لكني أذكّركم بشيء: الهزيمة والبطولة لا يجتمعان.

وفيما هو يتراجع مبقياً وجهه في ناحيتهم، صار صوته أعلى.

- قاتلـــتم حـــتى نفـــدت ذخـــيرتكم، هـــذا لا يعطيكم أي حق، أنتم مهزومون، والمهزوم لا يكون بطلاً.

ومـــن موقعه وراء المكتب الذي رجع إليه، وجه الرائد إلى الرجال المقيدين إصبعاً محذرة.

- المهـــزوم يكـــون مهزوماً، يمشي في طابور المستسلمين مطرق الـــرأس. أمـــا أنتم فتكابرون، تريدون أن تكونوا أبطالاً، ولكني سأصنع منكم قوادين.

ودون أن ينحي نظره عن صف الرجال المقيدين، أصدر الرائد إلى حراسه الأربعة أمراً هادراً.

- عـــرّوها، ســـتنالونها أمـــامهم ليعرفوا أني أعطيهم الشرف الذي يستحقون!

همـــر خـــالد. وهمر الرجال المقيدون. وخذلت أبا باسل ساقاه فقعد علـــى الأرض. وأشرعت البنادق في الوجوه. وبصقت سميرة في اتجاه الرائد وتميز صوتها وسط صخب التذمر.

- وحش!

فـــرد الـــرائد وهو ينظر إلى خالد وليس إلى التي بصقت عليه.

- قولي ما تشائين، لكنك سترضخين، وسيرضخ هو.

وصعد اثنان من الحراس الأربعة إلى المنضدة وحاولا إرغام سميرة علـــى التمدد، غير أنهما فشلا في التغلب على مقاومتها. فتدخل ضئيل

القامـــة، وتعاون الثلاثة فقيدوا يديّ سميرة. وهدر صوت الرائد: أطلقوا الـــنار علـــى من يتذمر! وراحت مزق الثوب تتناثر. وأغضى الرجال المقـــيدون أبصارهم. والحراس ذوو البنادق أغضوا، والآخرون. واشتد قتام سحن الجميع.

وبأعمق ما في نفسه من بغض للنذالة، وبجبروت الضحية حين تعزم على أن تجعل جلادها يستخذي، أوقف خالد رقص السكاكين في أحشائه وانتزع نفسه من صمته.

- افعـــل ما يحلو لك! أنت تفهم الشرف في الجسم ونحن نفهمه في الفعل. تستطيعون أن تؤذونا، لكنكم لن تنتصروا كما تريدون.

وصاح في سميرة.

- أنت في عريك صامدة أشرف مما أنت في ثيابك منهارة، والخزي الذي تصوروا أنهم سيلحقونه بك هو وسام طهارة لك، أنت حبيبتي، أنت رفيقتـــي، رفيقتنا جميعاً. وها أنت ذي ترين، عرّاك ولم يجرؤ على أن ينظر إليك، يهابونك أكثر وأنت عارية.

وبينما كان خالد يتكلم، نهضت سميرة. وحين فرغ من كلامه كانت العاريـــةُ مقيدةُ اليدين قد انتصبت واقفة. فابتعد الحراس الأربعة وضئيل القامـــة عـــن المنضدة. وفقد أبو باسم وعيه. وبكى رجل من المقيدين. وغادر الرائد القاعة.

صدر للمؤلف

في الرواية :

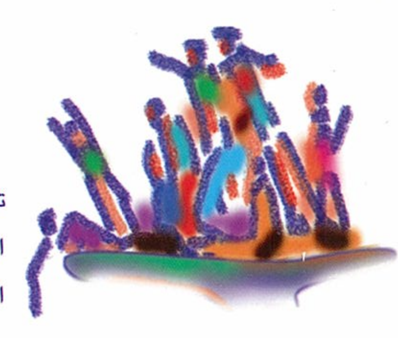
- بئر الشوم، بيروت، 1979.
- سمك اللّجة، دمشق، 1983.

في الدراسات :

- الفكــر السياســي الفلسطيني 1964-1974، دراسة للمواثيق الرئيسية لمنظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، 1980.
- العمــل العربي المشترك وإسرائيل – الرفض والقبول، نيقوسيا (قبرص)، 1989.
- جــذور الرفض الفلسطيني 1918-1948، نيقوسيا (قبرص)، 1990.

في الشهادات :

- دروب المنفى 1، الوطن في الذاكرة، دمشق، 1994.
- دروب المنفى 2، الصعود إلى الصفر، عمان، 1996.
- دروب المنفى 3، زمن الأسئلة، عمان، 1998.
- دروب المنفى 4، الجري إلى الهزيمة، رام الله، 2001.
- دروب المنفى 5، أين بقية الحكاية ؟، بيروت، 2002.



تهتم هذه السلسلة التي تصدر عن «المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي» بجمع وتوثيق الرواية الفلسطينية بأبعادها التاريخية والثقافية والاجتماعية، ومن هنا يأتي توزّعها على عناوين تتخصص كل منها في مجال، لتشكل في المحصلة عنواناً واحداً هو: فلسطين رواية الذاكرة وذاكرة الرواية؛ الذاكرة بمعناها الواسع والمتجدد الذي يبني قوته من ذهابه نحو المستقبل.

يشرف على هذه السلسلة كتاب وأكاديميون وباحثون متخصّصون، تستقي معلوماتها ومعرفتها من مختلف المصادر المتوفرة، الشفاهية والموثقة، وتخضع للتدقيق والدراسة والمقارنة، قبل أن تصل إلى يد القارئ.

إن ثغرات كبيرة، تعتري رواية الفلسطيني عن نفسه، وهي ثغرات ساهمت فيها ظروف التشتت واللجوء والهجرة، وسياسات الاحتلال وإجراءاته، ومحاولات التذويب وطمس الهوية الوطنية الفلسطينية العربية، التي لم تتوقف منذ نكبة العام 1948، وما قبلها.

ويتأسس مشروع «المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي»، على محاولة سدّ هذه الثغرات، عبر جمع الرواية من أصحابها، مستفيدة من الجهد المبذول في هذا المجال، على أيدي كتاب ومبدعين ومؤرخين فلسطينيين وعرب وآخرين من أرجاء العالم.

إن إصدار هذه السلسلة، هو في الوقت ن
من «المؤسسة» لكافة المهتمين، للمساهمة
المشروع، ورفده بالمادة المتوفرة لديهم، لتع
هذا الجهد.